اقرأ

أمينة السعيد

أبناؤنا المنحرفون

قصص واقعية من الحياة
لمآسي انحرافات الفتيات والشبان

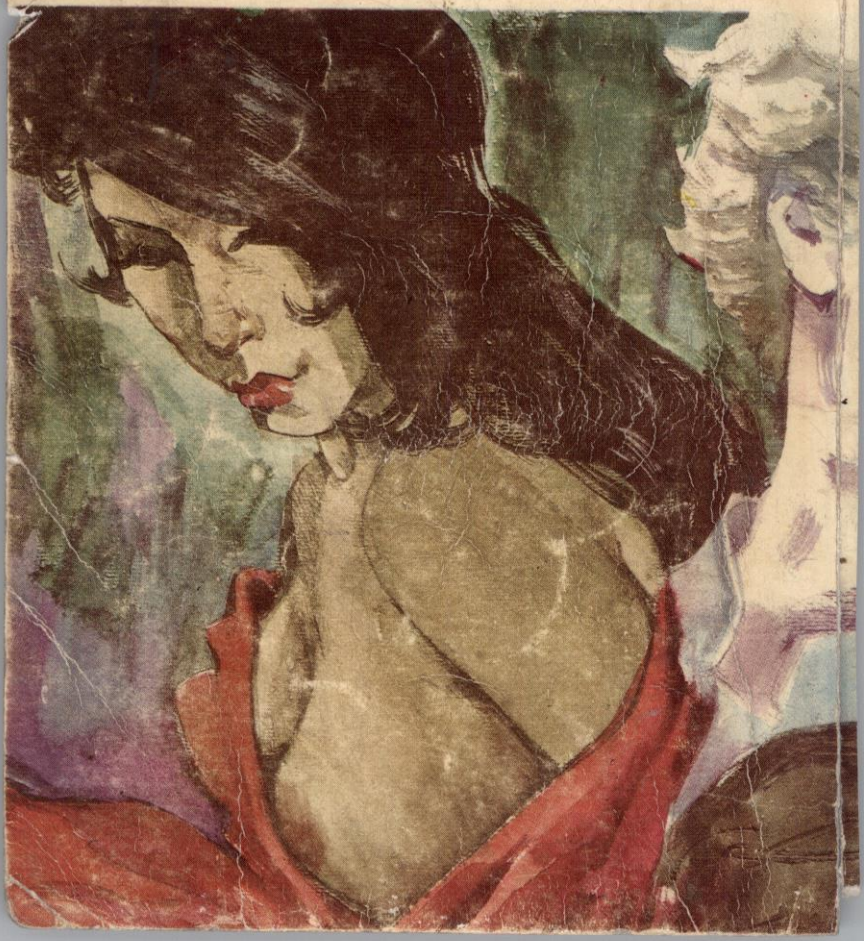

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

دار المعارف بمصر

أمينة السعيد

أبناؤنا المنحرفون

قصص واقعية من الحياة
لمآسي انحرافات الفتيات والشبان

اقرأ ٣٩٢

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

مقدمة

كلمة لا بد منها

التحليل النفسى علم وفن فى آن واحد . . .

إنه العلم الذى يرشدنا إلى خفايا العقل الباطن . . . أو اللاوعى . . . وهو الفن الذى يهدينا إلى العواطف الحبيسة بين طياته ، ويمكننا من أن نطلق لها الحرية ، فنتخلص من الأوهام الخادعة التى تراكمت بمضى الوقت حتى أصبحت مصدراً لتعاستنا وشقائنا . .

وبفضل بدعة التحليل النفسى أمكن للعلم أن يحرر المرء من انفعالاته الخفية التى تعذب حياته وتربك تفكيره ، فكأن التحليل النفسى هو الوسيلة الصائبة إلى تسليح الإنسان بالقدرة على قهر أحقاده ومخاوفه وشكوكه ، وتزويده بالأهلية على توجيه نشاطه وقواه إلى الأفعال الطيبة . . .

فإدراك ما يجرى فى العقل الباطن والتحكم فيه هو الطريق الأول إلى الارتقاء بالمرء إلى أعلى مراتب السعادة ، فمن العقل الباطن ينبع الخيال وتتفجر قوى الإبداع والابتكار . . فى حين أن الجهل بالعقل الباطن يؤدى إلى شروده ، وهذا كفيل بالقضاء على صاحبه ، إما ببطء عن طريق إصابته بالاكتئاب وما قد يترتب عليه من إدمانه الخمر أو تعاطيه المخدرات أو ارتمائه فى أحضان الانحرافات الخلقية على أنواعها . . . وإما أن يأتى الدمار سريعاً فى صورة جرائم وحشية وأعمال من العنف المخيف . .

ولقد أثبت التحليل النفسى — برغم حداثة عهده — قدرة فائقة على تغيير الطبيعة البشرية ، وفتح أبواب الأمل أمام كثيرين ممن يتردون فى مهاوى اليأس والقنوط . كما أثر فى حياة الملايين . بما هيأه لهم من تفهم عميق فى محيط تربية النشء ، وتوضيح الأسباب الدافعة للجريمة ، وتهيئة عوامل الحماية من الانحرافات الخلقية المتعددة .. فالتحليل النفسى ، بكشفه لنا عن خفايا العقل الباطن ، قد أكد لنا أننا لسنا المتحكمين دائمًا فى مصايرنا ، بل هناك قوى مجهولة توجهنا فى معظم الوقت . . ونحن ، بكشفنا الستار عن عناصر هذه القوى ، نزيل الضغط عن النفس ، ونعيد المرء إلى طريق السلامة . .

ونحن فى هذا الكتاب نقدم مجموعة من قصص المتاعب النفسية التى تصيب أبناءنا — البنين منهم والبنات — نتيجة لأخطاء تربوية يرتكبها الأهل فى تنشئتهم إياهم ، فتترسب آثارها فى قرارة عقلهم الباطن ، وتظل تكبر بمضى الوقت ، إلى أن تنفجر فى أشكال مدمرة !

ولقد أخذنا هذه القصص من كتابين : أحدهما اسمه « الأطفال الذين يقتلون » وهو من تأليف اثنين من خيرة الإخصائيين النفسيين هما « لوسى فريمان » و « دكتور ويلفرد هلس » . والثانى اسمه « نساء مُتعَبات » اشتركت فى تقديم قصصه نخبة من أساتذة التحليل النفسى منهم « مارى بونابرت » و « ميلتون نلسون » و « تشارلز برج » و « هارولد جريوالد » و « أوتوفينيشل » . . . إلخ . . إلخ .

ولقد وضع هؤلاء العلماء قصصهم فى صورة بحوث علمية تعتمد على اصطلاحات فنية معقدة ، من العسير على غير المتخصصين فهمها .

ورغبة فى تعميم فائدتها وتقريب معناها وفلسفتها إلى الأذهان ، رأيت أن أبسطها بتحويلها إلى قصص اجتماعية تكشف بوضوح عن مدى « الدمار » العقلى ، والنفسى ، والخلقى الذى نسببه لأبنائنا ، نتيجة لأخطائنا فى تربيتهم ، وحرماننا لطفولتهم من المناخ الصحى السليم ..

ولسوف نرى أن أبطال هذه القصص وبطلاته جاءوا من جميع مسارات الحياة ، فيهم الفقير والغنى . . . المتعلم والجاهل . . . المتدين والملحد . . . فيهم ابنة القس ، وابن الطبيب ، والمومس ، والأستاذة الجامعية . . . فيهم القاتل ، والمنحرف ، والأبله ، والمجنونة . . . لكن قصصهم كلها تعتبر صرخات طفولة يائسة ، حرمت حقها من الحب والحنان ، فشردت بعيداً عن طريق الخير والفضيلة . . لكن التحليل النفسى نجح — فيما عدا جرائم القتل — فى إنقاذهم من انحرافهم ، فبمساعدته إياهم على تفهم رغباتهم الخفية ، أمكن لهم أن يغفروا أخطاءهم لأنفسهم ، ويقضوا على الثورات الناشبة بين طيات عقلهم الباطن ، فيستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ، ويعيشوا — ما تبقى لهم من عمر — حياة طبيعية متوازنة . .

إن كتاب « أبناؤنا المنحرفون » هو الهدية التى نتقدم بها إلى الآباء والأمهات ، راجين أن يجدوا بين صفحاته الطريق الصحيح إلى إسعاد أولادهم . . .

أمينة السعيد

جريمة أمّ

* أم تضرب بها الأمثال فى العطف والحنان ، تقتل بالرصاص زوجة ابنها العروس الحامل فى الشهر الرابع ، وعلى مشهد من ابنها العاشق لزوجته!.
* كيف بدأت جذور المأساة فى طفولة هذه الأم ؟
* وكيف كان موقف أمها وأبيها سبباً فى هذه النهاية المحزنة لسيدتين جديرتين بحياة سعيدة ؟ !

قدم هذه القصة أحد أساطين الطب النفسى فى فرنسا ، وبطلتها سيدة من الطبقة الراقية مثقفة ذكية ثرية ذات أصل وجاه . أم تضرب بها الأمثال فى العطف والحنان، وزوجة مشهورة بوفارها وتفانيها فى حب زوجها ورعاية مصالحه .

ومع ذلك فقد استطاعت هذه المرأة الممتازة أن تروع الرأى العام الفرنسى بجريمة من أبشع ما يكون، إذ قتلت بالرصاص زوجة ابنها العروس الحامل فى الشهر الرابع . . واختارت أن تنفذ حكم الإعدام على الشابة الصغيرة البريئة فى حضرة ابنها وعلى مشهد منه ، برغم علمها بأنه يعبد زوجته الصغيرة الجميلة ويكاد يطير سعادة بالجنين الذى فى بطنها !

وأبشع ما فى هذه الجريمة أن الأم القاتلة لم تبد أدنى أسف ولا ألم لما ارتكبته ! . . وظلت قبل المحاكمة وفى أثنائها وبعدها رابطة الجأش باسمة الثغر ، تردد المرة بعد الأخرى : « لقد قمت بواجبى وفعلت ما لم يكن من فعله بد ! » . . ولما صدر الحكم بإعدامها . تقبلته باسمة راضية ، كأنهم قرروا أن يبعثوا بها إلى نزهة مسلية !

أما لماذا فعلت ذلك ، فالجواب عن هذا السؤال يأتى من مجريات قصة حياة هذه المرأة ، « مدام مارى لوفافر » . أبشع قاتلة فى عصرنا الحديث : ولدت « مارى » فى أسرة كبيرة تملك مزارع كثيرة وأموالا طائلة ، وكانت الطفلة الأولى لوالديها المتفاهمين المتحابين ، فقوبلت بغاية التدليل والترحيب ، وظلت خلال السنوات الأولى من عمرها تتربع على

عرش قصرهم ومن فيه . . ترفل فى التدليل والرخاء والمحبة والرعاية . . كل طلب لها — ولو خرج عن المعقول ! — مجاب : . وكل أمر ولو أحمق ، مطاع !

ثم حملت أمها للمرة الثانية وأنجبت صبيًّا ، جاء مولده بمثابة الفتيلة ، باعتباره « ولى العهد » المنتظر . . الرجل . . الذكر الذى سوف يحمل اسم أسرته وينتقل منه إلى أولاده وأحفاده من بعده . . وانقلب تيار المحبة والرعاية والتفانى إلى « شارل » الصغير ، وانشغل الوالدان به عن « مارى » ، بل عن كل شىء سواه : إذا خرج مع مربيته للنزهة يودع بعبارات الوله والهيام ، وإذا رجع يقابل بالترحيب والإكرام . . عندما يضحك يعم الحبور أهل البيت كلهم ، وعندما يبكى يشيع الذعر وينقلب المزاج !

ووجدت « مارى » الصغيرة أنها قد نحيت جانباً ولم يعد أحد يحس بوجودها ، فانطوت على نفسها وبدأت تكره صحبة الآخرين ، وتزداد التصاقاً بأمها دون مبرر معقول !

وضاق صدر الأم بإلحاح ابنتها فى التمسح بها ، فكانت تزجرها وتؤنبها ، وإذا لم ترتدع تعاقبها ، مما أدى إلى جفوة شديدة بين الأم وابنتها ، فتحول قلب البنت إلى أبيها اللطيف الطويل الوسيم القوى ، واعتبرته ملاذها الأخير ، فلجأت إليه بقلبها المتحرق إلى العطف والمحبة ، وراحت تسعى بكل حيل طفولتها إلى استرعاء اهتمامه بها . . ولكنها لم تجد منه سوى تجاوب سطحى : كان يربت بيده على ظهرها ثم يوليها ظهره ويذهب إلى ابنه الصبى !

وخابت حيل « مارى » فى استرداد عرشها القديم ، أو إثارة اهتمام أهلها بوجودها ، فاستسلمت للهزيمة . وتضاعف انطواؤها على نفسها ، وتغيرت أخلاقها فأصبحت شرسة المزاج ، عنيدة ، مكابرة ، لا تخضع للأوامر ولا تحترم رغبات الكبار . . مما أقنع أهلها بضرورة مضاعفة الجهد فى تقويمها . . وتصوروا أن إرسالها إلى مدرسة داخلية يروضها ويلين قناتها !

وأرسلت بالفعل إلى مدرسة داخلية بعيدة ، ولم تكن تأتى البيت إلا فى العطلات الكبيرة ، لتجد شارل يرفل فى حلل العطف والمحبة .

ويمضى الوقت .. وكبرت مارى ، وكبرت معها متاعبها النفسية الدفينة . وساءت حالتها بشدة فى مرحلة المراهقة ، وأخذت تظهر عليها أعراض التدين المفرط والرغبة الشديدة فى إدارة الأعمال المخصصة للرجال . وقد تفوقت فى هذا المجال بالفعل وأثبتت جدارتها ، حيث تزوجت بأحد كبار رجال الأعمال الفرنسيين ، وتولت عنه مهمة تصريف كثير من الصفقات الهامة ، وكان لكفاءتها هذه الفضل الأكبر فى اتساع تجارته ومضاعفة ثروته .

وفى خلال السنوات الخمس الأولى من حياتها الزوجية أنجبت « مارى لوفافر » صبيين : أحدهما قوى ، جميل ، والآخر كسيح عليل لا يرجى له شفاء مهما طال به العمر .

والعجيب فى أمر هذه السيدة أنها فرحت بالابن الكسيح أكثر مما فرحت بالسليم ، وأقبلت على رعاية الإثنين بكل ما تملك من جهد وعاطفة . . أعطتهما كل وقتها وحنانها ورعايتها . . وأحاطتهما بسياج منيع من الرعاية ،

كأنهما كنز تخشى أن يقترب منه أحد فينتزعه منها !

وكبر الولدان ، وبلغا مبلغ الرجال ، وظل الكسيح كسيحاً على حاله ، وازداد السليم سلامة وقوة ووسامة . . ثم حان الوقت لهذا الابن الرائع أن يبنى أسرة لنفسه ، فتقدم بموافقة أهله لخطبة فتاة يحبها ، من أكبر العائلات الفرنسية . . وتحدد يوم الزفاف .

ومما يثير الاهتمام أن الأم لم تعارض فى ذلك ، وإن كانت قد تقبلت الموضوع بهدوء غير عادى . . والأمر الوحيد الذى لوحظ عليها أن حالتها الصحية تدهورت بشدة دون مسوغ ، فأصبحت نهباً للأرق ، والصداع ، وآلام الظهر ، وأوجاع الكلى والكبد والأحشاء ، فضلا عن الإمساك الذى كان يلازمها أسابيع متتالية ، ثم يعقبه فجأة إسهال شديد يعجز الأطباء عن وقفه . . وبعرضها على أساطين الطب فى فرنسا أجمع الرأى على أنها لا تعانى أى مرض عضوى يسوغ الحالة الصحية الرهيبة التى تعانيها ، والمسألة من بدايتها إلى نهايتها مجرد أعصاب ، ولا يعرف أحد لماذا اضطربت بهذه الصورة : :

فضيحة مدوية

وحدث الانفجار الأول داخل الكنيسة فى أثناء زفاف ابنها وعروسه .. إذ فوجئ كبار المدعوين « بمدام لوفافر » تصرخ فى وجه العروس الواقفة أمام القسيس بالشتائم والسباب ، تتهمها بأنها خربت ميزانية ابنها خلال فترة الخطبة ، بما فرضته عليه من نزهات وما تقبلته من هدايا . . وعيرتها بأنها تأكل أكثر مما يجب ، وهو إسراف غير مقبول ، وأعلنت أمام

المدعوين أنها قررت أن تحرم زوجة ابنها من الخدم ، وعليها أن تقوم من أول يوم بواجبات الكنس والمسح والطهو فى بيتها الجديد !

وكانت فضيحة مدوية ظلت الأوساط الفرنسية الراقية تتحدث بها على مضى الشهور !

وتبين الابن خطورة الموقف ، فأبعد زوجته عن أمه بكل لباقة ، واكتفى هو بالمودة والتزاور . .

وعندما ظهرت أعراض الحمل على العروس أبقى الخبر فى طى الكتمان ولم يحدث به أحداً ، خشية أن يصل الخبر إلى أمه فتزداد طغياناً على طغيان . . لكن « مارى اوفافر » — التى كانت من بعيد تتابع خفية أخبار العروسين — وجدت من يخبرها بقصة الحمل . ولما تأكدت من صحة هذا الخبر ، اشترت فى السر مسدساً . وبلغ بها الشر أن رجت ابنها أن يتولى تمرينها على إصابة الهدف ، بحجة أن اللصوص انتشروا فى حيهم ، وأنها تخشى على سلامتها وسلامة ابنها الكسيح فى أثناء سفر عميد الأسرة لأداء مهامه الكثيرة . .

وذات يوم ، استدعت الأم ابنها وأبدت له غاية أسفها على ما بدر منها نحو زوجته ، ورجته أن يمنحها فرصة تصفية الجو وإعادة الوئام ، بحيث تكون هذه الفرصة بمثابة البداية الطيبة لعهد الوئام الجديد !

وفرح الإبن بالتغير الذى طرأ على أمه ، ولبى دعوتها فرحاً . .

وخرج ثلاثتهم إلى الغابات فى السيارة والدنيا لا تكاد تسع سعادتهم .

وعند ركن ظليل جميل ، طلبت « مدام لوفافر » من ابنها أن يتوقف لحظة ، للاستمتاع بالمنظر الطبيعى الرائع . . وعندما فعل ذلك ، استلت

الغدارة بسرعة ووضعتها على رأس العروس وأفرغت رصاصاتها فى فى جمجمتها على مشهد ومرأى من ابنها الزوج السعيد !

. . ثم ظلت فى مكانها جالسة رابطة الجأش ، لا تغيب الابتسامة عن شفتيها ، ولم يبد عليها أدنى ضيق أو اشمئزاز لرؤية الجمجمة المفتتة أمامها ، أو تلطيخ ثوبها بدماء كنتها !

ولازمها هذا الهدوء فى أثناء التحقيق والمحاكمة ، ولم تستطع أن تقدم مسوغاً لفعلتها الأثيمة سوى أنها قامت بواجبها ، وفعلت ما كان ينبغى عليها أن تفعله . . وعندما صدر عليها حكم الإعدام لم يتحرك أى ساكن لها ، وعندما استبدل بالإعدام السجن المؤبد — تمشياً مع التقليد الفرنسى الذى أوقف الإعدام فيما يختص بالنساء — لم تظهر الفرح ولا الاغتباط ، وإنما كان التغيير الذى أذهل المسئولين بعدئذ هى الحالة الصحية الرائعة التى أصبحت فيها « مارى لوفافر » ، مع أنها كانت تعيش فى زنزانة رهيبة : تنام على الأرض الخشبية ، وتأكل طعام السجن البغيض . . فقد تلاشت جميع أمراضها تلاشياً كاملا : ذهب الأرق والصداع ، واختفت أوجاع الكلى والمرارة والأحشاء ، وانتظمت أحوالها فلم يبق أثر للإمساك والإسهال ، وتورد وجهها كما لم يتورد طول حياتها ، وامتلأ جسدها بعد نحافة شديدة ، وبدا واضحاً أنها تستمع بحياة السجن أكثر من حياة القصور !

ابحث عن الطفولة

وتقرر عرضها على طبيب نفسى لمعرفة خفايا هذه المرأة العجيبة التى أثارت اهتمام الدوائر العلمية ، واعتبرت حقلا نفسيًّا جديراً بالدراسة الدقيقة !

واختير لها أحد أساطين الطب النفسى فى فرنسا ، فكتب بعد طول فحص وتمحيص ، يقول :

« إن كل إنسان يحمل فى نفسه بذرة القتل ، وهذه البذرة تكون شديدة الوضوح فى الطفولة ، وكثيراً ما تراود الصغير فكرتها إذا أغضبه أحد ، حتى أقرب الناس إليه . . ولكن الظروف التى تحيط بنشأة الفرد ، والعوامل التى تكتنف السنوات الأولى من حياته ، هى التى تحدد مصير هذه البذرة ، فتقضى عليها إذا كان المناخ التربوى ملائماً . أما إذا كان غير ملائم فهذه البذرة تختفى بين طيات العقل الباطن ، حيث لا يحس بها أحد حتى صاحبها ، ثم تنفجر إذا تهيأت الأسباب لذلك !

و « مدام لوفافر » من النوع الأخير ، والحقيقة أن الجريمة الشنعاء التى ارتكبتها هذه السيدة المثقفة المثرية الراقية لم تكن بنت الغيرة التى تصيب الحماة أحياناً نحو كنتها . . إنما كانت الترجمة الدقيقة للظروف التى أحاطت بطفولتها وتركت فى نفسها مرارة ما بعدها مرارة . بسبب السلوك التربوى الخاطئ الذى لجأ إليه والداها عند مولد ابنهما « شارل » . فالأصول التربوية تحتم أن يعامل الطفل بالقدر المناسب من الحنان . دون إفراط أو إغراق يوهمه أنه عماد البيت وسيد الوالدين دون شريك ،

بشعوره هذا قد يؤدى إلى دماره النفسى إذا جاء إخوة آخرون ووجدهم شركاء له فى كل ما كان يستمتع به وحده ! . . فما بالنا بالطفلة « مارى » التى خرج والداها عن جادة العقل والحكمة بتتويجها ملكة للأسرة قبل مولد أخيها . وعندما حملت الأم للمرة الثانية ارتكبت غلطة أخرى هى عدم إعدادها المسبق لاستقبال المنافس القادم دون خصومة أو عداء . . ولقد بلغت المحنة أقصاها بانصراف الوالدين إلى رعاية هذا الصبى الجديد ، حين سمحا لسعادتهما به أن تشغلهما عن ابنتهما الأولى التى ظلت فى سنواتها الأولى صاحبة المكانة الكبرى والوحيدة فى قلب والديها . .

ولقد أصيبت الطفلة بطعنة نفسية نجلاء حين تلفتت حولها فوجدت والديها تخليا عنها وأنزلاها من عرشها دون وجه حق . . ولم تجد من والدها العوض عن الجوع العاطفى الشديد الذى أصابها بانشغال أمها عنها ، فتضاعفت المرارة فى نفسها ، هذه المرارة التى لجأت الطفلة إلى التعبير عنها بالانطواء على نفسها وبالعناد والمكابرة والمشاكسة ، ثم بالتدين المفرط فى مرحلة المراهقة ، والتعلق بأعمال الرجال ، لكى تثبت لنفسها أنها لا تقل أهمية عن الصبى الذى حرمها مكانتها التقليدية القديمة وأنزلها عن عرشها واحتل مكانها فيه !

وبإبعادها عن البيت فى المدرسة الداخلية تلقت « مارى » الطعنة النفسية الثانية ، التى أكدت لها أنها مخلوق غير مرغوب فيه ، وغيابه خير من حضوره ، بعكس « شارل » الذى يستمتع بكل شىء . . أى أنها أصبحت إنساناً ينقصه الانتماء . . لا ينتمى إلى أحد ولا أحد

ينتمى إليه ؛ هذا الشعور القاتل الذى كثيراً ما يوحى إلى صاحبه بأبشع الأعمال . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن بذرة القتل أخذت تنتفخ وتنتعش فى نفس « مارى » منذ ذلك الحين ، ثم بدأت فترة الهدنة بمولد الصبيين بعد زواجها ، فالأول مرة شعرت بالانتماء ، فالولدان من بطنها ، وهما منها ولها ، وفيهما العوض النفسى الكامل . . ولكن زواج الابن الأكبر السليم قلب الجمر ، أو أحيا النيران النفسية من جديد . . وعاد خطر الوحدة وعدم الانتماء يتمثلان لها فى ربط حياته بامرأة سواها قادرة على إرضائه وإشباعه بوسائل ليست فى مقدور الأم . . ثم جاء الحمل الذى أعاد إليها مأساة حمل أمها فى « شارل » وما ترتب على مولد الجنين من عزلة عاطفية وجوع حسى رهيب . . عندئذ حدث الانفجار فارتكبت « مارى لوفافر » جريمتها انتقاماً لمأساتها فى طفولتها . . التى شاء حظها النكد أن تتسلل آلامها فى عقلها الباطن فى غفلة من عقلها الواعى . ودون أن يحس بها أهلها ليتداركوا الخطر فى وقته المناسب . .

وجميع الأمراض التى أصابتها وحار فى علاجها الأطباء لم تكن فى الحقيقة سوى « اضطرابات عصبية » تعبر عن الغليان النفسى الثائر بين طيات عقلها الباطن ، ولو أنها وجدت فى تلك الفترة المعونة العلمية الصحيحة التى تغوص فى أغوار نفسها وتطفو بمتاعبها إلى السطح . ما وقعت الجريمة ولا فكرت « مدام لوفافر » فى الإطاحة بجمجمة كنتها على مشهد ومرأى من زوجها الحبيب . .

لكن أحداً لم ينتبه لمتاعبها ، فأخذ كبت هذه المتاعب يسبب لها

ضغوطاً داخلية رهيبة ، انتهت تماماً وحل محلها السلام بتنفيذها حكم الإعدام فى كنتها ، وهى تحمل فى بطنها جنيناً كالذى حملته أمها فى يوم من الأيام وقضى على سعادتها واستقرارها . .

لقد شفيت « مارى اوفافر » تماماً واستعادت صحتها وعافيتها واستقرار نفسها عندما تخلصت بجريمتها من الضغوط النفسية التى سببتها لها تربية والديها الخاطئة ، وجهلهما بالأسلوب الصحيح فى تنشئة الأبناء وتوجيههم :

ويمكننا تلخيص الأخطاء التربوية التى ارتكبها الأهل دون قصد فأدت إلى الجريمة فيما يلى :

١ ــ أنهم أغرقوا الطفلة بأكثر مما ينبغى من عطف وتدليل ، بحيث تصور لها أنها كل شىء فى البيت ، ولا شريك لها فيه !

٢ ــ أنهم لم يعدوها نفسياً لاستقبال المولود الجديد ، بالتوعية السليمة فى أثناء حمل أمها ، حتى تقتنع قبل مجيئه بأنه إنسان حبيب ، وليس شريكاً أو غريماً !

٣ ــ أنهم انشغلوا عنها به بعد مولده ، وحرموها فيض عطفهم السابق . :

٤ ــ أنهم لم ينتبهوا لأعراض المتاعب النفسية التى أخذت تعانيها ، مثل الانطواء ، والعناد ، والتمرد ، واتخذوا الموقف العكسى فأبعدوها عن البيت ، الأمر الذى أدى إلى تضخم شعورها بعدم الانتماء ، ودفعها إلى ارتكاب الجريمة عندما وجدت عدم الانتماء يتهددها مرة أخرى !

« سندرا » تبحث عن الانتماء ..

* لماذا احترفت « ساندرا» البغاء ؟ ..
* هل كانت تبحث عن اللذة ؟
* هل كانت تبحث عن المال ؟
* إن الحقيقة تؤكد أنها كانت تبحث عن شيء آخر .. هو الانتماء . .

هى فتاة أمريكية فى الحادية والعشرين من عمرها اسمها « ساندرا » جميلة الشكل إلى درجة تلفت الأنظار .. أنيقة الملبس فى اعتداد واحترام ، وقورة فى حركتها وسكناتها مهذبة فى حديثها الهادئ المتزن . .

أما مهنتها فظهر أنها بغى محترفة . :

ويؤكد الطبيب النفسى الذى تولى علاجها أنه حين دخلت عليه هذه الفتاة ووقعت عليها عيناه أول مرة . لم يدر بخلده ولو لحظة واحدة أنها تحترف البغاء وتعيش من ارديلة . . وقد جاءت الصدمة التى تلقاها بمعرفة الحقيقة مفاجأة عنيفة ، لم تسعفه البديهة فى الحيلولة دون ظهور آثارها على وجهه . وهى أكبر غلطة يرتكبها المحلل النفسى فى حق مريضه أو مريضته ، فالمفروض أن يلزم الطبيب دائماً موقف الحياد ولا يظهر تأثراً لما يقال له من الحقائق ، مخزية كانت أو مشرفة .

والعجيب أن « ساندرا » الجميلة الهادئة الرقيقة لم تلجأ للطبيب طلباً للخلاص من المهنة التى تدهورت فى مهاويها ، إذ كانت راضية بحالها قانعة بطريقها فى الحياة . ولم يكن يقلقها سوى شعور مزعج بأن الناس — حتى عابرى الطريق الذين لا يعرفونها — ولم يسبق لهم الالتقاء بها — بمجرد أن يقع عليها نظرهم عرضاً وهم يعبرون الطريق تبدو فى وجوههم أوضح معانى السخرية والازدراء . فلماذا يسخرون منها ، وماذا فى وجهها يدعو إلى الازدراء . .

برودة الملجأ

وكان على الطبيب أن ينقب فى لفائف العقل الباطن بحثاً عن الأسباب التى تعذب مريضة بهذه التصورات الخاطئة ، ولقد فعل ذلك واستنفدت منه العملية وقتاً طويلا انتهى بأن عثر على الحقيقة فى قصة حياتها وأحداث طفولتها الأولى : فلقد ولدت « ساندرا » فى أسرة صغيرة محترمة يعمل والدها بالتجارة ويكسب ما يكفى لتلبية احتياجات زوجته الطيبة وبناته الثلاث الصغيرات .

وكانت «ساندرا» أصغر الأبناء، ومن سوء حظها أنها ولدت فى أعقاب الأزمة الاقتصادية الرهيبة التى أمسكت بخناق الولايات المتحدة فى بداية الثلاثينيات وأطاحت برءوس الأموال ، وحكمت على كثيرين بالخراب ومنهم والد « ساندرا » ، وبذلك قدر على الطفلة الصغيرة أن تولد فى مرحلة الضنك والتقشف التى حلت بأسرتها بعد أن لحق الإفلاس بتجارة أبيها .

ولم يبق لديه مصدر للدخل يعول به أهل بيته .

وحاول الأب من جانبه أن يتغلب على المحنة ، وأخذ يجرب حظه هنا وهناك لكن محاولاته كلها باءت بالإخفاق ، وازداد تدهور وضعها الاقتصادى حتى لم يبق أمامه مفر من أن يتخذ إجراء حاسماً يواجه به النكبة . . فاتفق مع زوجته على توزيع بناته : أبقى كبراهن فى البيت لمعاونة أمها فى الأعمال المنزلية ، وأعطى الوسطى عمتها المقتدرة تربيها وتنفق عليها ، أما « ساندرا » المسكينة فقد اضطر إلى التخلى عنها

للجهات المسئولة حيث أدخلت ملجأ للفقراء ، وكانت فى الخامسة من عمرها .

وانتقلت « ساندرا » الصغيرة من دفء الأسرة إلى برودة الملجأ ، الذى يضم أكثر من ثلثمائة طفل ، وبعد أن كانت فرداً من خمسة يعيشون متحابين تحت سقف واحد، وجدت نفسها تذوب فى هذا القطيع الإنسانى الضخم البائس ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذت أحوال الصغيرة تتغير ، مالت إلى العزلة ، وغلبها الوجوم ، وفقدت شهيتها للطعام فامتنعت عن الأكل مما أدى إلى تدهور صحتها ، وتحمل جيدها أكثر مما تحتمله طفولتها .

ولم يبق بد من اتخاذ إجراء سريع حيالها . .

فتدارس المشرفون على الملجأ حالتها وعلموها إلى احتياجها لأسرة تحيطها بالجو العائلى الذى اعتادته وحرمتها الظروف من الاستمرار فى الاستمتاع به . . .

وكانت عودتها إلى بيت أبيها مستحيلة بسبب الضنك الذى يعيش فيه ، لذلك اختاروا لها أسرة بديلة مكونة من زوجين وابنتهما الوحيدة الصغيرة التى تقارب « ساندرا » فى السن ، وتصلح أن تقوم مقام أخت لها . .

ونقل المشرفون على الملجأ « ساندرا » إلى أسرتها الجديدة متصورين أنهم أدوا بذلك لها خدمة جليلة ، لكن المسألة جاءت بالعكس ، فأبوها الجديد كان رجلا خشناً متجهماً دائماً لا تعرف الابتسامة طريقها إلى فمه . . ولقد تقبل الطفلة فى بيته طمعاً فى الأجر السخى الذى يتقاضاه

من الحكومة لقاء ذلك ، وفيما عدا هذا الأجر المفيد له ، لم يكن أمر « ساندرا » يعنيه فى قليل أو كثير ، فاهتمامه وعواطفه وكرمه ورقته وسخاؤه ظل مقصوراً على ابنته الحقيقية فقط ، يغرقها باللعب والحلوى ، وياويل الصغيرة المسكينة إذا مدت يدها إلى لعبة من اللعب أو طمعت فى قطعة من الحلوى أو الشوكولاته ، وإذا فعلت تثور الإبنة المدللة فيثور والدها بالتبعية وتنصب النقمة على رأس « ساندرا » مما يزيدها عزلة وعذاباً . . .

حنان الوحوش

والمرة الأولى التى لمست فيها حنان أبيها البديل جاءت على أبشع صورة . .

كان ذلك عندما خرجت ربة البيت ذات يوم بصحبة ابنتها لشراء حاجيات الأسرة من السوق . . وخلا المكان إلا من الطفلة والرجل الخشن ، عندئذ وجدته يتحول فجأة إلى وحش ويعمد إلى امتهان آدميتها بصورة لم يسبق لها معرفتها .

وكانت الفتاة أصغر سناً من أن تميز بين الخطأ والصواب وتفهم المعنى الحقيقى لما يريده ، ولكنها قاومت بالغريزة ، ورفضت أن تذعن لرغباته الشريرة ، فجن جنونه ولسعها بسيخ محمى فى يده فى فخذها عقاباً لها على عصيانها ، ولقد تركت هذه اللسعة فى جسد الطفلة البريئة ندبة ظلت طول حياتها واضحة فى فخذها .

وأمام الألم الشديد من العقاب الموجع والخوف الرهيب من أن يتكرر ، كفت « ساندرا » عن المقاومة واستسلمت لما يريد أن يفعل بها . فكانت مكافأتها على ذلك أن رأته لأول مرة فى حياتها يربت على رأسها ويبتسم فى وجهها كما أعطاها فى اليوم التالى كرة ومضرباً صغيراً فكانا أول هدية تلقتها فى حياتها .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الرجل لا يحنو على « ساندرا » أو يعترف بوجودها إلا لغرض فى نفسه يقضيه فى غيبة بقية أفراد الأسرة ، فتعلمت أن تطيعه طمعاً فى الحنان والهدايا . كما تعلمت أيضاً بمضى الوقت أن ترضى رجال الحى الذى يسكنون فيه . المتزوجين منهم وغير المتزوجين — بنفس الطريقة مجاناً ، ولا تطالب لقاء ذلك سوى شعورها باهتمامهم المؤقت بها ، والذى أخذ يزداد خصوصاً فى مرحلة المراهقة عندما بدأت زهرة أنوثتها تتفتح عن قوام بديع وجمال أخاذ لا تحظى بمثلها فتاة أخرى فى المنطقة كلها .

وبفضل هذه المزايا الرائعة التى خصتها بها الطبيعة أصبحت محط الأنظار المهمة الجائعة . . الكل يجرون وراءها من أجل الجنس فقط ، وإذا رفضت لا يلبث الجميع أن يولوها ظهورهم وينصرفوا لتواجه الوحدة من جديد ، وتحترق بلهيب التعطش إلى العطف والحنان .

وفى هذا الجو المخيف كبرت « ساندرا » واكتمل جمالها .

وكانت أحوال والديها قد أخذت فى التحسن بعد طول فقر وتقشف . فأصبح فى مقدورهما الإنفاق عليها ، فطلبا استردادها بعد فراق طويل دمر قيمها وأفسد نظرتها إلى الدنيا ومن فيها . .

وعادت « ساندرا » إلى بيتها وقد تعقدت نفسيتها وتمزقت الروابط بينها وبين أعز الناس إليها، وهم أفراد أسرتها، حتى أصبحت تشعر أنها غريبة عنهم وأنهم غرباء عنها، وهى نتيجة طبيعية للفراق الطويل، فالبعد كما يقولون جفاء، فما بالنا إذا اكتنف هذا الفراق أقسى أسباب العذاب والمذلة . . .

ووجد الأبوان أمامهما ابنة رائعة الجمال مضطربة النفسية مشوشة المبادئ والاتجاهات ، فضربوا حولها نطاقاً من الرقابة الصارمة وفرضوا عليها قيوداً قاسية، إذ حرموها من الثياب الجميلة التى تبرز أنوثتها ، كما قتروا عليها فى الطعام حتى لا تزداد تورداً ونضارة . كذلك منعوها من الاشتراك فى الأنشطة المدرسية منعاً للاختلاط مع أنها كانت متفوقة فى دراستها ، وبخلوا عليها بالشارة الصغيرة المطلوبة للانتماء للفرق الرياضية ، ورفضوا أن يعطوها نصف دولار قيمة الاشتراك فى إحدى الأسر المدرسية : :

وكانت إذا تأخرت نصف ساعة عن المواعيد المحددة للعودة من المدرسة يبعثون وراءها بأختها الكبرى لتهددها أمام زميلاتها وزملائها بالضرب المبرح إذا لم ترجع إلى البيت فوراً ، الأمر الذى أصابها بخزى شديد فى المدرسة ، ودفعها إلى المزيد من الارتماء فى أحضان الجنس ، والسخاء فى إعطاء نفسها مجاناً لكل من يبدى لها شيئاً من العطف والمودة .

وحين بلغت الثامنة عشرة كانت قد حزمت أمرها على الانطلاق من القيود الرهيبة التى تتعسها ، فجمعت ذات يوم حاجياتها القليلة وهربت من بيت أسرتها ، وسافرت إلى مدينة نيويورك حيث الذئاب

البشرية تقف متربصة فى انتظار الوحيدات الساذجات المعذبات مثيلاتها .

والعجيب أن « ساندرا » برغم التجارب القاسية التى مرت بها ظلت ساذجة غريرة لا تعرف شيئاً من حقائق الحياة وخفايا النفوس البشرية : لذلك وقعت فريسة سهلة بين أنياب شاب وسيم مرح اسمه « فيل » : كان فى حقيقته قواداً يعيش من عرق النساء المنحرفات ، فوجد فى جمالها الرائع وسذاجتها البالغة ضالته المنشودة : فتظاهر بحبه المجنون لها . . . ولشخصها فقط . . وأخذ يعدها بالزواج والاستقرار والسعادة الغامرة بالأسرة والأطفال ، ولكن بعد أن تتحسن أحواله المادية ويصبح قادراً على مواجهة أعباء الزوجية . . فسقطت فى الفخ بكل سهولة : وأولته كل ما تملك من حب وثقة ووفاء ، متصورة أنه المنقذ المنتظر الذى بعثت به العناية الإلهية تعويضاً عما لقيته طول حياتها من عذاب ومحن .

وأصبحت طوع بنانه : فلما اطمأن إلى سيطرته التامة عليها . طلب منها أن تعاونه على إدخار المال المطلوب لإعداد بيت الزوجية المنشودة ، باحتراف البغاء ، وإعطائه مكاسبها . . متعهداً بأن يوافيها بالعملاء الأغنياء الذين يغدقون على متعهم المال بلا حساب . بحيث يتجمع لهما المبلغ المطلوب فى أقصر فترة ممكنة تكف بعدها عن المهنة الشائنة . .

ولم تكن إلى هذه اللحظة تعرف أن الجنس يباع بالمال بدل العطف والمودة : ولم تلق الفكرة قبولا فى نفسها ، لكن حبها الشديد لصديقها « فيل » وفرط رغبتها فى الإسراع بتحقيق أمل أسرة ، جعلاها تنصاع

لرغبته ، واحترفت البغاء حريصة على إعطاء صديقها جميع مكاسبها دون أن تبقى لنفسها شيئاً على الإطلاق . . كانت تكره الأموال الطائلة التى تأتيها عن طريق الرذيلة فتبادر دائماً بالتخلص منها ، وكان يحدث أحيانا أن يخاصمها « فيل » لسبب من الأسباب و يبعد عنها ، فتعطى نقودها لأى إنسان آخر يمر بطريقها ، سعيدة بالتخلص من هذه المادة التى تحس كأنها تحرق جيبها .

ومضت الأيام ومكاسبها السخية تذهب تباعاً إلى جيب « فيل » فينفقها عن آخرها فى ملذاته الخاصة ، و بكل وقاحة يطالبها بمضاعفة جهودها إنقاذاً لحلم الأسرة الذى كان المفروض أن يتحقق بعد شهور قليلة ، لكن السنوات مضت دون أن ترى « ساندرا » بادرة لاقترابه .

والعجيب فى أمر « ساندرا » أنها برغم تدهورها الخلقى فى أحط مجال ممكن ظلت تكره الخمر ، ولا ترضى بشربها مهما كانت الظروف ، كذلك كانت تخاف المخدرات بأنواعها وتحرص على الابتعاد التام عن طريقها . . لكن حدث ذات يوم أن أرغمها « فيل » على تدخين لفافة من « الماريوانا » وهى — مخدر أمريكى يشبه « الحشيش » المعروف فى بلادنا . . واستاءت الفتاة من طعم اللفافة ، ولم تسعد بأثرها ، غير أن هذه اللفافة الواحدة تسببت لها فى متاعب نفسية خطيرة : ذلك أنها على أثر تدخينها تملكها إحساس غريب دفعها إلى تأمل وجهها فى المرآة ، فإذا بها تتصور أن الوجه المشهور بجماله قد انقلب وأصبح مثيراً للسخرية والازدراء .

وظلت هذه الفكرة تطاردها فى كل مكان ، فعندما تسير فى الطريق

أو تدخل حانوتاً لشراء شيء يقع فى نفسها أن الناس من حولها يتأملونها فى سخرية موجعة . .

ولما اشتدت بها وطأة العذاب ، لجأت إلى الطبيب تسأله المعونة . .

ويقول العالم النفسى فى تحليل حالتها إن الناس كثيراً ما يعتقدون أن البغاء لا يحدث إلا بدافع الفقر أو الطمع فى الربح الجزيل السهل .

وهذا غير صحيح ، بدليل ملايين الفقيرات اللاتى يعشن راضيات بالقليل الذى يكسبنه من عملهن الشريف ، كما أن الدراسات الاجتماعية تؤكد أن المرأة الطامعة فى الربح السهل تفضل فى معظم الأحيان أن تعمل بالنشل أو السرقة أو توزيع المخدرات أو النصب والاحتيال . . أما البغاء فينتج غالباً من الأزمة النفسية الناجمة عن الحرمان من العطف ، وانعدام الشعور بالانتماء ، والعزلة النفسية التى توحى إلى صاحبتها بأنها إنسانة وحيدة . . لا أحد يريدها أو يهتم بها . . ولن تجد حاجتها من المودة والعطف إلا عن طريق الجنس الذى لا يكف الرجال عن طلبه ، ولا يتورعون فى الحصول عليه عن الجرى وراء طفلة غريرة . . أو صبى صغير . . أو امرأة شقية على استعداد للتضحية بكل شىء مقابل حاجتها من العطف والمودة . . وبما أن العطف والمودة فى الجنس قصيرة الأجل ينتهيان بانتهاء المهمة الجنسية ، فالإكثار فيها يعطى — ولو ظاهراً — صفة الدوام والاستمرار .

وكانت هذه حقيقة الدوافع لاحتراف «ساندرا» البغاء، أولا مجاناً وثانياً بالأجر . . فهى لم تكن تريد فى قرارة نفسها سوى الشعور بالانتماء ، بدل الإحساس بالضياع والعزلة . .

عدم الانتماء

و « ساندرا » هى المثل الحى لهذه الحقيقة الموجعة ، فلقد دفعتها الظروف إلى احتراف البغاء ورسمت لها طريقها فيه من بداية حياتها ، عندما كانت طفلة غريرة فى الخامسة فقط من عمرها ، وانتزعت من أحضان والديها لتودع فى ملجأ للفقراء ، لقد جاء هذا الانتزاع بمثابة الخطوة الأولى الحاسمة فى تقدير مصيرها . . فضنك الحياة فى بيت الأب لم يكن يؤذى مشاعرها ، لأنها كانت تجد التعويض الكامل عن الثياب والمأكل واللعب فى الثراء العاطفى الذى تنهل منه حتى تشبع فى أحضان والديها . . ولذلك تلقت صدمة بالغة العنف حين انتزعت من هذا الجو العزيز ، وألقى بها فى مؤسسة تكتظ بمئات الأطفال من أبناء الفقر والعوز مثلها . . وعاشت فى مكان لا يشعر أحد بوجودها فيه أو يهتم بأمرها . . إذا استيقظت بالليل مذعورة لا تجد يد أمها الحنون تربت على رأسها كما اعتادت . . وإذا بكت لا تجد من يمسح دموعها . . تجوع أو تشبع . . تشقى أو تسعد . . تصح أو تمرض . . كل ذلك سواء فى مكان مثل الملجأ . حيث تذوب فردية الإنسان فى طاحون الجماعة النفسية ، ولا يبقى بعد ذلك سوى عذاب عدم الانتماء الناشب بمخالبه الوحشية فى قرارة العقل الباطن . .

ولقد كان تدهور صحتها واعتلال نفسيتها فى الملجأ بفعل الاضطراب النفسى العنيف الذى أصابها نتيجة لانتزاعها من المكان الوحيد الذى تجد الانتماء الطبيعى فيه . ولا شك أن المسئولين فى الملجأ توخوا الأسلوب

الصائب حين فكروا فى نقلها إلى أسرة بديلة. لكنهم أساءوا الاختيار . ولم يدققوا فى تقصى حقائق الأب الجديد الذى منحوه إياها . فكانت النتيجة أبشع من الأولى .

فوقوعها فى براثن وحش إنسانى ضار ، لا يتورع عن امتهان آدميتها وهى لم تزل فى مدة من عمرها ، ويعاقبها بكيها بسيخ محمى إذا تمنعت ، وإذا استسلمت يكافئها بالعطف والهدايا ، رسم لها الحياة فى صورة مشوهة توهمت معها أن الجنس هو الثمن الطبيعى للعطف والمحبة . وقد زادت هذه الصورة وضوحاً فى ذهنها عندما وجدت المأساة تتكرر مع الآخرين من رجال الحى وشبابه الذين استغلوا سذاجتها بوحشية فكانوا يقبلون عليها إذا حققت لهم رغباتهم الحيوانية ، ويدبرون عنها إذا تمنعت أو أبدت اعتراضاً .

أما عن جهلها بحقائق الحياة وخفايا النفوس البشرية خصوصاً فى مجال الرجال . فقد جاء نتيجة للصدمات العنيفة التى تلقتها منهم وهى لم تزل فى فجر حياتها : فالصدمة الأولى أتت بتخلى أبيها عنها ، والثانية باعتداء والدها البديل عليها ، والثالثة بغدر « فيل » واستغلاله حبها العظيم له بأحقر وسيلة للخداع ممكنة . .

وكان فى الإمكان إنقاذها ببقائها فى بيت أبيها من البداية .

كذلك كان فى الإمكان إنقاذها بحسن اختيار الأب البديل ، ونقلها من الملجأ إلى رعاية رجل شريف يرعى الأمانة ويخاف الله .

وحتى عندما عادت إلى بيت أسرتها فى سن المراهقة كان من السهل أن يستقيم حالها بالعطف والتوجيه السليم وتشجيعها على الاندماج

فى الحياة الاجتماعية المدرسية التى تحقق لها بجانب الأسرة الشعور بالانتماء.

لكن شيئاً من كل هذه الأمور لم يحدث مع الأسف الشديد ، وتكاتفت الظروف على دفعها على طريق الرذيلة برغم نفورها الباطنى مما تفعله، بدليل بغضها للنقود التى كانت تكسبها، ودأبها على التخلص منها تباعاً ، ثم شعورها بأن المجتمع كله يسخر من شكلها بعد أن انحدرت إلى هاوية الخطأ بتدخينها الماريوانا . .

ويقول الطبيب النفسى إن « ساندرا » ظلت تتردد على عيادته أربع سنوات كاملة كانت تتخللها نكسات تدفعها إلى الثورة على العلاج بالهرب من الطبيب ، ولكنها لا تلبث أن تعود باكية نادمة بعد فترة قصيرة .

ولما تكشفت الحقائق أمام « ساندرا » بخروج العقدة من العقل الباطن إلى العقل الواعى ، حدثت المعجزة بثورة الفتاة على صديقها القواد ، وقطعها صلتها به تماماً ، ثم عودتها إلى بيت أهلها ، والتحاقها بمعهد للتجميل تخرجت فيه إلى الحياة العملية الشريفة حيث اشتغلت بوظيفة محترمة ردت لها اعتبارها فى حكم نفسها ، وقضت تماماً على وهم سخرية الناس بها .

والأعجب من ذلك أنها أصبحت بخيلة جداً لا تنفق البنس الواحد إلا بعد تدقيق شديد ، وكثيراً ما كان هذا البخل يسبب لها مشاكل مع سائقى التاكسى وخدم المطاعم مما أدى إلى تدخل الشرطة بينها وبينهم فى مناسبات عدة ! .

«ماريان» تواجه حقائق الحياة مبكرًا !

* لماذا فشلت «ماريان» فى معاشرتها لزوجها ؟ وكيف استطاع الطبيب أن يفسر من خلال حلمها المخيف أسباب شقائها ، ثم يعيد إلى حياتها الهدوء والاستقرار ؟ . .

لجأت « ماريان » إلى العيادة النفسية المجانية مرغمة . .

فقبل ذلك كان المختصون فى الأمراض العقلية قد أجمعوا على أنها مختلة الذهن تماماً ، وقد ظهر هذا الاختلال فى شكل أوهام كاذبة تسيطر على فكرها ، وتصيبها بحالات من الغيرة الجنونية تدفعها فى بعض الأحيان إلى الشروع فى الانتحار ، ولولا أن حالف الحظ زوجها ومكنه من إنقاذها قبل فوات الأوان لذهبت ضحية التخيلات الكاذبة التى تستولى عليها .

وإزاء الغيرة المرضية التى لا تستند إلى أى مبرر واقعى ومحاولات الانتحار المتكررة ، ثم نوبات الغضب الوحشى التى تفقدها وعيها وتحولها إلى ما يشبه الحيوان المفترس . . استقر رأى المختصين على ضرورة إيداعها مستشفى للأمراض العقلية . . ولقد أدخلت بالفعل ، لكن حالتها النفسية تدهورت بشدة هناك ، وراحت المريضة كلما أتى زوجها لزيارتها ترجوه باكية مستعطفة أن يمنحها فرصة أخيرة ، وذلك بإعادتها إلى البيت ، وعرضها على الأطباء النفسيين — لا العقليين — لعلهم يجدون لها علاجاً يخلصها من عذاب الحياة فى عالم المجانين . .

ولم يكن مضى على زواجها سوى عام واحد . .

والزوج — برغم مرض « ماريان » — ما زال فى قراره قلبه يحبها ويعطف عليها ، فضعف أمام رجائها المتصل ، وأعادها إلى البيت وليس فى نيته أن يعرضها على المختصين النفسيين نظراً لظروفه المالية المعسرة ، وثقافته المحدودة التى تحول دون إيمانه بجدوى مثل هذا العلاج :

غير أن الظروف اقتضت غير ذلك . . فبعد عودة « ماريان » إلى

بيتها أصيبت بمرض فى أذنها ، وبعرضها على الطبيب تبينت له حالتها الذهنية المتدهورة ، فأحالها فوراً إلى العيادة النفسية المجانية ، فلم يبق مفر من ذهابها إليها .

كانت « ماريان » فى الخامسة والعشرين من عمرها ، نحيفة الجسم ، ضئيلة الحجم ، ضعيفة البنية بشكل واضح . . شكلها من حيث الجمال يعتبر فوق المتوسط وفى عينيها الخضراوين الواسعتين ملامح الذكاء الممتزج بالقلق . . مظهرها العام يوحى بأنها أصغر كثيراً من عمرها الحقيقى : : وثيابها العتيقة الرخيصة تدل على أنها من صميم الطبقة الكادحة . حركاتها وحديثها يتسمان بالتردد الممتزج بقدر واضح من الشك والتوجس : : شديدة الخجل . . عديمة الثقة بالناس .

اتهام زوجة الأب

وأحس الطبيب النفسى للوهلة الأولى أنها لم تأت إليه طواعية .

فهى لا تؤمن بالعلاج النفسى ، ولكنها أرغمت على الالتجاء إليه خوفاً من أن تؤدى معارضتها إلى إعادتها إلى مستشفى الأمراض العقلية .

وأظهرت فى البداية بعض التعاون ، فاعترفت بأنها تغضب بسرعة ، وعندما يحدث ذلك تكاد تغيب عن الوعى . . أو هى تغيب عنه بالفعل . . وتبدأ الحالة دائماً بإحساسها كأن تياراً كهربيًّا يسرى فى جسدها كله ، وعندما يصل هذا التيار إلى رأسها يتحول إلى ضغط رهيب تجحظ معه عيناها ويخيل إليها لشدة شعورها بالجحوظ كأن مقلتيها قد خرجتا من محجريهما . . ثم ينحسر التيار الكهربائى بالتدريج إلى أن يتركز فى

منطقة أعضائها التناسلية يصحبه « أكلان » شديد ، تضطر معه إلى أن تحك بأظافرها وتحك حتى يتمزق لحمها وتسيل منه الدماء ، وعندئذ فقط تأخذ النوبة فى الهدوء إلى أن تنتهى تماماً . .

كذلك اعترفت المأخصائى النفسى بأن النوبات تصيبها عادة بعد كل معركة تنشب بينها وبين زوجة أبيها . وهى لا تنكر مطلقاً أنها تغار منها ، ولكنها تغار عن حق لا عن وهم . فهذه العجوز الشمطاء التى تبلغ من العمر أكثر من خمسين عاماً ، وليست بها لمحة من الأنوثة أو النضارة أو الجمال . قد عرفت كيف توقع بزوجها فى حبائلها ، وأن تقيم معه علاقة جنسية آثمة حالت بينه وبين ممارسة الحياة الطبيعية مع عروسه التى لم يمض سوى عام على زواجه بها .

وتعتقد « ماريان » أن زوجة أبيها الخائنة تتعمد الإعلان عن علاقتها الآثمة ولا تحاول إخفاءها رغبة فى إحراجها بين الناس ، فكلما ذهبت لزيارتهم أو ذهبوا لزيارتها ترتدى أحسن ما لديها من الثياب ، وتسرف فى الترحيب بالزوج وقد تقابله بالأحضان والقبلات ، فى حين أنها تزدرى « ماريان » ولا تترك فرصة دون أن تسخر منها ، وتعيرها بجنونها . وقصدها من هذا كله أن تحطمها تماماً ، كى يضطر زوجها إلى حبسها فى مستشفى الأمراض العقلية ، وبذلك يخلو الجو تماماً للعاشقين الآثمين . .

وبمناقشتها فيما تقصده بأن العلاقة الآثمة التى تتصورها قائمة بين زوجها وزوجة أبيها قد حالت بينها وبين الحياة الطبيعية مع زوجها ، اعترفت بعد تردد شديد أنها منذ اليوم الأول لزواجهما لم تستطع مطلقاً أن تمارس العلاقة الزوجية . فكلما اقترب منها زوجها تصاب بتشنجات

رهيبة يعقبها نزيف شديد يستمر أياماً قد تصل إلى أسبوعين ، ولاتنتهى إلا بعد أن يكون قد امتص حيويتها ، وحطم صحتها وتركها فى أشد حالات الضعف البدنى والذهنى . .

وبعودة الإخصائى النفسى إلى تقارير الفحوص الطبية التى أجريت لها قبل الزواج وبعده على أيدى الأطباء الباطنيين والعصبيين ، ثبت أنهم جميعاً لم يجدوا فيها أى مرض أو عيب يبرر أمراضها المختلفة ، وقد عزوا متاعبها كلها إلى تدهور قواها العقلية ، الأمر الذى انتهى بها إلى مستشفى المجاذيب كما سبق أن ذكرنا .

ولقد رأى ذلك الإخصائى النفسى بعينيه الخبيرتين المتمرستين أن «ماريان» ليست مجنونة بقدر ما هى متعبة نفسياً .

وإذا كان التوفيق قد خان الأطباء الباطنيين والعصبيين فى تشخيص مرضها ، فهذا أمر طبيعى لأن الخط الفاصل بين الانهيارات الذهنية والانهيارات النفسية فى معظم الحالات يختفى تماماً إلا عن العين المتخصصة .

الحلم المخيف

وكان لا بد له أن يغوص فى أعماق عقلها الباطن ليستخرج من بين طياته العميقة الأسباب التى تؤدى إلى الحالات الثلاث الآتية :

أولا : حالة الغيرة المرضية التى تصور لها أن زوجها يخونها مع زوجة أبيها العجوز الضامرة .

ثانياً : حالة الغضب التى تبدأ بما سمته تياراً كهربياً يسرى فى

جسدها كله ، وبعد أن يصيبها بضغط رهيب فى رأسها تشعر معه كأن عينيها تقفزان من محجريهما ، يتراجع التيار إلى أن يتركز فى منطقة أعضائها التناسلية ، وهناك يتحول إلى أكلان شديد لا يتوقف إلا بعد أن تمزق لحمها بأظافرها .

ثالثاً : حالات التشنج التى تصيبها كلما حاول زوجها ممارسة حقوقه الزوجية معها ، وما يعقب التشنج من نزيف يعتصر الدماء من جسدها .

وكانت عملية التحليل النفسى تتطلب من المريضة أن تستلقى فى أثناء الجلسة على أريكة مريحة فى غرفة قليلة الضوء . وأن تحاول جهد طاقتها الاسترخاء الذى يساعدها على تهدئة أعصابها والعودة إلى الذكريات القديمة : . . ذكريات الطفولة والصبا والشباب وما قد تنطوى عليها من المتاعب والأحزان التى تركت بصماتها الواضحة على حياة « ماريان » وكادت تذهب بعقلها . . .

لكن « ماريان» أساءت الظن بمقاصد الطبيب ، وتشككت فى حقيقة نواياه ، فعارضت بعناد فى الاستلقاء على الأريكة . .

وعندما أقنعها بعد جهد شديد ، استلقت على الأريكة ولكنها رفضت الاسترخاء . وكلما حاول أن يرجع بها إلى الماضى ، تقاوم بحجة أنها لا تذكر من تلك الفترة شيئاً يستحق الرواية .

والأمر الوحيد الذى قبلت الإدلاء به هو أنها منذ عشر سنوات إلى الآن تعانى من حلم مخيف يطاردها فى نومها ، ويحرمها نعمة الراحة : : ولأمر ما ازدادت مطاردة هذا الحلم لها بعد الزواج . ولم تعد تمر ليلة إلا

وتستيقظ بسببه صارخة من أحلى نومة ، لكنها تعتقد أنه مجرد كابوس ولا صلة له مطلقاً بحياتها . . .

واستدرجها الطبيب برفق إلى أن روت له تفاصيل هذا الحلم ، فقالت إنه يتلخص فى شبح يهجم عليها بغية الفتك بها ، وهذا الشبح ضخم يرتدى السواد ، ويربط شعره بشرائط حمراء ، ويسير نحوها على أرض من الحشائش الخضراء . . ويأتى الحلم دائماً على هذه الشاكلة . . وبرغم ظروف الحياة المختلفة وأحداثها المتتابعة لا تذكر مطلقاً أنها رأت فى نومها حلماً غيره ولو أمكن للطبيب أن يريحها من هذا الحلم ، لتحسنت أحوالها الصحية كثيراً ، لأن الرعب الذى يسببه لها يحول دون عودتها إلى النوم مرة أخرى ، ويتركها طوال اليوم التالى منهارة القوى ، غير قادرة على التفكير والحركة . .

وأحس الطبيب بأهمية هذا الحلم فى المشكلة التى تعانيها . .

فأخذ يستدرجها بهدوء ولباقة إلى ما يذكرها به هذا الشبح الأسود العملاق ، الذى يربط شعره بأشرطة حمراء ، ويسير على أرض مزروعة بالحشائش الخضراء . وبعد جهد ومقاومة منها اعترفت بأن أختها الكبرى « لويز » التى ماتت فى ريعان الشباب منذ عشر سنين — وهو تاريخ بداية الحلم الرهيب — كانت تربط شعرها بمثل هذه الأشرطة الحمراء التى تبدو فى شعرها الأسود الناعم الصقيل كأنها ورود يانعة ، كما أن الحشائش الخضراء التى يسير عليها الشبح الأسود العملاق تشبه تماماً أرض مقبرة الكنيسة التى دفنت فيها . .

وبسؤالها عن هذه الأخت ، لم تشأ « ماريا » أن تقول أكثر من أن

« لويز » كانت مثال الطيبة والجمال والرقة والعقل ، وأنها بموتها فقدت القلب الرحيم الوحيد فى حياتها . .

وتأكد للطبيب أنه وضع أصبعه على المفتاح السرى للمشكلة مريضته ؟

ولا بد أن تكون «لويز» هى الأصل فى كل ما تعانيه أختها الصغرى . ولكن إذا كانت الأخت الميتة بهذه الصفات الرائعة التى تسبغها عليها « ماريان» فلماذا تظهر لها فى الحلم على شكل عملاق أسود رهيب مخيف؟

وكان لا بد أن تنجلى هذه النقطة لكى تتحرر المريضة من الكابوس الرهيب الذى يشقى حياتها ، ويفتك بصحتها .

ولكى يحدث ذلك ينبغى على الطبيب أن يدفع مريضته إلى سرد الماضى بتفاصيله ، سعياً وراء العقدة التى كانت السبب فى كل ما تعانيه من هوس وهذيان .

وبدأ الطبيب خطته باكتساب ثقة «ماريان» ، كى يطمئن قلبها اليه وتزول شكوكها التى تلجم لسانها وتشل ذاكرتها . . .

وعندما نجح فى ذلك انحلت عقدة لسانها ، وأخذت تحدثه بقصة حياتها من بدايتها . . . .

قصة الحياة الرهيبة

كانت «ماريان» البنت الصغرى لوالديها العاملين الكادحين . .

وقبل أن يمضى عام واحد على مولدها . أصيبت أمها بمرض خطير ألزمها الفراش ، وأعجزها عن القيام حتى بأبسط واجباتها . فوكل أمر رعايتها إلى أختها «لويز» التى تكبرها بعشرة أعوام . . . لكنها كانت مع

الأسف متخلفة عقليًّا ، فلم ينجح والدها فى إلحاقها بمدرسة أو تعليمها حرفة تعيش منها . . غير أن هذه العاهة الخطيرة لم تمنعها من رعاية أختها الطفلة ، والعناية بها إلى أقصى درجات العناية ، مما ربط بين الأختين بوثيق الروابط العاطفية . .

وبعد ثلاثة أعوام من المرض المستمر . . ماتت الأم فى ريعان شبابها وتركت بموتها لوعة بقلب الأختين : البلهاء والطفلة . .

ثم جاءت الضربة التالية القاسية . .

فقبل مضى عام واحد على وفاة الزوجة الشابة الوفية ، تزوج الأب للمرة الثانية بسيدة فى منتصف العمر — أو بعد منتصف العمر بقليل . . سبق لها الزواج ولديها أولاد كبار . . خشنة اللفظ . . باردة العواطف . . قاسية لا يعرف قلبها الرحمة .

وكانت « ماريان » الصغيرة تفتقد الأم برغم رعاية أختها وحنانها ، فأقبلت ببراءة الطفولة على زوجة أبيها تتمسح فيها ، وتتحبب إليها ، وتخطب ودها بكل ما تملك من حيل الطفولة وأساليبها .

لكن زوجة الأب لم تتجاوب ، وكلما اقتربت منها « ماريان » الصغيرة أو حاولت تقبيلها ، تدفعها بعيداً عنها بمنتهى الخشونة ، وتردها عنها قائلة فى غير رحمة : « لست أمك ، ولست ابنتى ، ولست فى احتياج لحبك فاغربى عنى ! » .

وتنهار الصغيرة إزاء هذه القسوة ، وتشعر كأن العالم كله قد انقلب فوق رأسها ، فتنسحب ببطء إلى غرفة المطبخ ، وتجلس تحت مائدتها تبكى وتبكى إلى أن تفرغ بدموعها جعبة أحزانها وهمومها ثم تعود إلى زوجة

أبيها غير حاقدة ولا ناقمة ، تسعى من جديد إلى استدرار عطفها ، فيكون جزاؤها الطرد دائماً .

وترى « لويز » البلهاء ذلك فتغضب فتنال نصيبها مضاعفاً من التحقير والإهانة ، لكونها متخلفة العقل لا تصلح لشيء ، وكان ذلك يثير نفور زوجة الأب منها ويضاعف من حقدها عليها :

وتحولت حياة الفتاتين إلى عذاب دائم : :

وأخذت عوارض عذابها تظهر فى عودتهما إلى التبول فى أثناء النوم كل ليلة ، فجن جنون زوجة الأب ، فكانت تشكوهما دائماً للأب ، وتتعاون معه على تأديبهما بالضرب والجوع والحبس فى غرفة مظلمة :

وإمعاناً فى النكاية بهما راحت تقص على أهل الحى قصتهما ، وتدفعهم إلى تعييرهما بالتبول كلما رأوهما تسيران فى الشارع ، حتى أصبحت الفتاتان تخافان الخروج من البيت إلا بالليل عندما يحل الظلام ويصعب على الجيران رؤيتهما . .

وكبرت الطفلة وبلغت السادسة من عمرها فى هذا الأتون الملتهب : :

وكبرت أختها البلهاء ونما جسمها ولم ينم معها عقلها .

وازداد تخلفها العقلى فى الوقت الذى ازداد فيه جمالها ونضجها الأنثوى ، وتأججت فى صدرها مبكراً عواطف الرغبات الجنسية ، ونتيجة لبلهها لم تكن تملك القدرة على التحكم فى مشاعرها ، فلجأت إلى أختها الصغيرة تمارس الجنس معها ، وتعلمها كيف ترضيها بشتى الحيل المنحرفة . ثم تكافئها بأن تطبق عليها أعمالها نفسها لتشبعها هى الأخرى جنسياً ، مع أنها ما زالت طفلة صغيرة : :

ولفرط تعلق « ماريان» بأختها التى تولتها بالرعاية منذ بداية حياتها ، انصاعت لرغباتها، وبما أنها كانت أصغر سنًّا فلم تقدر خطأ هذا العمل وأخطاره وتصورت أنها الحياة الطبيعية بين كل أختين فى الدنيا !

وسارت الأمور على هذا النحو فترة ليست قصيرة ، إلى أن ضبطتهما زوجة أبيهما ذات يوم متلبستين ، فكانت النكبة الكبرى . . إذ تعاونت مع زوجها على ضربهما بغاية القسوة ، وروت للجيران جميعهم ما كان من أمرهما معاً ، فإذا بالفتاتين تطاردان بالتعيير والإهانات فى الطرق ، وترميان أينما ذهبتا بأفحش النعوت والصفات . :

وأتى هذا الأسلوب بعكسه تماماً . .

فقد استمر تبول الاثنتين بالليل ، كما استمرت العلاقة الجنسية بينهما ، تمارسانها فى الخفاء كلما غفلت عين الرقابة عنهما . .

ثم حدث أمر غير من اتجاه العلاقة بين الأختين وحدد مصيرهما . :

فقد أكدت لهما زوجة أبيهما فى أثناء تعنيفها الدائم لهما أنهما قد ارتكبتا بما فعلتاه معاً من الفحشاء التى لا تغتفر ، واستحقتا غضب الله ونقمته عليهما، ولسوف يعاقبهما المولى على ذلك فى الدنيا بتشويه جسديهما، وحرمانهما من القدرة على ممارسة الحياة الطبيعية المشروعة، وفى الموت سيكون سعير جهنم مصيرهما . . .

وتركزت هذه المعانى الخطيرة فى ذهن الاثنتين . :

وخافت « لويز» » البلهاء على « ماريان» الصغيرة فامتنعت عن ممارسة الجنس معها ، وكانت إذا ضبطتها متلبسة بأية حركة غير لائقة تقسو فى زجرها وتهديدها . .

أما هى فقد قادتها غرائزها الجنسية إلى الطريق حيث الوحوش البشرية التى تترصد كل بائسة مثلها ، وأسلمت قيادها لكل راغب فى جسدها . وانتهى الأمر باحترافها البغاء قبل أن تصل إلى مرحلة البلوغ . .

وبدأت مرحلة عذاب جديدة فى حياة « لويز » البائسة . .

فزوجة الأب حين علمت بما آل إليه حالها . راحت بمعونة زوجها تتفنن فى تعذيبها على مسمع ومشهد من أختها الصغيرة الحبيبة . .

كانت تحبس البلهاء المسكينة فى غرفة مظلمة وتتركها أياماً دون طعام أو شراب . .

وكانت تضربها وتضربها وتضربها إلى أن تسيل من جسدها الدماء وتتحول كلها إلى كتلة محتقنة دامية . .

وكانت تخلع عنها فى عز الشتاء ثيابها ، وتربطها إلى رجل مائدة الطعام وتتركها طول الليل نائمة على الأرض الحجرية ، حتى يتجمد جسدها وتوشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ومع كل ذلك كانت بمجرد إطلاق سراحها تخرج إلى الطريق لإشباع شهوات الراغبين فى جسدها .

وانتهى الأمر بالبلهاء « لويز » أن أدخلت إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وبعد أن قضت فيه خمس سنوات أصيبت هناك بمرض خطير قضى على حياتها ، وأراحها من العذاب ، كما أراح أهلها منها وهى فى الثانية والعشرين من عمرها، أى فى عمر « ماريان » عندما بدأت عليها عوارض الانهيار النفسى والصحى !

وظلت « ماريان » تشهد فصول هذه المأساة الدامية ، وأخذت آثارها المؤسفة تتراكم فى عقلها الباطن وتختفى بين طياته المعقدة . .

العقد تتفجر

وعندما بلغت سن المراهقة أخذت العقد تتفجر فى أشكال عجيبة متناقضة :

فلقد تركز فى ذهنها أنها بانصياعها لرغبات أختها، ورضاها بممارسة الجنس معها قد ارتكبت معصية عقابها الوحيد تشويه الجسد والحرمان من الحياة الطبيعية المشروعة بعد الزواج . .

ثم إن انشغال أختها الكبرى عنها — حبيبتها الوحيدة التى عاشت منذ بداية حياتها فى ظل رعايتها وحنانها — بالرجال وإقبالها على ممارسة الجنس معهم دونها ، واستغلالهم لبلهها وجنونها فى سبيل إرضاء نزواتهم الحيوانية العابرة ، ملأ قلبها بالحقد عليهم ، وصور لها أنهم خلقوا لكى يتعسوا النساء ويقضوا عليهن فى سبيل متعتهم الشخصية . .

وأخذت أحوالها الصحية والنفسية تتدهور بسرعة . .

توقف نموها الجسدى وأصيبت بالأمراض المختلفة التى جعلتها تبدو دائماً بضعفها أصغر كثيراً من سنها الحقيقية .

نفرت من الرجال وزهدت فى صحبتهم ، ورفضت عدداً كبيراً من الخاطبين ، ثم لم تلبث أن أجبرت نفسها على الزواج من شاب سبق أن رفضته مراراً ، لكنها لم تستطع أن تستمتع معه ولو بلحظة طبيعية . . فمنذ ليلة العرس وهى تصاب بالتشنجات الشديدة إذا حاول زوجها الاقتراب منها ، ويعقب التشنجات نزيف حاد كثيراً ما كان يستمر أياماً قد تصل إلى أسابيع . .

وبتدهور حالتها الصحية تدهورت بالمثل حالتها الذهنية وجعلتها غير

قادرة على رؤية الأمور فى إطارها الصحيح ، وسيطرت عليها الأوهام الكاذبة ، وتحولت فى ذهنها المريض إلى حقائق أكيدة . .

وظهرت عليها عوارض الغيرة الجنونية ، وصور لها هوسها أن زوجة أبيها العجوز الضامرة القبيحة قد استولت على زوجها الشاب ، وأقامت معه علاقة آثمة ، ولولا ذلك ما حرصت على التأنق والتظرف فى حضرته .

وازدادت حدة المتاعب بـ « ماريان » فأصبح الناس جميعهم أعداء لها مثل زوجة أبيها تماماً ، وتصورت كلما سارت فى الطريق أن العابرين يتغامزون عليها ، ويتضاحكون سخرية منها .

ولما يئس زوجها من إصلاحها لجأ إلى الأطباء فقطعوا بجنونها وأدخلوها مستشفى الأمراض العقلية ، وظلت به حتى أشفق عليها زوجها وأعادها إلى البيت كما ذكرنا فى بداية هذه القصة . .

كلمة الطبيب

ويؤكد الطبيب النفسى الذى توفر على علاج « ماريان » أنه من الحقائق العلمية الثابتة أن من طبيعة الإنسان أن يمارس فى طفولته لوناً من الاستكشاف الجنسى ، ففى سن معينة من مرحلة النمو الأولى يلجأ الطفل إلى إشباع حب استطلاعه بالعبث والتفرج على جسده . . ثم ينتقل من نفسه إلى غيره ، فيعمل على استكشاف أجساد الآخرين من أبناء جنسه ، وبعد ذلك جسد الجنس الآخر .

وهذه الظاهرة طبيعية فى جميع الأطفال ، وليس من خطر فيها

على الأطفال ما دامت تقتصر على مجال حب الاستطلاع ، وتظل دائماً في الحدود البريئة المشروعة .

لكن الخطر الأكبر يكمن في مرور الإنسان بتجربة جنسية تصدمه بحقائق الحياة وهو ما زال أصغر سنًّا من أن يدرك مثل هذه الأمور : .

فالصدمة التي يتلقاها نتيجة لذلك مع الشعور بالذنب إزاء ارتكاب الخطأ ، يفسد صحته النفسية ، ويصيبه بعقد تعطل نموه الجنسي الطبيعي ، مما يجعله في مراحل نضجه غير قادر على ممارسة مطالب الحياة . .

ويقدم الطبيب النفسي قصة « ماريان » كمثل حي لهذه الحقيقة العلمية ، وفيها نرى كيف دفعت الفتاة البلهاء أختها الطفلة إلى ممارسة الجنس معها ، مما أدى إلى مواجهتها بحقائق الحياة وهي ما زالت أصغر سنًّا من أن تدرك ذلك أو تتحمل آثاره .

ونظراً لأنها عوقبت على ذلك بالطريقة الخاطئة ، وهددت بالمرض والعجز عن ممارسة الحياة الطبيعية عندما يحين أوانها . . اختلطت صدمتها بمركب الذنب ، فنتج عن ذلك أن أصيبت في مراحل حياتها التالية باضطرابات نفسية عنيفة قضت على توازنها الذهني ، كما قضت على صلاحيتها للعلاقة الجنسية بعد الزواج .

ومثل هذه الحوادث لا ترتبط فقط بالتجربة الجنسية المبكرة ، إنما هي ثمرة هذه التجربة مع ظروف أخرى تصاحبها . .

فالذي أخل بذهن « ماريان » لم يكن علاقتها بأختها فحسب ، بل مضافاً إلى ذلك وفاة أمها بعد مرض طويل وهي لم تزل في بداية حياتها . : فقد أثرت فيها الوفاة ، واستقر في عقلها الباطن أنها حرمت من أعز الناس

إليها ؛ ولاحتياجها الشديد إلى الشعور بالانتماء ، وقعت تحت تأثير أختها الكبرى التى كانت لسوء الحظ متخلفة ذهنياً ، وبسبب تخلفها الذهنى احترفت البغاء قبل أن تصل إلى سن البلوغ ؛ ثم ماتت بين جدران مستشفى الأمراض العقلية . . واكتملت صورة المحنة بقسوة زوجة أبيها وجفائها معها .

ولقد عرفت « ماريان » عندما كبرت مدى الخطأ الذى دفعتها أختها إليه بممارستها الجنس معها ، ولكن هذه الأخت كانت الإنسان الوحيد الذى عطف عليها وأحبها ، فآثرت بعقلها الواعى أن تتصورها جميلة عاقلة كاملة مهذبة ، فى حين أن الحقيقة العكسية تماماً ترسبت فى عقلها الباطن ، ظهرت فى أحلامها بشكل الشبح الأسود المخيف الذى يحاول دائماً أن يقضى عليها . .

وبتحليل هذا الحلم نجد أن « ماريان » كانت فى قرارة نفسها تحقد على أختها ، ولكنها بعقلها الواعى تغلف هذا الحقد بكل مظاهر الحب والإعجاب .

ويقول الطبيب أيضاً إن غيرتها من زوجة أبيها كانت ظاهرة فرعية لمرضها ، والأهم منها قصة شعورها بالتيار الكهربى الذى يتركز فى أعضائها الجنسية ولا يزول إلا بعد أن تمزق لحمها بأظافرها ، فهذا فى رأيه هو العقاب الخفى الذى كانت « ماريان » تنزله بنفسها على تهاونها أيام طفولتها فى قداسة هذا الجزء من جسدها وطهارته . .

أما التشنجات والنزيف فنتيجة لما ترسب فى ذهنها منذ الطفولة من

أن ممارستها الجنس مع أختها مغضبة لله ، وأنه سبحانه وتعالى يعاقب عليها بحرمان المذنبين من القدرة على ممارسة الحياة المشروعة في وقتها الصحيح . .

ويؤكد الطبيب أن « ماريان » بعد أن أفضت إليه بدخيلة نفسها ، ورأت بمعونته الحقائق واضحة أمامها ، استعادت قواها الذهنية بسرعة فائقة ، وإنقطع عنها تماماً الشعور بالتيار الكهربي ، كما توقفت نهائياً التشنجات والنزيف ، وأمكنها أن تعاشر زوجها بمنتهى السهولة واليسر وأن تجد في ذلك الإشباع الكافي .

وبعودة « ماريان » إلى حظيرة العقل والإدراك لم تعد تغار من زوجة أبيها العجوز الضامرة ، وتحسنت العلاقة بينهما في إطار من الود والتعاطف برغم كل ما فعلته بها وبأختها لويز أيام الصغر .

«رينيه» تحنّ إلى ثدى أمّهـا !

* كيف فقدت «رينيه» الذكية عقلها ، وقضت ثمانى سنوات من عمرها فى عالم الجنون . . ؟
* كيف استطاعت عالمة النفس السويسرية أن تعرف أن مشكلة «رينيه» هى الحرمان من ثدى أمها . . ؟

هى فتاة سويسرية فى مقتبل الشباب اسمها (رينيه) . تبلغ العشرين من عمرها ، هادئة ، وديعة ، حساسة . بدأت متاعبها النفسية من الطفولة ، واستفحلت مع مضى الزمن ثم حدث الانفجار فى مرحلة المراهقة .

ولقد انتهى بأطبائها اليأس إلى قطع الأمل فى علاجها فأودعوها مصحة للأمراض العقلية قضت فيها عدة سنين . غير أن عالمة نفسية عرفت قصتها فتطوعت بتجربة حظها مع الفتاة . وظلت فترة من الزمن تحاول وتحاول دون ملل أو كلل حتى وصلت فى نهاية الأمر إلى أصل العقدة التى أفقدت الفتاة عقلها . فلجأت فى تصفيتها بأسلوب جديد فريد فى نوعه فكان الشفاء التام . . . كانت مجرد تجربة تمليها روح الأمومة الغريزية فى العالمة النفسية . ولم تكن نتيجتها مضمونة على الإطلاق . غير أن المعجزة حدثت ، وإذا بالشفاء يتحقق للفتاة التى عاشت معظم حياتها تتخبط فى ظلمات الاضطرابات النفسية ومتاهات الأمراض العقلية .

« بداية » المأساة

وتبدأ مأساة (رينيه) بالسنة الأولى من عمرها . . كانت الابنة البكر لزوجين ، مثقفين ميسورين ، لديهما من المال ما يكفى لرغد العيش ، ومن العلم والأصالة ما يوفر لهما مكانة اجتماعية مرموقة . . وكان الأب والأم قد تزوجا عن حب عنيف وتفاهم تام . ولم يمض العام الأول على زواجهما حتى رزقا بفتاة سمياها (رينيه) ، أغدقا عليها ما يغدقه الأزواج المتحابون عادة على باكورة أولادهم من أبلغ آيات الرعاية والعناية . . غير أن سعادة الطفلة الصغيرة لم تكتب لها الدوام مع الأسف .

فبعد وقت قصير فوجئت الأم بأنها حامل للمرة الثانية ، فاضطرت إلى فطامها فجأة وبلا تدرج ومنعت عنها ثديها ، واستبدلت به فى تغذية الفتاة الزجاجة ثم الكوب . . وكانت هذه أول وأخطر صدمة عاطفية تلقتها الفتاة الصغيرة ، التى لم تكن شبعت عاطفيًّا بعد من ثدى أمها ، فجاءها الحرمان منه بمثابة الضربة القاضية . . ولصغر سن (رينيه) وقصر إدراكها لم تستطع بطبيعة الحال أن تعبر عما فى نفسها أو تفهم معنى لما حدث ، أو تجد مسوغاً له ، فترسبت عقدة الحرمان مبكراً فى قرارة عقلها الباطن ، واختفت بين تلافيفه المعقدة لتزداد حدة بما حدث بعد ذلك عندما ولد الطفل الثانى ، وعكفت الأم على إرضاعه مدة طويلة من الزمن ، وتلاه إخوة آخرون لم تحظ (رينيه) بمثل ما حظوا به من رعاية الأم واهتمامها . . وبمولد الطفل الثانى أخذت أحوال (رينيه) تتغير ، فلجأت إلى ممارسة عادات لم تكن تعرفها من قبل ، منها مص أصبعها بالليل والنهار ، كذلك التبول على نفسها بعد أن انقطعت تماماً عن ذلك . . ولم يفهم الوالدان سبب هذا التغير ، وتصوراه لوناً من التمرد والعصيان ، فلجآ إلى الشدة ، والزجر وكثيراً ما وصل الأمر إلى حد القسوة . غير أن غضبهما وتأنيبهما وزجرهما ذهب أدراج الرياح ، وكان أثره عكسيًّا إذ ازدادت الطفلة انغماساً فى هذه العادات السيئة ، مما ضاعف ثورة الوالدين عليها نظراً لأنها كانت غاية فى الذكاء . . سريعة الفهم . . قوية الملاحظة . . متفوقة فى دراستها ، لا يمكن أن يلتمس لها عذر فى ممارسة العادات السيئة وعصيان توجيهات أهلها . . ومرت الأيام و (رينيه) تكبر فتكبر معها متاعبها الدفينة . . وشاءت الظروف أن تضيف جديداً إلى أسباب قلقها

واضطرابها ، وكان ذلك بالخلاف الحاد الذى دب بين الزوجين المتحابين ، فأطاح بهدوء البيت وحرم الأبناء وعلى رأسهم « رينيه » من الشعور بالاستقرار والطمأنينة . . . وباحتدام الخلاف ازداد غياب الأب عن بيته وتضاعف شقاء الأم وبكاؤها ، ثم كانت الضربة القاضية على الفتاة الحساسة عندما اشتبك والداها فى معركة قبيل خروجها إلى المدرسة ذات يوم ، وأخذا يتراشقان بالشتائم والاتهامات المختلفة ، وكان عمرها فى ذلك الحين اثنى عشر عاماً .

وفهمت من سياق الكلام أن أباها على صلة بامرأة غير زوجته ، وسمعت أمها تصرخ فى وجهه مهددة بأنه لو تركها فسوف تعاقبه بقتل نفسها . . وبهذه الأقوال المخيفة التى سلبتها البقية الباقية من استقرارها النفسى أخذت متاعبها النفسية تتفجر بالتدرج .

« أوهام غريبة »

وكان من عادة الإبنة (رينيه) أن تختصر الطريق إلى مدرستها بالسير عبر بستان صغير تشعر بمتعة المرور بين أحضانه كل يوم فى ذهابها وإيابها . . لكن الذى حدث فى ذلك الصباح المشئوم أن فوجئت الفتاة بالحقل يتسع حولها ويصبح بلا بداية أو نهاية ، وخيل إليها أن الأشجار المزروعة تشع أضواء باهرة تخطف بصرها ، وأنها قد كبرت فى حجمها وتوحشت فى شكلها وتحولت إلى ما يشبه الأشباح المرعبة . . وانتابها ذعر بالغ ، ولم تعرف كيف تسير أو أين تذهب ، وظلت تطوف بالحديقة مرات حتى عثرت على مدرستها . لكنها وجدت المدرسة قد تغيرت بالمثل وأصبحت

كالسجن الكبير المحاط بالأسلاك الشائكة ، وبدا لها زملاؤها التلاميذ الصغار مثل المساجين التعساء بحرمانهم من حريتهم ، وحملت هذه الأوهام المفاجئة الفتاة بعيداً عن الواقع ، فخيل إليها حين دخلت المدرسة وانضمت إلى زملائها أنها قد تحولت هي أيضاً إلى سجينة ، فتشبثت بأسوار الفناء وظلت تراقب العالم الخارجي وهي في ذعر قاتل يكاد يفقدها رشدها . . لكن هذه الحالة ذهبت بسرعة مثلما جاءت ، ولم تلبث (رينيه) أن ارتدت إلى دنيا الواقع ، ولفرط خوفها من أن تعاودها النوبة تناستها عامدة ورفضت أن تعيد التفكير فيها أو تحدث بها أحداً . . لكن المحنة تكررت مراراً في أوقات متباعدة .

وفي كل مرة كان الشعور بالاتساع يزداد حولها ، والأضواء الباهرة تتضاعف أمام عينيها ، والإحساس بالخوف من الضياع يزداد بقبضته ضغطاً على قلبها .

وكان يحدث أحياناً أن تفاجئها هذه النوبات وهي في صحبة زميلة لها ، فتتشبث بذراعها وترفض تركها خشية أن تتوه إذا ابتعدت عنها . . وتثور الزميلة على هذا السلوك الذي لاتجد له مبرراً من صديقتها ، فتنهرها وتتهمها بالخشونة والأنانية والرغبة في الاستئثار بها على حساب وقتها ومصلحتها . . وفقدت (رينيه) صديقات وصديقات بسبب هذه الحالة . . ثم ازداد نقدهم عندما تطورت النوبات ، وأصبحت ترى زملاءها وزميلاتها في بعض الأحيان يتحولون فجأة إلى ما يشبه الوحوش الضارية .

ولقد جاء هذا الوهم أول مرة وهي تلعب مع زميلاتها لعبة نط

الحبل وكن . أربع فتيات : اثنتان منهن تشدان الحبل . واثنتان تقفزان فوقه متقابلتين .

وبينما كانت (رينيه) سعيدة غاية السعادة بهذه اللعبة وحان دورها في القفز ورأت زميلتها مقبلة عليها من الناحية الأخرى . خيل إليها فجأة أن هذه الزميلة قد تحولت إلى أسد ضار يكشف عن أنيابه استعداداً لافتراسها .. وصرخت الفتاة مذعورة . وبفعل المفاجأة فقدت سيطرتها على نفسها فصارحت زميلاتها بأوهامها . الأمر الذى أثار غضبهن عليها ، ودفعهن إلى الانقضاض من حولها . . وعندما تكررت هذه الأوهام فى ألعاب أخرى اعتبرها الجميع مجنونة . وطاردتها السخرية من كل جانب وحرمتها الصداقة والمحبة ، مما أدى إلى انعزالها فى خلال فترات النسحة واكتفائها بالوقوف بجوار سور الحديقة . تتأمل الاتساع المخيف فى الخارج وتتصور أن الريح تصرخ غاضبة فى وجهها . . والعجيب أنها ظلت برغم كل ذلك متفوقة فى دراستها ممتازة فى علومها ماهرة فى خدمة أسرتها فى البيت . وكثيراً ما كانت الظروف تضطرها إلى القيام بجميع الواجبات المنزلية وتكنس وتذاكر لإخوتها وترعاهم رعاية الأم الرءوم الرحيمة . . غير أن نوبات الضياع والأوهام ازدادت عليها حتى لم يعد فى الإمكان السكوت عليها . فلجأ أهلها إلى الأطباء ونقلوها من عيادة إلى عيادة ، ولما أخفقت محاولات العلاج وبدا أن تدخل الطب قد زادها سوءاً على سوء ، ارتكب الوالدان غلطتهما الأخيرة المدمرة فأودعوها مستشفى للأمراض العصبية يقوم فوق جبل بعيد عن البلدة التى تعيش فيها أسرتها . . وبدخولها المستشفى فقدت (رينيه) ما تبقى من إحساس بالواقع وأصبحت بمخاوفها

الشديدة تعيش حبيسة غرفتها لا تكلم أحداً ولا تسمح لأحد بأن يكلمها ما عدا الأطفال الصغار من نزلاء المستشفى ، فقد أبدت عطفاً شديداً عليهم ، واهتماماً بأمرهم ، ولم تكن تترك غرفتها إلا لتواسيهم أو تلاعبهم أو تعلمهم مبادئ القراءة والكتابة . . وأبدت رغبتها فى الحصول على « دمية » بحجة رغبتها فى إهدائها إلى أختها الصغرى ، ولكنها احتفظت بالدمية لنفسها ، وراحت تعاملها معاملة الطفل الحى . . تحنو عليها وتغطيها فى الشتاء وتغلق قبل النوم النافذة عليها . خشية أن تمرض الدمية من البرد أو تتأذى ، وبصحبتها لهذه « الدمية » غابت « رينيه » عن الواقع تماماً وعاشت فى عالم من الأوهام التى لا تشاركها فيها سوى أشباحها ومخاوفها من دنيا الناس ومن فيها . . وانقطعت عن تناول الطعام تماماً بحجة أنه لا يصلح لها ، وإذا أكلت منه يقتلها ، وأصبحت تعيش على ما تقتات به من فاكهة التفاح التى تنمو فى حديقة مزارع يسكن بجوار المستشفى .

فى كل صباح كانت تستيقظ مبكراً وتتسلل لحديقة الجار وتقطف خلسة بضع تفاحات تأكلها بنهم شديد . . وتظل قانعة بما أكلته إلى أن تحين الفرصة مرة أخرى وتسرق التفاح من جديد وتقطفه بيدها وتعالج به الجوع الذى يكاد يفتك بها . . وانهارت صحتها تماماً واستبد بها الضعف إلى درجة أصبحت تهدد حياتها ، ولما خابت حيل المستشفى فى تغذيتها بالأساليب الطبيعية اضطر الأطباء إلى حقنها بالمواد المغذية مثل الكالسيوم الجلوكوز والفيتامينات المختلفة .

« الطبيبة وغريزة الأمومة »

وترددت فى الأوساط العلمية قصة « رينيه » واعتبرها الأطباء حالة ميئوسًا منها تمامًا ، إلى أن سمعت بها العالمة النفسية الدكتورة « مارجريت سيشيهى » فتقدمت تطلب السماح لها بمحاولة علاجها . . والعجب أن الطبيبة اعتمدت تمامًا على غريزة أمومتها . وبدأت بأن عاملت الشابة اليافعة معاملة الطفلة الصغيرة . فكانت تكلمها بلغة الأطفال المقتضبة ، وتجاريها فى عقليتها : إذا اشتكت من الرياح التى تريد افتراسها . تفتح النافذة وتشتم الرياح وتأمرها بالابتعاد عن « رينيه » الحبيبة .

والمدهش أن الفتاة كانت تهدأ عندئذ لفورها ويزول خوفها من الرياح . وتتصور أن طبيبتها — التى اختارت منذ ذلك الحين أن تناديها « ماما » — هى أمها الحقيقية قد أبعدت عنها الأرواح الشريرة . . كذلك فعلت الطبيبة بجميع المخاوف الأخرى ، فإذا تصورت الفتاة أن ممرضتها قد تحولت إلى أسد تصرخ فى وجه الممرضة ، وتأمرها أن تعود فوراً إلى الشكل الإنسانى ، فإذا بوهم المريضة ينقشع وخوفها يزول وتعود لترى الناس والأشياء على حقيقتهم . . . وبالتدريج استطاعت الطبيبة بهذه المعاملة الحانية التى تلائم عقلية الأطفال الصغار أن تقضى على جميع مخاوف « رينيه » التى كانت قد بلغت عندئذ العشرين من عمرها وتردها بالتدرج إلى عالم الواقع . . . وبرغم النجاح العظيم الذى أحرزته الطبيبة فى علاج « رينيه » ظلت مشكلة الطعام قائمة . وبقيت الفتاة على عنادها

لاتأكل إلا التفاح الذى تسرقه بيدها من حديقة جارهم . . . ثم وقع حادث عقد الموقف . فقد ضاق الجار باللص الخفى الذى يسرق تفاحه وتربص له حتى قبض على الفتاة متلبسة . . . ولم يكن يعرف قصة مرضها فأنبها واشتد فى زجرها وهددها بتسليمها للشرطة إذا عادت إلى فعلتها . . . وفقدت « رينيه » مصدر الطعام الوحيد الذى تسمح بدخوله فى جوفها ... وعبثا حاولت الطبيبة أن تقنعها بصحون عامرة بأفخر أنواع التفاح المشترى من السوق، لكن الفتاة آثرت الصوم ورفضت الطعام بحجة أنها محتاجة إلى التفاح الحقيقى الذى تقطفه بيدها من الشجرة — لا التفاح الصناعى الذى يأتونها به فى الصحن كل يوم .

وعندما سئلت ذات يوم : كيف يكون هذا التفاح الحقيقى؟إذا بها لأول مرة تشير ، إلى ثدى طبيبتها وتقول : مثل هذا . . وتكشفت المحنة أمام العالمة النفسية البارعة، وعرفت حقيقة العقدة التى أطاحت بعقل « رينيه » الذكية وانتهت بها إلى مستشفى الأمراض العقلية ... وقررت أن تستمر فى علاجها بنفس الأسلوب، فكانت تأخذها فى حضنها وتجلسها فى وضع الطفل حين يرضع من أمه، ثم تودع التفاحة فوق ثديها، فإذا بالفتاة تغمض عينيها وتأكل وتأكل حتى تشبع تماما ، وكأنها ترضع ثدى أمها . . . واستمرت الطبيبة على هذا الأسلوب، ثم تدرجت منه إلى تغذية الفتاة بوسائل الأطفال، وأدخلت عليها الأطعمة بالتدريج مثلما نفعل مع صغارنا . إلى أن وصلت بها إلى مستوى الكبار ، فإذا برينيه تتحول إلى شابة عاقلة وتعود بكامل قواها الذهنية إلى مرحلة الشباب التى بلغتها . . . وشفيت الفتاة تماما بعد ثمانية أعوام عاشتها فى عالم المجانين . . . . والأروع من ذلك أنها كتبت قصتها بنفسها وقدمتها للنشر مضافا إليها رأى طبيبتها

« حب الأم »

وتقول الطبيبة فى وصف حالة الفتاة : إن الحب الأول والأكبر فى حياة كل إنسان هو حبه لأمه . . . ومهما قيل فى انحياز مشاعر البنت نحو أبيها ومشاعر الولد نحو أمه . فهذه اتجاهات عارضة تنتهى بمرحلة معينة من العمر ، ولا تنال من مكانة الأم أو تضعفها ولو قليلا . . .

والطفل إذا حدث وشعر بالحرمان من حب الأمومة ، يتوقف نموه العاطفى حتى لو استمر نموه العقلى والجسدى . . . وأمثال هذا الطفل يصابون باضطراب نفسى شديد يتطلب فى علاجه أن يعمل الطبيب على الارتداد بالمريض إلى مرحلة الطفولة وتعويضه عن خسارته لتحقيق مايسمونه البعث العاطفى .

ورينيه هى أصدق مثل لهذه الحالة . فتوقف أمها عن إرضاعها قبل أن تنال الطفلة كفايتها أصابها بصدمة عاطفية شديدة ، تصورت معها أن أمها تكرهها ولا تريد أن ترضعها لأنها لا تحبها .

ومادامت أمها لا تحبها فمعنى ذلك أنها فتاة شريرة لا تستحق حتى محبة نفسها أو رضاها . وبناء عليه فهى ليست أهلا للحياة ، ويجب أن تموت ، فوجودها فى عالم كبير معاد لها لا قيمة له ولا فائدة منه . . . ومن هنا جاء امتناعها عن الأكل كتعبير عن رغبتها فى القضاء على نفسها . ومن هنا أيضًا جاء شعورها بالضياع وسط اتساعات شاسعة ليس فيها سوى القوى المعادية التى تريد أن تعاقبها على كراهية أمها لها .

وفى وسط هذا الإعصار النفسى الشديد كانت الطفلة المحرومة

« رينيه » التى ظلت تسيطر على شخصية الفتاة حتى بلغت العشرين من عمرها تبحث عن أم بديلة . . . أم طيبة . . . أم رحيمة . . . أم لا تكرهها ولا تحرمها من ثديها بل تحبها وتعطيها وتحنو عليها . . . وعندما وجدت العطف الأموى الصحيح فى طبيبتها تعلقت بها وارتبطت تماماً باعتبارها الأم البديلة التى ظلت فى متاهات مرضها إلى العثور عليها . . . وهذا الارتباط منح الفتاة بعض القوة بحيث استطاعت أن تعبر عن احتياجها إلى ثدى أمها بسرقة التفاح من الشجرة .

والشجرة هنا ترمز إلى الأم . . . واكتفاؤها بما تأخذ بنفسها منها مثلما يقبل الطفل بمحض إرادته واختياره على ثدى أمه . . . واعتبرت ما يأتون به إليها هو غذاء صناعى مثل الزجاجة أو الكوب التى كان اللبن يقدم إليها فيها بعد فطامها المبكر . . . وكانت الوسيلة الوحيدة للأخذ بيدها عبر متاعبها العقلية ، أن تعود بها الطبيبة إلى بداية حياتها ، وأن تقودها عبر دنيا الأوهام والتصورات الخاطئة إلى عالم الحقيقة عن طريق إشباعها عاطفياً بإعطائها ما حرمت منه فى المراحل المبكرة من عمرها .

ولقد نجحت الأم البديلة بإجلاسها على حجرها وإطعامها التفاح من صدرها فى أن تهيئ لها جواً رمزياً يشبع فيها جانب الحرمان الذى يسير بها خطوة خطوة عبر مراحل العمر المختلفة إلى أن وصلت بها إلى المرتبة العاطفية الذهنية اللائقة الملائمة لفتاة بلغت العشرين من عمرها . .

ولقد ارتكب الأهل فى هذه القصة أخطاء غير مقصودة ، ولكنها دمرت نفسية الطفلة الحساسة ، وأول هذه الأخطاء أنها حرمت من الرضاع قبل الأوان فجأة وبدون تدرج .

ولو كانت أعدت لهذا الفطام على مراحل معقولة ما أصابها شيء من أخطاء الإعصار النفسى الذى أضاع عليها السنوات العشرين من عمرها . . . . .

والغلطة الثانية أنها حين عادت إلى مص أصبعها والتبول على نفسها. وكانت هذه التصرفات هى النذير الأول بالمحنة التى تعانيها . . لم ينتبه أحد إلى خطورة الحالة ، واعتبرها والداها عاصية متمردة ، فلجآ إلى القسوة فى زجرها وعقابها بدل أن يضاعفا حنانهما عليها ويطلبا مشورة الإخصائيين النفسيين فيما دعا إلى العودة إلى ممارسة عادات كانت قد أقلعت تمامًا عنها .

ولا شك أن الزجر والعقاب والقسوة ضاعفت فى نفسية « رينيه » الشعور الذى أدى إلى الحرمان العاطفى ، وسلبتها طفولتها . الأمر الذى دفعها فى شبابها فى أثناء وجودها بالمستشفى إلى أن تتمسك بالدمية التى تمثل لها طفولتها وأن تسبغ عليها من الرعاية والعناية ما لم يسبغ عليها .

والغلطة الثالثة أن الأوهام والمخاوف حين استبدت بها وصورت لها الناس فى شكل الوحوش والدنيا قد اتسعت من حولها ، وهى ترجمة لشعورها بالضياع وإحساسها بالذنب إزاء ما قد توهمته من كراهية أمها لها ، اعتبرت مجنونة وأرسلت إلى مستشفى الأمراض العقلية . وأبعدت عن بيت الأسرة مأواها الوحيد الحبيب الذى كانت تبحث بين ثناياه عن العطف والمحبة ، فحرمت بذلك آخر خيط عاطفى يربطها بأهلها أحب الناس إليها وأقدرهم على إحاطتها بأسباب الثقة والحماية .

وتؤكد الطبيبة أن عقدة الفطام المبكر المفاجئ كان من الممكن جدًا

أن تبقى هادئة فى نفس الفتاة لو أن الأم استعانت بالحكمة وعرفت كيف تسيطر على غضبها فى معاركها مع زوجها وحرصت على عدم التهديد والانتحار إذا تركها إلى المرأة الأخرى . . . فالرعب البشع الذى أصاب « رينيه » الحساسة مما قد يحدث لها إذا فقدت أمها هو المسئول الأكبر عن تفجير المحنة النفسية بهذه الصورة العنيفة .

أستاذة الجامعة تحتقر نفسها..

* لماذا أصيبت « شارون » مدرسة الجامعة الذكية بكل هذه الأمراض النفسية ؟ كيف كانت تحتقر ذكاءها وترى نفسها رمزاً للغباء ؟ وكيف أصبحت تنفر من المجتمع ، ولا تستطيع أن تنطق بكلمة بين الأصدقاء ؟ .. ولماذا صارت فى نظر نفسها أقبح القبيحات ؟ إن قصة « شارون » هى قصة الطفوله التعسة التى ينبغى أن يقرأها كل الآباء والأمهات .

كثيراً ما نسمع أشخاصًا على درجة عالية من الفهم وحسن الإدراك يقسون فى نقد من يلجأ إلى الطبيب النفسى طلبًا للعلاج ، ويقولون فى عجب واستنكار : كيف يلجأ الإنسان المتعلم العاقل إلى الطبيب النفسى ؟ أليس لديه من الذكاء ما يؤهله لحل مشاكله بنفسه ؟ !

هذه فكرة شائعة ، غير أنها فكرة خاطئة . إذ لو كان الذكاء يكفى لحل مشاكل النفس لما أصيب أحد بمتاعب عاطفية ، ولعشنا جميعًا فى سعادة غامرة . . فما لعلم يؤكد أن الذكاء وحده مهما بلغت من الارتفاع درجته . لا يكفى مطلقًا لعلاج الأمراض النفسية المترتبة على الاضطرابات العاطفية ، ذلك لأنه لا علاقة بتاتًا بين القدرة الذهنية والصحة النفسية . ولن يشكون فى صحة هذا الكلام نقدم اليوم قصة لا مرأة فى عنفوان الشباب . . تبلغ الثلاثين من عمرها ، وقد حصلت على أعلى درجات الثقافة بتفوق عظيم . . تعلمت بجامعة أكسفورد ، وكانت عند تخرجها أولى دفعتها ، فعينت مدرسة بإحدى الكليات التابعة لهذه الجامعة ، وشهد جميع رؤسائها وزملائها أنها غاية فى الكفاءة ، وطريق التقدم واسع أمامها ، ولسوف تصل بمواهبها إلى أعلى مراتب الأستاذية وهو ما لم يتأت للكثيرات من بنات جنسها . .

ولعلنا نتفق على أن امرأة بهذه الصفات لا يمكن إلا أن تكون على مستوى رفيع جداً من التفوق الذهنى ، ولو كان فى مقدور الذكاء أن يعالج متاعب النفس — كما يعتقد بعض الناس — لما احتاجت مثل هذه السيدة إلى أية معونة خارجية . .

لكن الواقع غير ذلك . . فقد لجأت « شارون » ذات يوم إلى الطبيب النفسى وهى فى حالة محزنة من اليأس البالغ والانهيار التام . .

وقبل أن يسألها عما بها انفجرت تقول بانفعال شديد : ربما تتصور نظراً لشهادتى العلمية العالية ووظيفتى الجامعية الممتازة — أننى امرأة ذكية قديرة كفء . . لكن الحقيقة هى العكس تماما . . فأنا فى الحقيقة غاية فى الغباء ولا أصلح مطلقاً للقيام بمهام وظيفتى . . . لو بحثت فى هذه الدنيا الواسعة العامرة بالناس لما وجدت من يضاهينى فى قبح الإخفاق الذى أتردى فى مهاويه . . وكل ما استطعت أن أنجح فى عمله إلى الآن ، هو إخفاء غبائى وإخفاقى عن الآخرين . . لكن الخداع لن يطول ، فعن قريب يعرفون الحقيقة ، فيجدون أننى لا أستحق المرتب الذى أتقاضاه ، فيفصلوننى . . لسوف يحدث ذلك قريباً ، فترتاح نفسى برغم ما سيؤدى إليه الفصل من القضاء على حياتى ومستقبلى . .

وسألها الطبيب عما يدعوها إلى إصدار هذا الحكم الرهيب على نفسها ؟ فقالت وقد ازداد انفعالها : « إننى لا أستطيع أن أعطى عملى حقه من الإتقان . . ليست لدى القدرة على ذلك . . فمشكلتى الكبرى تنحصر فى عقلى المصاب بالغباء والركود . . وبسبب تخلفى الذهنى أصبحت مخلوقة تافهة لا أصلح لشىء فى الدنيا . . فحتى حياتى الخاصة التى أعيشها خارج العمل عبارة عن مأساة من مآسى الإخفاق الذريع . . ليس لى أصدقاء ولا صديقات لأننى غير أهل لصحبة النساء والرجال على السواء . . فمن عيوبى الجسيمة عجزى التام عن الحديث المفيد الشائق . . . إذا جلست فى جمع من الناس أتحول إلى بكماء . . .

وكثيراً ما أضغط على نفسى وأبذل جهداً فى التخلص من بكمى . عندئذ أجدنى أقول الأشياء الخطأ . . الجمل السخيفة والتعليقات الغبية البليدة التى تنفر الناس من صحبتى وتبعدهم عنى . . ويعلم الله كم حاولت أن أدرب نفسى على الكلام ، لكن محاولاتى جميعها ذهبت هباء ، فبمجرد أن أجد نفسى فى صحبة الآخرين يصيبنى نوع من الشلل الفكرى . . . أحس بأن رأسى قد أصبح فارغًا تمامًا من كل شىء حتى الجمل التى سبق أن أعددتها بدقة وحفظتها عن ظهر قلب لهذه المناسبة » . .

وسكتت « شارون » دقيقة لتلتقط أنفاسها ، ثم عادت تقول : « لا . . لا أظن أننى نجحت فى إخفاء غبائى وبلادة ذهنى كما يتصور لى . . . لا بد أن يكون عميد الكلية وبقية أعضاء هيئة التدريس يعرفون الحقيقة ، والذى يدهشنى حقًا أنهم مازالوا صابرين على وجودى بينهم . . لكن للصبر نهاية ، ولسوف يغلبون قريبًا على أمرهم ، فيضطرون إلى طردى من العمل . . عندئذ تكون الطامة الكبرى . فأنا لا أصلح لأى عمل آخر ... لأننى لا أملك سوى فضيلة واحدة وهى قوتى البدنية... قوة عضلية تجعلنى لا أفترق عن الثور أو الحمار فى شىء . . والعمل الجامعى لا يحتاج إلى هذا المؤهل الحيوانى الرخيص . . فأرجوك أن ترشدنى إلى التصرف السليم : هل ترى من واجبى أن أستقيل من الجامعة إرضاء لضميرى الذى يعذبنى لاستمرارى فى أخذ مرتبى مع علمى بعجزى عن القيام بواجبى ؟ . . لست أدرى كيف بلغ بى الغباء أن اخترت سلك التدريس الجامعى . . كان منتهى الجحود أن تركت والدى المسكين يتحمل نفقات تعليمى فى الوقت الذى كنت أعرف فيه تمامًا أننى

لا أصلح لشيء . . إنني فى حيرة قاتلة : إذا استقلت أصيب والدى بصدمة رهيبة بعد طول تضحياته فى تعليمى . . وإذا بقيت أكون غشاشة محتالة عن قصد وسبق إصرار . . ألا ترى معى أن أبواب الدنيا كلها موصدة فى وجهى وطريق الخلاص مسدود أمامى ؟ !

وعندما سألها الطبيب عما إذا كانت تشعر أن أحداً فى هذه الدنيا يحبها ، قالت : « لا أنكر أن أبى يحبنى لذلك أكره أن أخذله . . لكنه يحبنى لأنه مخدوع فى ولا يعرفنى على حقيقتى . . على كل حال ليست لدى فرصة للاستمتاع بحبه هذا ، فهو يعيش فى بلد بعيد ، وأنا أسكن وحدى فى غرفة مفروشة . . وحتى لو كان قريباً منى لما أحس بى ، لأنه رجل حالم يعيش فى عالم من أفكاره الخاصة . . . أما الرجال الآخرون فأنا محرومة تماماً من صحبتهم . . لا يمكن أن أثير فيهم أدنى اهتمام بى ، فمصيبتى أننى لست غبية فقط بل دميمة أيضاً . . . شكلى قبيح ومجردة من أبسط معانى الجاذبية الجنسية . . حقيقة أن دميمات كثيرات يتزوجن لكنهن يملكن شيئاً لا أملكه . . ومعرفتى بهذه الحقيقة المحزنة تخيفنى من مقابلة الرجال ، وإذا فوجئت بوجود واحد منهم أصاب بجمود رهيب يزيدنى قبحاً على قبح . . هذا حرام . . أنا بشر . . من حقى أن أحب وأن أكون محبوبة . . وليس من العدل أن أحرم من نصيبى الإنسانى المشروع فى أن تكون لى أسرة مثل غيرى من الناس . . وربما يكون خطأً فادحاً أن أبوح بمشاعرى هكذا ، وأطمع فى احتياجات عاطفية لنفسى برغم يقينى بأن واجبات العمل هى الأمر المشروع فى الحياة ، لكنى لم ودم ولم يعد فى مقدورى الرضا بما أنا فيه » .

بهذا الحديث الصريح تكشفت محنة «شارون» واستطاع الطبيب أن يرى بوضوح الاضطراب النفسى الذى تعنيه تلك المدرسة الجامعية المرموقة. وكيف أن هذا الاضطراب قد أصابها بأعنف حالات مركب النقص الممتزج بمركب الذنب . فهى لا تحتقر نفسها وتستصغر شأنها فقط . بل تعتقد أيضًا أنها بغبائها وركود فكرها وعجزها الوهمى عن القيام بواجبها المهنى قد ارتكبت جريمة لا تغتفر فى حق الجامعة . بل وفى حق كل من آمنوا بذكائها وقدرتها . .

كان لا بد للطبيب أن يغوص فى قرارة عقلها الباطن لكى يصل إلى جذور شجرة البؤس التى توشك أن تدمرها صحيًا وعقليًا واجتماعيًا . . وأن يعود إلى ذكريات حياتها منذ طفولتها لكى يطفو بما فيها من محن تربوية إلى عقلها الواعى . وبذلك يكشف لها الستار عن حقائق الأمور التى اختلط عليها فهمها ؛ فكان جزاء ذلك أن أصيبت بهذه الحالة العنيفة من الاضطراب العاطفى .

ولم تكن عملية استدراجها إلى الماضى بالأمر اليسير . . فقد أبدت « شارون » مقاومة عنيفة بذل الطبيب فى علاجها جهوداً جبارة . .

وبعد جلسات كثيرة فاشلة نجح الطبيب فى دفعها إلى الكلام عن أيام الصغر. عندما كانت تعيش فى بيتها هانئة بحب والديها ومربيتها التى أحسن اختيارها لكى تقوم برعايتها . .

كانت « شارون » أولى الأبناء الذين رزق بهم والدها فاستأثرت فى خلال السنوات الأولى من عمرها بغاية حبهما وحنانهما ، وبفضل يسرهما المالى ودخلهما الوفير تنعمت بكافة ألوان الرخاء والرفاهية .

لكن هذا العهد الذهبي لم يستمر .

فبعد سنوات معدودات من مولد « شارون » رزقت أمها بصبي تحققت به آمالها الدفينة فى أن يكون لها ابن ذكر يقف بجوارها فى مواجهة الحياة ، ويعين أباه فى شيخوخته ، ويخفف عنه أعباء العمل .

وجاء الطفل لطيفاً حلو الشمائل ، فاستحوذ على قلب أمه ، ولم يترك بذلك القلب مكاناً ولو صغيراً لأخته الكبرى « شارون » التى ظلت إلى حين مولده قرة عين والديها . .

وبعد أن كانت تجلس على عرش المحبة فى أسرتها باتت وأصبحت تجد نفسها محرومة من جميع ماكانت تستمتع به من قبل . فقد شغل والداها عنها بالطفل الجديد ، كما شغلت مربيتها برعاية الصبي والسهر على خدمته . .

وتصورت الفتاة بإدراكها الساذج الغرير أنها لم تعد مرغوباً فيها ، وأن الأحباب القدامى قد تحولوا إلى أعداء ، فأغراها ذلك الموقف بالتمرد على أمها ، وعصيان أوامرها ورغباتها على سبيل الانتقام لنفسها من المرأة التى هجرتها وأغلقت أبواب قلبها دونها . .

وأخذت الأم الأمور بظواهرها ، واعتبرت ابنتها مخلوقة شريرة فقست فى معاملتها ، وحرمتها على سبيل التأديب من لذائذ الطفولة المختلفة ، ولم تكن تتحرج عندما تتأزم المواقف بينها وبين الطفلة الصغيرة إلى ترويضها بالعقوبات البدنية التى كانت تضاعف شعور الصبية بالمهانة ، وتدفعها إلى الانتقام لكرامتها بمزيد من العصيان والشقاوة . .

وعندما وصلت « شارون » فى سرد ذكريات طفولتها إلى هذا الحد ،

سألها الطبيب عن موقف أبيها من قسوة أمها عليها . ولماذا لم يتدخل إذا كان حقيقة يحبها كما زعمت له فى البداية . فقالت فى محاولتها اللاشعورية لتسويغ تصرفاته حفاظا على وهم الحب الذى صنعته بخيالها على سبيل الترضية لكبريائها : « لست أدرى ما كان يجرى بينهما بسببى . إذ لم يكن من عادتهما أن يظهرا خلافاتهما فى حضرتنا . . غير أنى واثقة بأن حبه لى لم يتغير ، وأعتقد أنها كانت تغضب لما يبديه من حنان علىّ . برغم أن فرصة إظهار ذلك الحنان كانت ضئيلة بسبب غيابه المستمر عنا وميله إلى الصمت والتأمل أثناء الفترات القصيرة التى يقضيها معنا . . وبذلك حكمت الظروف بأن أترك وحيدة فى مواجهة أمى المشغولة عنى بأختى الأصغر الذى شاء حظه السعيد أن يكون ذكيا مرحًا سريع البديهة جميل الشكل لبقًا فى أحاديثه . . وكنت كلما رأيتها تزداد إقبالا عليه . أزداد بدورى غضبًا ونقمة فأمعن فى عصيان الأوامر ، وأتعمد تحطيم كل ما تقع عليه يدى من الأشياء المحبوبة لأمى ومربيتى . . لكنى تغيرت بمضى الوقت ، فعندما ما كبرت اقتنعت بأنهما على حق فى كراهيتى فلست أملك شيئًا يستوجب الحب . . فأختى كان صبيًا وأنا فتاة . . جميلا وأنا دميمة . . ذكيا وأنا غبية . . ومخلوقة تافهة مثلى ليس من حقها أن تطمع فى حب الآخرين واهتمامهم بها . . وبإدراكى هذه الحقيقة كففت عن العناد والعصيان وتوقفت تمامًا عن تحطيم الأشياء والعربدة . وآمنت بصحة ما كانت تقوله أمى لى دائمًا : « لا تطلبى شيئًا لنفسك . فأداء الواجب هو عماد الحياة الشريفة ، أما المطالب الذاتية والاحتياجات الشخصية فخروج على مبادئ الشرف ومغضبة لله »

ومضت « شارون » فى سرد قصة حياتها ، وكيف أنها — بعد أن اقتنعت بعدم جدارتها بحب الآخرين نتيجة لتخلى أحب الناس عنها — لجأت دون أن تشعر إلى التركيز على دراستها فإذا بها تتفوق باستمرار ، وتحتل دائمًا مكان الصدارة فى امتحاناتها ، فإذا بوالدها يهتم بهذه الناحية فيها ، ويشجعها على المضى فى طريقها الدراسى إلى أن التحقت بجامعة أكسفورد ، وبفضل تفوقها نالت منحة دراسية محدودة . . وما إن علم والدها بالمنحة حتى توقف عن الإنفاق عليها معتبراً أن الجنيهات القليلة التى تحصل عليها من الجامعة تكفيها فى حين أنها كانت تعانى الأمرين من الاحتياج ، ولم تكن تجد ثمن الثوب الجديد الذى يحفظ كرامتها بين زملائها وزميلاتها ، فعاشت إلى حين تخرجها بملابس بالية ، زرية تخجلها من الاختلاط بالطلبة والطالبات ، كما أنها لم تستطع بسبب الضيق المالى الذى تعانيه أن تعقد صداقات . . فالصداقة تحتاج إلى مجاملات . . والمجاملات يلزمها نقود ، وأقسى ما كانت تستطيعه «شارون» بين الحين والحين ، أن تشترى من إحدى زميلاتها بقايا كعكة قديمة عندها تضطر فى نهاية الأمر إلى أن تأكلها هى وحدها ، بعد أن تتهرب الأخريات من مشاركتها فيها . . ومع كل هذا العذاب الذى تعانيه لم تكن كبريا ؤها تسمح لها بأن تطلب من أبيها . . ولم ير هو من تلقاء نفسه مدى احتياجها إلى المعونة ولا رقة الحال التى تعيش فيها ، والسؤال الوحيد الذى يوجهه إليها كلما سنحت لها فرصة مقابلته لا يخرج مطلقًا عن أنباء نتائج الامتحانات ومدى تفوقها فيها .

ويقول الطبيب النفسى ان هذه الظروف القاسية التى مرت ؛ «شارون»

خلال طفولتها وصباها وشبابها هى الأصل فيما أصابها من إحساس عنيف بالنقص المختلط بمركب الذنب . . نتيجة لشعورها بأنها غير محبوبة بسبب تفاهتها . . وأنها بتفاهتها هذه تعتبر المسئولة عن حرمانها من حب أمها ومربيتها . . بالإضافة إلى ابتعاد أبيها الدائم عن البيت وعن الوجود بجانبها عند احتياجها إليه . . . هذا الا بتعاد الذى اعتبرته هجراً لها وهى فى محنتها . وكان من سوء حظها هجر مزدوج من الإناث والذكور على السواء : من أمها ومربيتها اللتين هجرتاها وتخليتا عنها إكراماً لأخيها . . ومن أبيها الذى حرمها حقها المشروع من اهتمامه بها بسبب سفره المستمر ومزاجه الحالم الذى يشغله بأفكاره الخاصة عن كل ما يجرى حوله . .

ماذا فعل الطبيب ؟

وبنجاح الطبيب النفسى فى استخراج هذه القصة من بين ثنايا عقلها الباطن . وفى خلال مدة علاجه لـ « شارون » أمكن أن يطفو بالذكريات الموجعة إلى عقل مريضته الواعى ، فبدأ التطور يحدث بالتدرج البطىء . وأخذت الحقائق تتجسم لها بوضوح ، فلم تعد تخشى التحدث عن أحزانها القديمة . ولا الاعتراف بكل ما كانت تختزنه من أسباب شقائها . . وعندئذ أخذ مركب النقص يتضاءل تباعاً ، والشعور بالذنب يختفى تدريجاً ، فانتظمت أفكارها ، واستعادت سيطرتها على عقلها ومشاعرها .

وكان الفضل الأول فى تخلص « شارون » من مرضها أنها وفقت إلى الطبيب الذى عرف كيف يكسب ثقتها . ويجعلها تفتح له مغاليق عقلها

الباطن وتحدثه بمتاعبها ، فتريح نفسها من العبء الذى ظل يضغط على مشاعرها حتى أوشك أن يدمرها . . ولقد كسب الطبيب ثقتها بتقبله لها على علاتها ، وعدم إظهاره أى نوع من مشاعره الخاصة إزاء الأحداث التى روتها له ، فلم تحس منه ولو للحظة خاطفة بأى ذرة من الإشفاق أو الاحتقار أو الإدانة . بالعكس كان دائما محايداً فى استماعه لها . . رقيقاً بغير اندفاع فى معاملتها . . مقدراً ظروفها ولكن بغاية الاتزان والتروى . . فكانت نتيجة ذلك أن انعكس أسلوبه عليها ، وجعلها بالتدريج تقتبس طريقته الموضوعية فى الحكم على نفسها . .

ولقد استطاع الطبيب أن يقوم . . أو يصحح . . نظرتها غير الواقعية لأبيها . . ذلك أنها بمجرد أن لمست من ذلك الأب عطفه عليها بعد أن تخلت عنها أمها عقب مولد أخيها الذكر . . تعلقت ببعض هذا العطف تعلق الغريق بقشة عائمة . . وخرجت فى تصويرها لمشاعره نحوها عن إطار الحقيقة . . واعتبرت ذلك الأب كعبتها وملاذها الوحيد . . بل رفعته إلى مستوى الرب ، واعتبرت سياسته معها أحكاماً إلهية لا مرد لها .

لذلك حملته مسئولية الإله وقدراته ، وتوهمت أنه يستطيع بقوته الإلهية الخارقة أن يرى من خلالها ما خفى من أخطائها ونقط الضعف فيها . .

لكن العلاج النفسى ردها إلى جادة الصواب والواقع فتغيرت نظرتها الخيالية إلى أبيها . وبعد أن جهرت بالأمهات خفية ونطقت بها ، تخلصت من الضغوط النفسية الشديدة المكبوتة ، وبدت تراه على حقيقته مجرد إنسان عادى ، وليس إلها بأية صورة من الصور . . إنسان

له أخطاؤه وسقطاته مثله مثل غيره من البشر العاديين . . ومن ثم فالحكم عليه ينبغى أن يصدر بعد التقييم البشرى له ، والموازنة بين فضائله ورذائله ، والرضا بالجانب الخير منه ولوكان محدوداً .

وعندما وصلت فى علاجها إلى هذا المستوى من القدرة على مواجهة الواقع ، اختفت الصورة القديمة لوالدها ، وباختفائها تلاشى شعورها بالحرمان ، ذلك الشعور الذى جعلها طوال السنين الماضية تعتبر نفسها يتيمة . .

ولقد أفادها ذلك أيضاً فى إعادة النظر فى تقييمها للرجال الآخرين مثل عميدها وزملائها وأصدقائها وجميع الذكور والإناث الذين يمرون كل يوم بحياتها . . فلقد استطاعت بعدأن انزاحت الغلالة عن بصيرتها أن تنظر إليهم بغاية الواقعية ، وأصبحت تعتبرهم بمثابة الإخوة وأن تتحمل منهم ما يتحمله إنسان من إخوته وأحبابه ، ولم تعد تتطلب منهم أكثر مما يستطيع الفرد العادى المتزن أن يعطيه غيره . .

كان الفارق بين مشاعرها قبل العلاج وبعده ، هو الفارق بين مشاعر الطفل الوحيد اليتيم المهجور الذى يخاف من قسوة الأطفال الآخرين ، فيهرب من طريقهم ، ويتقوقع على نفسه بعيداً عن مواطن العذاب التى تتربص به . . وبين مشاعر الطفل السليم الذى يشعر بالأمن والطمأنينة بفضل اعتماده على وجود والدين قويين عطوفين بحياته على علاته وبقدراته برغم أخطائه ، ويتقبلان بمنتهى السماحة والرضا شخصيته على ما هى عليه دون أى تغيير . .

ولقد مرت « شارون » فى خلال شفائها من مرضها النفسى بثلاث مراحل :

أولاها : مرحلة تضاؤل القلق الذى تعانيه وازدياد ثقتها بنفسها ، وكانت فى خلال هذه الفترة تتدفق فى اعترافها بمتاعبها الدفينة ، وتسخو فى التصريح بكل ما يعتمل فى نفسها دون أدنى حرج أو تردد .

والمرحلة الثانية ترتبت على الأولى .. فباستعادتها هدوءها وثقتها بنفسها لم تعد تخجل من مواجهة نفسها بحقها الشرعى فى الحياة الجنسية ، ولا برغبتها فى أن تتزوج وتستمتع بما يستمتع به غيرها من النساء من حيث الحياة الأسرية التى تمنحها سعادة الوجود مع زوج محب وأبناء أوفياء . . فقبل العلاج كانت تتصور أن رغباتها هذه أمور قذرة محرمة تدل على الميل إلى الإثم وسوء الأخلاق وخبث الطوية ، طبقًا لما كانت أمها دائمًا تقوله لها من أن عمل الواجب هو الرغبة الوحيدة المشروعة ، وأن أى مطالب شخصية بعد ذلك تعد إثمًا ومغضبة لله . . .

والمرحلة الثالثة جاءت نتيجة للثانية . . وهى أنها حين استعادت توازنها فى حكمها على الناس والأمور ، استطاعت أن تتقبل نفسها برضا وارتياح ، وزال احتقارها لعلمها كما زالت نقمتها على جنسها ، وأصبحت ترى شخصيتها فى إطارها الصحيح الذى يدفع إلى الاحترام ويمنحها كل الحق فى أن تستمتع بكل ما تستمتع به مثيلاتها من النساء الذكيات الطيبات .

ولقد شفيت « شارون » وعادت إلى أسرتها تعايشها بالأسلوب السليم

ولم يمض وقت قصير حتى التقت بالرجل الذى تزوجها عن حب واحترام وأعطاها بعطفه وتقديره ما كانت تتحرق إليه منذ زمن طويل . .

وبعد الزواج ظلت بقايا من مركب النقص عالقة بنفسها إلى أن أنجبت طفلها الأول ، فكان من أثر هذا الحدث العظيم فى حياتها أن تلاشت إلى الأبد بقايا علتها . واستعادت كامل ثقتها بنفسها واحترامها لمواهبها ومميزاتها .

ويؤكد الطبيب فى ختام حديثه عن « شارون » أن الشخص الذى تتاح له من صغره فرصة الاستمتاع بالحياة الاجتماعية السليمة . وتتهيأ له أسباب الاختلاط بالناس وعقد الصداقات . . مثل هذا الشخص من المستحيل تقريباً أن يصاب بمركب النقص حتى لو كان تعساً فى أسرته .

فوجوده خارج البيت بين لداته ، ومشاركته لأبناء جيله فى ممارسة الأنشطة المختلفة يزوده بالطمأنينة النفسية التى قد يفتقدها فى بيته ، ويعوضه خسارته فى أسرته الصغيرة بالكسب العظيم الذى يجنيه مع أسرة المجتمع الكبيرة . .

لذلك ينصح الطبيب الآباء والأمهات إذا وجدوا فى أحد أبنائهم أى أعراض ولو بسيطة لمركب النقص ، بأن يدفعوه إلى الالتحاق بالنوادى العامة والخاصة حيث يجد عدداً كبيراً من أبناء جيله فيعرفهم ويعرفونه ويصادقهم ويصادقونه ، الأمر الذى يقضى على براعم مرضه قبل تفتحها ، ويمنحه الثقة بالنفس . .ولكن من المهم جداً قبل اتخاذ هذه الخطوة فى مساعدة الطفل على التخلص من عقده ، أن

يبدأ الآباء والأمهات بجذور المشكلة ، بمعالجوا أخطاءهم فى تربيتهم لأبنائهم ويعملوا على أن يشعروا الطفل بأن له والدين محبين مخلصين .. راضيين به على علاته . . حريصين على سعادته وراحة نفسه بصرف النظر عن حظه من المميزات والفضائل . .

هذه هى الخطوة الأولى الهامة . وبعدها يأتى إدماج الطفل فى الحياة الاجتماعية المناسبة له ، حيث يلتقى بأبناء جيله ، ويكتسب من صداقتهم له الشعور بوجوده وإنسانيته . . ذلك أن مركب النقص يبدأ أولا نتيجة للأخطاء التربوية التى كثيراً ما يرتكبها الكبار عن غير قصد ، والعادة أن يأتى مصحوبًا بمركب الذنب ، مما يترتب عليه أن يصاب بالخجل والشعور بالقلة والتفاهة فيرتبك فى تصرفاته ويعتقد أنه إنسان غير مرغوب فيه اجتماعيًّا . .

ويمكننا تلخيص الأخطاء التربوية التى ارتكبها والدا « شارون » فأدت إلى إصابتها بمرضها النفسى فى النقط التالية :

ـ أنهما تخليا عنها تمامًا بمجرد مولد الصبى ، مما أشعرها بأنها هجرت وأصبحت يتيمة . .

ـ أنها حين عمدت إلى العناد والعصيان على سبيل التعبير عن رفضها ليتمها الأدبى لم يفطنا إلى بداية المرض النفسى ، وتصورا أنها شريرة ، فلجآ إلى القسوة فى معاملتها وبذلك ضاعفا من وطأة علتها . .

ـ أن والدها الذى كانت تعلق على حبه آخر أمل فى نفسها ، خذلها بالتوقف عن معونتها بالمال فى أثناء دراستها الجامعية ، مما أكد لها شعورها بالهجر واليتم . .

ـــ أنه سدد لها الضربة النفسية القاضية حين لم يظهر لها أدنى اهتمام إلا فيما يختص بتفوقها الدراسى كأنه لا قيمة لها فى الحياة بدون هذا التفوق .

* * *

«لورا» فى حرب مع الفـراغ !

* لماذا كانت الأشباح المخيفه تطارد « لورا » ... كلما استسلمت للنوم ؟
* ماذا كان يختفى وراء شهوتها العارمة للطعام، تلك الشهوة التى كانت تتركها كالفيل المنتفخ فى كل مرة ؟
* وما هى الدروس التى ينبغى أن تتعلمها الأمهات والآباء من هذه القصة المحزنة ؟

إنها قصة من ألمانيا يعرضها أحد أساطين الطب النفسى هناك لإحدى الحالات المرضية التى مرت به ، وكان لها طابع شديد الأهمية من حيث المعنى والمدلول .

وبطلة هذه الحالة فتاة ألمانية شابة اسمها « لورا » . . صغيرة السن جميلة الشكل . طيبة القلب . ذات مواهب فنية تكفل لها مستقبلا مرموقًا .

وكانت هذه الفتاة الممتازة قد أتمت دراستها الفنية بنجاح ، وعينت بأحد المتاحف الكبرى فى وظيفة محترمة تفتح لها الطريق إلى مناصب فنية عالية ، لكن التوفيق خانها برغم استعدادها الطيب ومواهبها المتعددة ، بسبب المتاعب النفسية التى أخذت فى السنين الأخيرة تطاردها ، نتيجة لصدمات عنيفة تلقتها فى صغرها ، ولم يظهر أثرها واضحًا إلا فى الشباب عندما وقع الانفجار النفسى الفظيع . .

ولقد لجأت « لورا » إلى الطبيب فى أول مرة تشكو له من ثلاث مشاكل نفسية تشقى حياتها ، منها أنها برغم شبابها وجمالها وتحرقها الشديد إلى الحياة الزوجية ، تجد أنها عندما يأتى فى طريقها الرجل المناسب ، وتحس بأنه قد أصبح جادًا فى نيته على الارتباط بها ، يتملكها إحساس بالتمرد عليه والرغبة فى التخلص منه ، فتسىء معاملته حتى تنفره منها وتدفعه إلى الاختفاء من طريقها . .

ولقد تكررت هذه الحالة مع أكثر من رجل كانت تشعر بالميل الشديد له ، وتتمنى أن تعيش فى كنفه ، وكلما أفسدت بتصرفاتها الحمقاء فرصة من هذه الفرص ينتابها الأسى ، فتنهار نفسيًا ، وتظل تعانى

الشقاء إلى أن يظهر فى أفق حياتها رجل جديد ، فتفرح وتتفاءل ، ثم ينقلب الوضع ، وتكرر المأساة نفسها مرة أخرى .

وبالإضافة إلى هذه المشكلة النفسية التى تعقد حياتها ، كانت « لورا » تعانى بعنف وشدة من الأحلام المرعبة التى تعذبها فى أثناء استغراقها فى النوم فتحرمها حقها من الراحة . . وتدور هذه الأحلام دائمًا حول أشباح مخيفة ليست لها أشكال محددة ، واضحة ، ولكنها تبدو لها فى صورة قوى عدائية رهيبة تجرى وراءها لتقضى عليها . . وتتكرر هذه الأحلام مرات فى الليلة الواحدة ، وفى كل مرة تستيقظ فزعة وهى تصرخ بأعلى صوتها ، حتى أصبحت تكره النوم وتخاف أن تأوى إلى سريرها ، وتفضل أن تقضى معظم الليل ساهرة فى غرفتها ، الأمر الذى تدهور بصحتها ، وأصاب أعصابها بانهيار شديد . .

ثم إن « لورا » كانت أيضًا تعانى من حالة غريبة تصيبها بين الحين والحين . . فجأة وبلا أدنى تمهيد أو مقدمات . . وليس لها أدنى ارتباط بمزاجها أو ظروفها . . فقد تكون فى أسعد حالاتها وإذا بها تشعر على حين بغتة كأن جوفها أخذ يمتلئ بالفراغ ، ويزداد الشعور بالفراغ تضخمًا حتى يتصور لها أنها على وشك الانفجار . .

ويصاحب هذا الشعور المخيف إحساس مؤلم بالجوع ، ويزداد حتى تفقد « لورا » السيطرة على نفسها ، ويطيش عقلها فتنهال كالوحش الضارى على كل ما يمكن أن يؤكل . . تأكل كل شىء وأى شىء ، دون أن تتوقف عن الأكل لحظة . . لا فارق بين لحم نيئ أو ناضج . . خضراوات مطهوة أو غير مطهوة . . أعشاب أو فضلات

. . كله يصلح ما دام يمكن بلعه . .

وتظل على هذه الحالة تملأ جوفها حتى يفيض بمافيه ، فتتقيأ لتبدأ من جديد . . إلى أن تنهار تماماً . . ويصيبها إرهاق شديد تتوقف معه عضلات فمها وذراعيها . . ويتدلى فكها ويتورم جسدها . . وينتفخ بطنها ووجهها . . ثم يغلبها نعاس هو فى حقيقته أقرب إلى الغيبوبة منه إلى النوم . . وتغيب عن الوجود لمدة يومين أو ثلاثة . . وحدها فى مسكنها بين فضلات الطعام والقاذورات المتخلفة عن الحالة الوحشية التى انتابتها . .

ثم تستيقظ فجأة وقد عادت إلى كامل عقلها ، فتجد أنها لفرط ما أكلت وشبعت قد تضخمت بشكل محزن ، وضاعت معالم قوامها الرشيق . . كما تشوه وجهها الجميل . . هذا غير النزلات المعوية والأمراض التى حلت بها نتيجة للمواد العجيبة التى ظلت تلتهمها وهى فى إبان أزمتها . . وتحزن « لورا » أبلغ الحزن على ما فعلته بنفسها . وتكرس الشهور التالية لعلاج ما فسد من شكلها وصحتها ، وما إن تسترد جمالها وعافيتها ، إلا وتفاجئها النوبة ثانية لتتكرر المأساة .

وكان الطبيب النفسى يعلم أن الخوف من الزواج والأحلام المزعجة هى عوارض معروفة نفسية متأصلة فى العقل الباطن . . كذلك كان يعلم أن الأغلبية الساحقة من حالات السمنة المفرطة تعود إلى مشاكل نفسية بالمثل ، ولكنه لم يستطع أن يصدق الأوصاف التى أدلت بها « لورا » حين حدثته عن نوبات الشعور بالفراغ والجوع . . وتصور فى أول لقاء معها أنها تبالغ وتنساق مع الخيال بعيداً عن الحقيقة والواقع ،

إلى أن فوجئ بجيرانها يستغيثون به ذات اليوم ، ويرجونه أن يسرع فى عيادتها لإنقاذها .

ويؤكد الطبيب أنه حين دخل المسكن لم يصدق عينيه لهول ما رأى ، فقد كانت « لورا » ترقد كالجاموسة المنتفخة فوق أكوام من بقايا الطعام وعلب المأكولات المحفوظة الفارغة . . ملابسها مبللة بالقىء ، وشعرها كله دهون وفتات من الخبز واللحم والخضراوات . . ووجهها الذى عرفه جميلا قد تورم إلى درجة اختفت معها معالم تقاطيعها المختلفة . .

وكانت عند حضوره لا تزال فى غيبوبة النوم العميق ، الذى يحل بها عادة بعد أن يستبد بها إرهاق الأكل وتتوقف عضلاتها عن العمل . . فأمر بحملها إلى فراشها وتركها فى رعاية إحدى الممرضات المحترفات ، إلى أن استيقظت من تلقاء نفسها بعد يومين كاملين ، فلما تنبهت إلى ما فعلته بنفسها أخذت تبكى وتبكى ، وتقسم أن تنتحر تخلصًا من عذابها . .

بيت متصدع

وكان لا بد للطبيب النفسى أن يغوص فى أعماق حياتها لكى يستخرج من العقل الباطن عقد الطفولة والصبا ، ويطفو بها إلى العقل الواعى حيث تذوب فى الواقع وتبطل سمومها : ولقد أمكنه بعد مقاومة شديدة منها أن يحل عقدة لسانها ويجعلها تحكى له بمحض إرادتها واختيارها قصة حياتها . . كيف ولدت « لورا » فى أسرة متوسطة وكانت الابنة

الثانية لوالديها ، أما الأول فصبي يكبرها بعامين تقريبًا . . ولأنها كانت ضعيفة البنية فى بداية حياتها فقد اختارت أمها أن تضعها معها فى غرفة النوم التى تشغلها هى وزوجها . . مطمئنة إلى أن الطفلة تنام مبكرة وتصحو متأخرة . ومن ثم فلا خوف عليها من أن تستيقظ بالليل وتشهد ما يحدث بين أى زوجين فى فراش الزوجية .

ولكن « لورا » الصغيرة كانت تستيقظ دون أن يشعر أهلها بها . وترى فيخيل إليها أن والدها يؤذى أمها . وخوفًا من أن يؤذيها هى الأخرى تغمض عينيها . وتجبر نفسها على العودة إلى النوم وهى فى حالة من الرعب يرثى لها . .

ولقد تصادف فى حالة أن أصيبت الأم بمرض عضال تركها بقية حياتها كسيحة لا تستطيع الوقوف أو السير . ولا يمكنها التنقل إلا فوق مقعد متحرك تطوف به البيت لأداء أعمالها المنزلية . .

ويمرض الأم أفلت زمام الأب فانطلق وراء شهواته بإفراط انتهى بطرده من عمله ، فانقطعت الموارد عن « لورا » وأمها وأخيها . وأصبحت الأسرة تعانى الأمرين من الضنك البالغ . فى حين ظل الأب على استهتار يعاقر الخمر ويجرى وراء البغايا . ويعود فى آخر النهار ضاحكاً مترنحاً كأنه لا يعرف همًّا ولا يحمل مسئولية . .

ويجن جنون الأم الكسيحة فتثور غاضبة عليه . وتظل تصرخ فى وجهه وتؤنبه ، إلى أن يضيق بها صدره ، فيوليها ظهره ويخرج من البيت ثانية ليعود عند مطلع الفجر . أو بعد أيام يقضيها مع خمره وحبيباته .

لكن « لورا » الصغيرة الساذجة لم تكن ترى من أبيها سوى الجانب المضيء، إذ كان يحبها أكثر من بقية أفراد الأسرة ، ويدللها ويناجيها ويحملها فى أحضانه ويداعبها . . وإذا بقى فى جيبه بعد إرضاء شهواته نقود يشترى لها قطعة من الحلوى ليدخل الفرحة على قلب ابنته الصغيرة الأثيرة إلى نفسه .

وكان إلى جانب ذلك غاية فى الوسامة . . طويلا عريضًا . . قويًّا وسيمًا ، يمثل فى نظر « لورا » النقيض لأمها الكسيحة الضامرة الدميمة . . لذلك أحبت الابنة أباها من كل قلبها ، ووجدت فى عطفه عليها التعويض الكامل عن حالة الجوع والفقر والعرى التى تعيش فيها . . ولجهلها بحقيقة أسباب العراك بينه وبين أمها ، انحازت بقلبها إليه ، وتصورت أنه ضحية أمها ، فلولا كساحها وضعفها وقبحها ما شرب الخمر ولا تلهى بالنساء ولا قصر فى حمل مسئولياته العائلية .

وكانت تسمع أمها تبكى أحيانًا وتنعى حظها النكد ، وتؤكد أن زوجها هو السبب فيما آل إليه حالها ، وقصدها بذلك أن استهتاره ومجونه وانطلاقه الأرعن وراء نزواته الرخيصة ، قد سبب لها من المحن النفسية ما حطم صحتها وانتهى بها إلى العجز الجسدى وهى لم تزل فى شرخ الشباب . . فتعود بها الذاكرة إلى ما كانت تراه بغرفة النوم فى صغرها ، فتحمل العلاقة الجنسية مسئولية الشلل والكساح والعجز ، ولفرط تعلقها بأبيها ، وحبها الأعمى له يتضاعف حنقها على أمها ، التى كانت فى اعتقادها تستدرجه إلى ممارسة حقوقه الزوجية ، وتدفعه بذلك إلى الإضرار

بها . مما أدى فى النهاية إلى ضيعة الرجل الطويل العريض . . القوى الوسيم . . النطيف الظريف . .

ولقد تمكن منها هذا الشعور عندما انتهى الخلاف المستمر بين الزوجين ذات ليلة بخروجه من البيت نهائيًا . واختفائه ما تبقى له من عمر عنهم . . فلقد أحست عندما صفق الباب خلفه وطواه ظلام الليل إلى غير رجعة أنها فقدت روحها . وأن أعز جزء فى صدرها وجوفها قد انتزع منها بقسوة لا تعرف الرحمة .

وانقضت الشهور الأولى وهى تعيش بأمل عودته . وبلغ بها التعلق بهذا الأمل أن كانت تسرع كل يوم بالعودة من مدرستها جريًا ، خيفة أن يرجع أبوها إلى بيته فلا يجدها . . وتظل واقفة عند النافذة المطلة على الباب الرئيسى إلى أن يحل الظلام ويغلبها النعاس ، فتأوى إلى فراشها يائسة حزينة .

لكن الشهور توالت ولم يتحقق أمل العودة ، ولم تتلق الأسرة كلمة من عميدها الغائب ، ولم يصلها خبر تهتدى به إلى البلدة التى لجأ إليها وحط بها رحاله .

وتغيرت أحوال الفتاة وأصيبت بالانطواء وشرود الذهن وعدم التركيز ، وتأثرت بذلك أحوالها الدراسية فتكرر تخلفها فى امتحاناتها ، بعد أن كانت فى مقدمة الصف متفوقة على زميلاتها وزملائها .

وتحجرت عواطفها نحو أمها الكسيحة ، فلم تعد تشعر بأدنى شفقة عليها . . بالعكس كانت تتلذذ بتعذيبها ، وتبتكر كل يوم حيلة جديدة للتنكيل بها . . ومن ذلك أنها كانت تحرم أمها الطعام حتى يشتد بها

الجوع ويدفعها العذاب إلى التنازل عن كرامتها برجاء ابنتها واستعطافها . .

وقد حدث مرة أن وضعت « لورا » الطعام على بعد من أمها الكسيحة ، وطلبت إليها أن تزحف إليه إذا كانت حقيقة تريده . . وأطاعت الأم وظلت تزحف . . وعندما كادت تصل بعد جهد عنيف اختطفت « لورا » الصحن والتهمت جميع ما فيه ، وخرجت من البيت ضاحكة ، وتركت أمها خلفها تبكى بعنف وحرقة !!

وتصادف أن مرضت الأم وماتت بعد هذه الحادثة بوقت قصير ، ولم يكن لواقعة الصحن دخل فى مرضها وموتها ، ولكن الوقع كان شديداً على « لورا » ، وبدأت منذ ذلك الحين تعانى عدة متاعب نفسية ، منها خوفها الشديد من الزواج برغم رغبتها المفرطة فى بناء أسرة ، ثم الأحلام المزعجة التى أخذت تطاردها فى نومها وحرمانها الراحة والاستقرار ، بالإضافة إلى نوبات الشعور بالفراغ داخل جوفها . وما يصاحبه من إحساس بالجوع الرهيب الذى يدفعها إلى الاستمرار فى التهام الطعام ، إلى أن يدركها الانهيار فتروح فى غيبوبة قد تطول يومين أو أكثر .

أخطاء التربية

ويعتقد العالم النفسى الذى تولى علاج « لورا » لمدة خمس سنوات متصلة ، أن الأغلبية الساحقة من المتاعب النفسية تحدث خلال السنوات الأولى من عمر الإنسان ، وكثيراً ما تأتى نتيجة لأشياء صغيرة تصدر

من الوالدين دون قصد . ولا يتنبهان إليها . غير أنها تصيب نفسية الطفل بدرجة تتسرب إلى عقله الباطن وتلوذ بتلافيفه لحيث تبقى فى مكانها مختفية لتسيطر على حياته من بعيد . وترسم له طريق العذاب فى كبره . مما يدفعه إلى الانحراف . أو يقوده إلى الجنون . ما لم يتدخل العلم النفسى فى الوقت المناسب وينتزع أصول المتاعب من العقل الباطن . ويطفو بها إلى العقل الواعى حيث تذوب سمومها وينتهى أمرها .

كذلك يؤكد الطبيب أن الحب الأول والأكبر فى حياة كل إنسان هو حبه لأمه . ومهما قيل فى انجذاب البنت إلى أبيها وانجذاب الابن إلى أمه . فهذه اتجاهات عارضة تنتهى بفترة معينة من العمر . ولا تنال من حب الأم شيئًا أو تضعفه ولو قليلا . .

وكثيراً ما يحدث الجفاء بين الأم والبنت . وتبدو الخصومة بينهما واضحة . ولكن من خلف هذا الشعور البغيض يظل التعلق بالأم واضحًا . . فالعلاقة بين الأم والبنت وطيدة ومصدر للشعور بالحماية . ومنها تستمد الابنة الإحساس بالاستقرار والأمن فى جميع العلاقات الأخرى فى الحياة . . والارتباك يحدث عندما تفشل الأم من غير قصد فى منح ابنتها حاجتها من الرعاية العاطفية . أو ترتكب غلطة تترتب عليها صدمة نفسية شديدة . .

ولقد ارتكبت أخطاء كثيرة فى حق « لورا » . منها أن الأم — لفرط رغبتها فى رعاية ابنتها خلال السنوات الأولى من عمرها — أبقتها معها بغرفة النوم التى تشغلها هى وزوجها ؛ وهذه غلطة شائعة فى بيوت كثيرة، لكنها غلطة خطيرة جداً . فالوالدان يتصوران أن الطفل

أصغر سنًّا من أن يرى ويفهم ما يحدث بين الزوجين ، وهذا غير غير صحيح ، فهو يختلس الرؤية دون علم والديه ، ولكنه لا يفهم حقيقة ما يحدث ، فيتصور أن الأب يؤذى الأم ، ومن هنا ينبت الشعور بالنفور الشديد من العلاقة الجنسية ، وتظهر آثاره فى الكبر عند الزواج. وكثيراً ما يؤدى إلى إصابة المرأة بالخوف والبرود الجنسى ، الأمر الذى يعوق الروابط العاطفية بين الزوجين ، ويزعزع استقرار الأسرة . .

والذى رأته « لورا » فى صغرها رسّب فى نفسها هذا الشعور ، وجعلها تربط بين العلاقة الزوجية وما أصاب أمها من شلل وعجز وكساح . ويدافع من الخوف الشديد الناجم من أن تتزوج ليصيبها ما أصاب أمها ، لجأت — بتأثير العقدة المختفية فى عقلها الباطن — إلى النفور من كل رجل يبدى رغبة جدية فى ربط حياته بحياتها . . فكلما رأت الحب يتضح بينها وبين خاطب ملائم لها ، يقفز إلى ذهنها شبح العجز والمرض ، فإذا بقوة غامضة تفوق إرادتها تدفعها إلى الانقلاب على الرجل الذى تحبه ، والإمعان فى الإساءة إليه كى يهرب من طريقها . .

كذلك كانت علاقة « لورا » بأمها معقدة . فالمرض الذى أصابها حولها فى نظر الابنة إلى حطام إنسانى قبيح لا يمكن أن يرضى رجلا جميلا وسيمًا قويًّا مثل والدها . فلما لجأ إلى الترفيه عن نفسه بوسائله الخاصة ، انهارت أعصاب الأم وجعلت العراك مع زوجها شغلها الشاغل . . تصرخ فى وجهه إذا حضر ، وتبكى وتنعى حظها إذا

غاب . . وكانت النتيجة أن أضاعت على ابنتها الصغيرة حقها من الاستمتاع بالدفء العاطفي الذى لا يجده الإنسان إلا فى أحضان أمه ، ولا يمكن أن يعوضه عنه عطف آخر مهما بلغ . .

كانت تعتقد أن الأم هى المسئولة الأولى عن شقاء الأسرة . .

وتجد فى التصرفات الحمقاء لأبيها مسوغات قوية .

فلما اختفى هذا الأب العزيز نهائياً من حياة ابنته الحبيبة المفضلة . وتلفتت حولها فوجدت أنها — وقد تركت لأمها — قد أصبحت تعيش فى صحراء جدباء من العاطفة ، أصيبت « لورا » بطعنة نفسية نجلاء . تركتها فى عالم من الفراغ الموجع ، فاندفعت إلى التعبير عن عذابها المكبوت بالانتقام من أمها ، وابتكار الحيل المختلفة للتنكيل بها .

ولكنها برغم هذا كله كانت فى قرارة قلبها تحب أمها ، وتتعذب دون أن تشعر بتعذيبها لها . . وعندما ماتت الأم بعد فترة قصيرة من حادث الصحن ، كان شعورها المكبوت بالذنب قد بلغ ذروته ، فبدأت الأحلام المزعجة تطاردها على سبيل التأديب . . ولأنها كثيراً ما تركت أمها جائعة ، انتابتها حالات الجوع الجنونى التى أوشكت أن تقضى على عقلها قبل حياتها .

ونستطيع أن نلخص الأخطاء التربوية التى ارتكبت فى حق « لورا » فى ثلاثة :

أولها : إشراكها فى غرفة نوم الزوجين .

وثانيهما : إخفاء الأم عن ابنتها حقيقة الوضع بينها وبين أبيها ؛ فمن مصلحة الأطفال إذا وجد الخلاف بين الوالدين أن يعرفوا بحقيقة أسبابه

ومسبباته بأسلوب هادئ منطقى يناسب عقليتهم التى تحددها مرحلة العمر التى يمرون بها ، كى تتأتى لهم القدرة على مسايرة الأحداث ، ووضع كل حدث منها فى إطاره الصحيح . . فإخفاء المتاعب الضرورية فى كل حياة عن الأبناء بقصد تجنيبهم الأحزان ، يضربهم ولا ينفع لأنه يضللهم عن الحقيقة ، ويصور لهم أن الوئام التام فى الجوهر والتفاصيل هو الأصل ، وأى خلاف يواجهونه فى كبرهم يقضى على شعورهم بالسعادة . . كما أن مطاردة الأبناء بالمشاكل يضيع عليهم فرصة الاستمتاع بالدفء العاطفى وهو الغذاء الرئيسى فى بناء الشخصية المتكاملة السليمة . .

أما الخطأ الثالث ففى الأسلوب الأحمق الذى واجهت به الأم شروط زوجها ومتاعب مرضها ، فلقد شغلتها النقمة على حياتها عن دورها التربوى الرئيسى ، فتوهمت ابنتها أن أمها هى الجانية لا المجنى عليها . إن الشجار المستمر وتكرار الصراع والبكاء وندب الحظ أخفى الصورة الجميلة للأمومة ، وأحل محلها صورة المرأة المعاكسة البغيضة ، وضيع على الفتاة حقها من الحنان الذى تتعطش إليه . .

ولقد كتب « للورا » الشفاء عندما نجح الطبيب بعد خمس سنوات كاملة من الجلسات الطويلة المتتالية ، فى أن يستخرج من ذهنها ما اختزنه عقلها الباطن من معلومات مشوهة ، وجعلها ترى بنفسها الحقيقة المختلفة للأوضاع التى أشقت حياتها . .

* * *

عندما ينقلبُ الأصدقاء أعداء ..

* لماذا أصرت « شارلوت » على ألا تنجب من زوجها الحبيب ؟ ولماذا كانت تأبى الخروج فى الأيام التى تتفتح فيها الأزهار الجميلة ، فى حين لا تحلو لها النزهة إلا تحت وابل من المطر الغزير ؟

بطلة قصة اليوم سيدة هولندية اسمها « شارلوت » فى الخامسة والثلاثين من عمرها . . من أسرة كريمة مقتدرة ، وقد تزوجت فى ريعان شبابها برجل أعمال معروف ، ولم تشأ أن تنجب منه أطفالا ، بالرغم من الحب الشديد الذى يربطهما و بالغ الوفاء فى علاقتهما .

وكان المفروض أن تظل سعادة هذين الزوجين الحبيبين قائمة ، بأولاد أو بلا أولاد ، وطيبة على مر السنين . ولكن التدهور النفسى والعقلى الذى أصاب شارلوت جعل استمرار حياتها مع زوجها يكاد يكون مستحيلا ، غير أنه لم يشأ أن ينفصل عنها قبل أن يرضى ضميره تماماً بمحاولة أخيرة فى سبيل إنقاذها ، لذلك اصطحبها إلى طبيب كبير اشتهر فى جميع الدوائر العلمية بقدرته على علاج معظم الأمراض العقلية عن طريق التحليل النفسى .

وقد روى الزوج للطبيب أنه حين قابل «شارلوت» لأول مرة كانت شابة جميلة رقيقة مثقفة ، ولكنها تميل إلى الهدوء والانطواء على نفسها بسبب حالتها الصحية المتدهورة . فمنذ بلغت الثالثة من عمرها وهى تعانى من أوجاع المغص الذى يفاجئها دون مسوغ ، ويشتد بها حتى تنتابها حالة من القىء العنيف . . كما أنها كانت واسعة الخيال تروى قصصاً أشبه بالأساطير وتدعى أنها حقيقة ، وإذا روجعت فى صدق هذا الادعاء لا تغضب ولا تنفعل . . ويعاودها المغص والقىء فقط ، مما يضطرها إلى ملازمة الفراش أياماً متتالية . .

لكن هذه الأعراض المقلقة لم تفلح فى إبعاده عنها ، فقد وجد

فى ثقافتها وجمالها وذكائها ولطف معشرها ما أثار إعجابه بحبها، فأقدم على الارتباط بها وهو مطمئن إلى أنها متاعب من النوع الذى ينتاب بعض الفتيات الفاضلات قبل الزواج ، ولسوف تزول سريعًا بممارسة الحياة الطبيعية . .

لكن صحة شارلوت لم تتحسن بعد الزواج ، فقد ظلت الأوجاع تنتابها وتنغص عليها حياتها، مما دفعها إلى الإصرار على عدم الإنجاب خوفًا من المضاعفات ، برغم أن جميع الأطباء الذين تولوها بالعلاج — الواحد بعد الآخر — قرروا بعد إجراء كافة الفحوص والتحليلات أن صحتها سليمة تمامًا ، وليس بها أى مرض أو مكروب يسوغ المتاعب التى تعانيها ، ولم يكن ذلك المصدر الوحيد لمتاعب الزوج . . فخيال « شارلوت » أخذ يضطرد فى الاتساع السريع ، حتى أصبح فى نظرها حقائق مجسمة تسيطر تمامًا على ذهنها ، ولا تقبل أدنى مناقشة . من ذلك مثلا أنها تؤكد أنها ليست الابنة الحقيقية لوالديها الحاليين ، وتزعم أنها ولدت فى غابة بدائية تقع فى قلب القارة الأسيوية ، وقد قضت هناك بين أهلها وعشيرتها السنوات الأولى من عمرها ، ثم حملوها وأتوا بها إلى هولندة لتعيش مع أسرتها الحالية وتحمل اسمها . . وقد تطورت معها هذه الفكرة حتى أصبح فى مقدورها أن تصف بالتفصيل شكل القرية الأسيوية التى ولدت فيها . . والطريق الزراعى الطويل الذى تكتنفه الأشجار العالية ، وبينها تقوم الأكواخ الصغيرة التى يسكنها أهل القرية ، ثم الأمطار الغزيرة التى كانت تسقط ، وبعد انقطاعها تسطع الشمس لتملأ الكون بالنور والدفء

... وكيف كانت أمها تحرص على نظافتها وتغسل لها شعرها كل يوم ، في حين انصرفت اهتمامات خالتها إلى تربية الأوز وتسمينه قبل بيعه في السوق بعد الاحتفاظ بالأفضل منه لطعام الأسرة .

وبسيطرة هذه الفكرة على ذهنها أصبحت تلقى بمسئولية متاعبها الصحية على مناخ هولندة الذى لا يلائم تكوينها الطبيعى . وكلما رأت الأمطار تهطل حتى فى الشتاء البارد تندفع إلى الطريق وتسير عارية الرأس تحت المياه الغزيرة الهاطلة غير عابئة بما يصيبها من أمراض نتيجة لذلك . .

وتمضى الوقت استنفحلت حالتها ، فأصبحت تخاف من رائحة الزهور والورود الهولندية التى تنمو فى حديقتها وحدائق جيرانها . وتزعم أن رائحة الزهور والورود الغريبة على بيئتها الأسيوية الأصل هى التى تصيبها بالقىء والمرض . . وتلافيًا لذلك كانت تحبس نفسها فى البيت خلال موسم الأزهار ، ومهما كانت الظروف لا يمكن أن تطأ بقدمها عتبة البيت إلا بعد أن تختفى الزهور من جميع الحدائق ولا تبقى واحدة منها . وخوفًا من أن يحمل الهواء رائحتها إلى البيت عمدت إلى إغلاق جميع النوافذ بغاية الإحكام . ومنعت فتح أى واحد منها ، مما كان يشحن جو البيت خلال الربيع — وهو موسم الأزهار — بالأتربة وعطن روائح الأنفاس المترددة بين جدرانه .

وتمادت « شارلوت » بمضى السنين فى الانسياق مع تصوراتها الخيالية ، فغيرت ثيابها واتخذت فى ملبسها طابعًا آسيويًا واضحًا . كذلك صففت شعرها على طريقة الهنديات والإندونسيات ، ثم لوت

لسانها فى الحديث لتكسب كلامها لكنة أجنبية تتمشى مع قصة انتمائها إلى أصل شرقى يختلف تمامًا عن البيئة الهولندية التى تعيش فيها . . وكان الأدهى من كل ذلك أن « شارلوت » أصبحت بتصرفاتها العجيبة تعرض حياتها للخطر فى كل لحظة ، فإذا دخلت المطبخ تعد طعامًا أو شرابًا تحرق ذراعها ، وإذا أمسكت بسكين لابد أن تقطع يدها ، وإذا هبطت السلم فلا مفر من أن تسقط على الدرج وتؤذى جسمها ، وفى تنقلاتها فى غرف البيت تصطدم بقطع الأثاث وتصيب نفسها بالقطوع والكدمات العنيفة ، وعندما تسير فى الطريق يقع لها دائمًا حادث خطير ، كأنها تتعمد الإلقاء بنفسها فى طريق السيارات والعربات والعجلات البخارية ، وأمام هذه الحياة الزوجية المشحونة بالمتاعب والمضايقات نفد صبر الزوج ولم يعد قادراً على مزيد من الاحتمال ، لكنه آثر على سبيل الوفاء أن يؤجل قراره النهائى إلى أن يعرضها على الطبيب كآخر إجراء يرضى به ضميره . ولقد استنفد علاج « شارلوت » ثلاث سنوات كاملة ، ظل العالم النفسى خلالها يجلس معها خمس مرات فى الأسبوع على الأقل ، إلى أن كلل الله جهوده بالنجاح ، فإذا « بشارلوت » تعود إلى عقلها وقد ذهبت عنها الأمراض والأوجاع تمامًا ، وكان الفضل فى ذلك إلى توفيقه فى الوصول إلى قرارة عقلها الباطن ، وانتزاع جذور المرض والارتفاع به إلى العقل الواعى .

أيام الطفولة

ويقول الطبيب فى شرح حالتها، إنه استطاع بالجلسات المستمرة على مضى السنين الثلاث، أن يستدرج ذكرياتها القديمة عندما كانت أول طفلة ينجبها والداها ، وقد حدث وهى فى سن الرضاع ، وقبل أن تنال كفايتها من ثدي أمها، أن حملت الأم بالأخت الثانية واضطرت أن تفطم « شارلوت »، فرسب فى قرارة نفس الصغيرة أنها هجرت من أعز الناس إليها، وقد تجسم لديها الشعور بالوحدة والعذاب وعدم الانتماء بعد أن كبرت بعض الشيء : وسألت أمها ذات يوم كيف ولدتها ومن أين خرجت من بطنها . . ؟ وتحرجت الأم عن ذكر الحقيقة، شأنها فى ذلك شأن أمهات كثيرات ممن يجهلن الأسلوب التربوى الصحيح فى الإجابة على أسئلة الأطفال ، فادعت لها أنها أخرجتها من فمها . : عندئذ اشتدت العقدة النفسية بالفتاة ، وتأكدت أنها إنسان غير مرغوب فيه ، بدليل أن أمها بصقتها كما تبصق اللقمة المتعفنة . . ونتيجة لذلك أخذت صحتها تتدهور دون مسوغ على الإطلاق ، وأصيبت بالقيء ونوبات المغص، وهى الحالة نفسها التى تصورت أن أمها كانت تعانيها حتى لفظتها خارج بطنها . وقد حدث فى تلك الفترة أمر كان من الممكن أن يخفف من حدة المتاعب النفسية التى حلت بها قبل أن تصل إلى سن الوعى ، وهو أن الأسرة رأت إزاء صحتها المتدهورة أن تأتيها بمربية آسيوية ، فأحبت المربية الطفلة كما لو كانت ابنتها ، ولطيبة قلبها تفانت فى

رعايتها : تغسل لها شعرها الجميل صباح كل يوم ، وتدللها وتلاعبها وتطعمها جميع الوجبات بيدها . وعندما تصحبها إلى النزهة خارج البيت فى الصباح ، تسليها بقصص بلادها وكيف تسطع الشمس فى كبد السماء براقة كل يوم ، وكيف يهطل المطر مدراراً فى الصيف ، وكيف كانت هى وأخواتها يسرن تحت الأمطار الهاطلة ضاحكات سعيدات ، فرسب فى نفس الصغيرة أن الله عنا عنها وأعطاها أمًّا أخرى طيبة بدل التى هجرتها . والظاهر أن الأم اختلفت مع المربية فى بعض الشئون فصممت فجأة على طردها ، واستخدمت بدلها مربية أخرى كانت لسوء الحظ قاسية القلب شريرة ، فتبددت السعادة واختفت من حياة الصغيرة ، وعادت إلى حالات المغص والقىء والمتاعب المختلفة ، ثم أعيدت المربية القديمة ... لكن لا لرعاية « شارلوت » بل للعناية بالأخت الصغرى التى كان مجيئها إلى الحياة هو السبب الحقيقى فى حرمانها من السعادة .. وبعودة المربية الإندونيسية الحبيبة إلى رعاية اختها انقطع أمل الفتاة ، وتأكد لها أكثر من ذى قبل أنها لابد أن تكون مخلوقة شريرة أساءت بوجودها إلى أمها الحبيبة ، فاستحقت العقاب على ذلك بتخلى الجميع وتجهمهم لها . ويؤكد الطبيب أيضًا أن أعراض العقدة ظلت محدودة فى « شارلوت » ، حتى بلغت مرحلة المراهقة التى تتضارب فيها الأحاسيس ويتجسم الخيال وتنشط الانفعالات ، فبدأ الانفجار التدريجى أولا واشتدت بها أمراضها الجسدية عن ذى قبل ، وتسببت لها المغص والقىء المستمر فى تدهور صحى شديد ، وأخذت تستولى عليها وتسيطر على ذهنها فكرة أنها ليست الإبنة الحقيقية لوالديها ،

بل إنهما انتزعاهما من أسرتها الأسيوية الأصلية ونقلاها من الغابة البدائية التى ولدت فى إحدى قراها . ثم أتوا بها إلى هولندة حيث البيئة تختلف تماماً عن البيئة الشرقية التى نقلت منها قسراً . .

وكان هذا التصور هو الترجمة لمشاعر الحب الشديد الذى قام فى يوم من الأيام بينها وبين المربية الإندونيسية العزيزة ، والتى كانت تجد فيه التعويض العاطفى عن هجر أمها الحقيقية لها . . الأم التى بصقتها ثم تخلت عنها وآثرت عليها أختها الصغرى . وبدافع من القلق الجنونى وفقدان مصدر الحب الوحيد فى حياتها ، انساقت مع أوهامها بعيداً عن العقل والحقيقة ، فغيرت ثيابها وبدلت طريقتها فى تصفيف شعرها . وغيرت لكنتها فى الحديث كى يقتنع كل من حولها بأنها من الشرق ولا صلة لها بالبلد الذى تعيش فيه .

اللاشعورية والعقاب

أما الحوادث التى كانت تقع لها باستمرار ، فقد فسرها الطبيب بأنها محاولات يوحى بها إليها العقل الباطن بقصد أن تعاقب نفسها . ولعلها تقضى على حياتها جزاء مجيئها إلى الدنيا غير مرغوب فيها . وما ترتب على ذلك من هجر جميع الأحباب لها وتحول الأصدقاء إلى أعداء لا يعترفون بوجودها ولا يهتمون بما يصيبها . وكان لوضوح هذه الحقائق الخفية أمام عينى « شارلوت » التى اعتبرها الجميع وعلى رأسهم زوجها العزيز مجنونة . فعل السحر فى إيقاظها من عالم الأحلام الذى لاذت به هرباً من الحقيقة . فارتدت إلى عالم الواقع بالتدريج ، واقتنعت

من تلقاء ذاتها بأنها ذهبت ضحية أوهام لاتدرى كيف سيطرت عليها طول هذه السنين . وعندما اقتنع عقلها الواعى بأن الأطفال ليسوا نكبة على الأهل ، رضيت فرحة بأن تصير أمًّا ، وحملت ثلاث مرات وأنجبت صبيين وفتاة أشاعوا الدف والنور فى حياتها الزوجية .

وتتلخص الأخطاء التربوية لأهل شارلوت فى النقط التالية :

١ ــ أنهم فطموها عن ثدى أمها قبل الأوان وبلا تمهيد أو تدرج ، مما نقلها بعنف من حال إلى حال وأوهمها بأنها غير محبوبة .

٢ ــ أن أمها بادعائها أنها أخرجتها من فمها قد لعبت دوراً خطيراً فى تجسيم مشاعر الانتماء فى الطفلة ، وصورت للصغيرة البريئة أنها بُصقت لبشاعتها وعدم الرغبة فيها .

٣ ــ أنهم بطرد المربية الإندونيسية التى كانت تقوم لها بدور الأم المثالية الثانية قد كرروا أخطاءهم وجردوها من مصدر الحب الوحيد الباقى لها ، وعجزوا فى الوقت نفسه عن مدها بمصدر بديل يغمرها بالحنان ويحيطها بالرعاية ، ويخفف وجيعة حزنها على فراق مربيتها الحبيبة .

٤ ــ أنهم بإعادتهم المربية نفسها ــ ولكن لخدمة الأخت الصغرى ــ قد دفعوها دون أن يقصدوا إلى الاعتقاد بأن الأصدقاء تحولوا جميعًا إلى أعداء . . لأنها لابد أن تكون فتاة شريرة تستحق الهجر والوحدة وعدم الانتماء ، وبناءعلى هذا الاقتناع أرادت من غير وعى أن تعاقب نفسها على شرورها ، ومن هنا جاءت الحوادث الخطيرة التى تصاب بها كلما أمسكت بسكين أو نزلت سلمًا أو طافت بأرجاء البيت أو دخلت

المطبخ أو سارت فى الطريق . . ويختم الطبيب عرضه لحالة « شارلوت » مؤكداً أنه ظل يتابع حياتها لمدة سنوات بعد شفائها ، فوجد أنها لم تصب مرة واحدة خلال هذه المدة كلها بمغص أو قىء أو حرق أو اصطدام ، وكانت كلما أثيرت قصة انتمائها إلى الغابة الأسيوية تضحك عالياً وتزعم أنها كانت دعابات غير جدية . . .

* * *

لمسة المرأة العجوز !

* كانت « نورا » هى أقرب إخوتها إلى قلب أبيها ... ومع ذلك فقد كان ذلك الأب هو سبب تعاستها التى وصلت بها إلى ظلمات المرض النفسى والعقلى . .

كيف ؟ ولماذا ... ؟

بطلة هذه القصة سيدة شابة فى الثلاثين من عمرها اسمها « نورا » . .

ولقد عرفها الطبيب لأول مرة حينما جاءه زوجها رجل الأعمال المعروف يرجوه أن يتولاها بعلاجه بعد أن تخلى عنها طبيبها السابق فجأة . وبعد أن قضت فى رعايته النفسية عشرة أعوام متتالية . .

وتبين من سياق الحديث أن « نورا » ظهرت عليها فى الفترة الأخيرة ميول انتحارية . الظاهر أنها كانت السبب فى تخلى طبيبها عنها خوفًا من أن تقتل نفسها وهى لا تزال فى رعايته مما قد يضر بسمعته المهنية .

كما تبين من الحديث أيضًا أن الميول الانتحارية ليست المشكلة الأساسية فى متاعب « نورا » . فقبلها بعشرة أعوام بدأت تقع أسيرة خوف رهيب من أن تتلوث بما اختارت أن تسميه « لمسة المرأة العجوز » .

أما من تكون هذه المرأة العجوز التى تخشى أن تتلوث بلمستها . فقد عجزت « نورا » تمام العجز عن ذكر اسمها أو تحديد شخصيتها . وعاشت أسيرة الاعتقاد بأن « لمسة المرأة العجوز » تطاردها فى كل مكان . وأنها مضطرة إلى الابتعاد عن كل إنسان وكل شىء حتى أهلها وأصدقائها وخدمها . بل ملابسها ومفروشات بيتها . . خيفة أن تكون « العجوز » ذات اللمسة القاتلة قد سبقتها إليهم بميكروباتها الشريرة فتنتقل إليها العدوى من حيث لا تدرى . . .

وكانت نتيجة شذوذ هذه الفكرة المسيطرة على ذهنها أن انهارت العلاقة تمامًا بينها وبين زوجها الذى لم يعد فى استطاعته حتى أن

يصافحها ، وإذا اقتضتها الظروف القاهرة أن تجلس بجواره على أريكة واحدة أو تشاركه فى سريره ، تحرص أولا على أن تفصل بينها وبينه بأكوام من الورق المعقم ضمانًا لوقايتها من التلوث .

ثم تضاعفت المحنة بالميول الانتحارية التى أخذت تظهر عليها فى الشهور الأخيرة ، بعد أن أصابها هوس جديد يتمثل فى خوفها الشديد من السير فى أى شارع أو ميدان . . أو دخول متجر أو مطعم أو مكان عام . . يحمل اسمًا فيه كلمة « رِدْ » أى « أحمر » ، أو يشبه هذه الكلمة فى أسلوب نطقه ، مما كان يضطرها قبل مغادرة البيت إلى دراسة طريقها إلى الوجهة التى تقصدها ، ومراجعة أسماء كافة الحوانيت التى ينتظر أن تمر بها ، على سبيل التأكد من عدم وجود الكلمة التى تثير فى نفسها من الذعر ما يوشك أن يودى بعقلها . . .

وأثارت هذه الحالة العجيبة اهتمام الطبيب النفسى ، فقرر أن يخاطر بتجربة حظه فى علاجها ، ولو إكرامًا لزوجها الذى أبدى من الصبر فى احتمال هوس امرأته ما يندر له مثيل فى هذه الدنيا ، وتكبد تضحيات مالية جسيمة ، منذ بداية زواجه بها إلى تلك اللحظة فى سبيل إنقاذها من الهوس المسيطر على ذهنها . .

وكان الطبيب يتوقع بعد كل ما عرفه عن حالة « نورا » أن يرى امرأة غير عادية فى منظرها العام ، ولكن عندما وقعت عليها عيناه لأول مرة فوجئ بما يفوق جميع توقعاته السابقة ، فقد وجد أمامه جسمًا نسائيًا مكورًا من الصعب تمييز معالمه المختلفة ، بسبب الأورام والالتهابات الشديدة التى تغطى جلده من أعلى الجبهة إلى أسفل القدمين . .

فالوجه منتفخ أحمر كأنه سلخ بعنف وشدة . . والذراعان والساقان والأصابع فى حالة من الاحتقان والتورم تجعل من العسير على صاحبتها أن تحركها بسهولة . . أما القدمان فقد تضاعف حجمهما حتى لم يعد فى الإمكان إدخالهما فى حذاء ؛ مما اضطر المريضة إلى الحضور لزيارة الطبيب بنعل زحاف لا كعب له ولا غطاء . .

وبمناقشة « نورا » فى أسباب هذه التسلخات والالتهابات المروعة ، عرف الطبيب أنها نتيجة للاستحمام المستمر . . فخوفها من التلوث بلمسة المرأة العجوز يدفعها مع كل صباح جديد إلى الحمام لتنظيف جسدها بالصابون والمواد المطهرة ، ولا تكاد تنتهى حتى يتملكها رعب جديد من أن تكون « لمسة المرأة العجوز » قد عادت إليها ، فتبدأ عملية الاستحمام من جديد . . مرة بعد مرة . . حتى تخور قواها فتسقط على الأرض مغشيًّا عليها !

وبرغم هذا الهوس المخيف بالنظافة اشمأزت نفس الطبيب حين رأى قذارة شعرها ، فلقد تكومت على هذا الشعر طبقات من الدهون والقاذورات حولته إلى ما يشبه العجين الأسود . . كذلك كانت ملابسها الداخلية غاية فى القذارة ، فمشدات صدرها وسروالها وقميصها فقدت لطول الاستعمال بياض لونها واستحالت إلى شىء رمادى مقزز . .

وسأل الطبيب مريضته عن أسباب هذا التناقض ، فاعترفت له بكل بساطة أنها لا تغسل رأسها ولا تغير ملابسها الداخلية سوى مرة واحدة فى السنة ، لأنها على حد قولها « تعرف » أن شعرها نظيف ،

ثم إنها تستحم طول النهار ، وفى ذلك ما يكفى للإبقاء على ملابسها الداخلية نظيفة . .

كان واضحاً أن حالتها المرضية معقدة جداً .

وبعد عدة جلسات بات واضحاً لماذا هرب منها طبيبها السابق بعد عشر سنوات متصلة من محاولات العلاج . .

فـ « نورا » لم تكن ترغب فى أن تتكلم عن طفولتها ، مع أن جذور المرض كانت ولا شك تختفى بين طيات هذه الفترة البعيدة ، وكلما حاول الطبيب أن يدفعها إلى الحديث عنها تهز رأسها غاضبة ، وتلزم الصمت بشكل عنيد واضح ، أو تتشاغل عن الكلام بتغطية الأريكة المخصصة لاستلقاء المرضى أثناء الجلسات النفسية بالورق المعقم الذى تحمله دائماً معها وقاية لها من لمسة المرأة العجوز . . .

أب ديكتاتور

غير أن الطبيب عرف كيف يتحايل على عنادها بأساليبه العلمية الجديدة ، فلم يمض عام على بداية علاجها معه حتى أخذت تتكلم عن طفولتها ببساطة وصراحة ، وبذلك فتحت أمامه أبواب عقلها الباطن المغلقة ، ومكنته من أن يصل إلى قرار العقدة التى ذهبت برشدها ، ويطفو بها إلى السطح حيث العقل الواعى القادر على تصفية العقد ورد العقل إلى توازنه الطبيعى . .

وروت « نورا » على توالى الجلسات قصة حياتها من بدايتها :

كانت الابنة الثالثة بين أربعة أبناء لأسرة على مستوى اجتماعى

واقتصادى رفيع ، فالأب رجل أعمال مثر معروف فى جميع الأوساط الراقية التى يتحرك فيها بمبالغته فى التعالى والاعتداد بالكرامة . . ولقد نالت أسرته نصيب الأسد من صلافته هذه . إذ كان يحكم أهل بيته بدكتاتورية لا تقبل المراجعة . . الكلمة دائمًا كلمته . والرغبة دائمًا رغبته . . والويل لمن يناقش حقه فى فرض إرادته . لأنه كما يعتقد فى نفسه أقوى وأعقل وأبعد نظراً من الناس كلهم . وكرامته الشامخة كالجبل ، الأشم لا ترضى له أن ينزل إلى مدارك الاعتذار عن غلطة . أو الرجوع فى رأى أو مجرد مناقشة حكم أو أمر يصدره أو رغبة يبديها . .

والعادة فى أمثال هذا الرجل المتعنت فى تقديره لنفسه محو شخصية كل من حوله ، وهو ما حدث بالضبط فى أسرة « نورا »، فأمها كانت امرأة سلبية لا تجرؤ على الوقوف أمام زوجها ولو فى أبسط الأمور . . تؤمن به إيمانًا راسخًا . وتجيب رغباته حرفيًا . ولا تهتز ولو قليلا لألوان بطشه بأبنائه وسيطرته التامة على حياتهم . كأنهم عرائس خشبية يحرك خيوطها بأصابعه الصلبة . . لكن هذا الدكتاتور الباطش كان يحب « نورا » أكثر مما يحب أبناءه الثلاثة الآخرين . ويؤثرها فى بعض المناسبات بجانب من العطف والحنان . وقد عرفت هى بذكائها كيف تستغل ميل أبيها إليها فى حماية أختها الصغرى — أحب إخوتها إليها وأقرب الباقين إلى قلبها — . . من بطش الأب واستبداده بها . وأولتها من رعايتها وحبها ما لم تولِه لأخيها وأختها الكبرى ، مما جعل العلاقة بين الاثنتين مضرب الأمثال فى الأسرة .

والظاهر أن طغيان شخصية الأب واستبداده بأفراد أسرته أقاما حاجزاً بينه وبين قلب «نورا»، فبالرغم من تحيزه الواضح لها فى ظروف عدة ، لم تكن فى الحقيقة تشعر نحوه بالحب الكافى . . تخافه أكثر مما تطمئن إليه ، ولا تشعر بالهدوء النفسى التام إلا فى غيبته . . غير أنها كانت تعجب به إلى أبعد حدود الإعجاب . . تتصوره سيد الرجال جميعاً وأقواهم وأصلبهم عوداً . الرجل الذى لا يتراجع ولا يعتذر ولا يحنى رأسه لأحد، لأن كرامته الشامخة تأبى عليه أن يهبط من عليائه إلى مستوى الإنسان العادى الذى يجامل غيره ويعترف بخطئه ، ولا يأنف من أن يتعامل مع الناس بالأسلوب المعتاد . .

وفى هذا الإطار النفسى العجيب مرت السنوات السبع الأولى من طفولة « نورا » .

وبدخولها مرحلة الصبا أخذت تظهر عليها مواهب موسيقية طيبة ، فأحضر لها أبوها خيرة المدرسين فى « البيانو »، ولم يمض وقت طويل إلا وقد أخذت تبدى تقدماً مطرداً يبشر بمستقبل عظيم . . وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها وضحت معالم عبقريتها فى البيانو ، ووجدت هى طريقها الصحيح فى الحياة ، فقررت أن تحترف الموسيقى عندما تصل إلى المستوى اللائق بالاحتراف ، وعقدت كبار الآمال على هذه الغاية التى تعرف أنها تحقق لها سعادة العمر كله . .

غير أن الأمور تعقدت فجأة أمام « نورا » : فما إن علم الأب برغبتها فى احتراف الموسيقى حتى ثار ثورة عارمة ، وأعلنها كلمة

لا تقبل المناقشة أنه لن يسمح لابنة له أن تصبح موسيقية ، فهذه مهنة لا تليق مطلقاً بكرامة رجل عظيم مثله . وعليها أن تقتنع من الآن بأن « البيانو » لتسليتها فقط ، وأنها مهما بلغت من العبقرية فى عزفه ، فلن يسمح لها بأن تستغله فى أى مجال آخر . .

الآمال المنهارة

وما بين غمضة عين وانتباهتها وجدت « نورا » جميع آمالها فى الحياة تنهار فجأة ، والسعادة التى تمنى النفس بها تذهب إلى غير رجعة . .

واهتزت أحوالها عموماً بهذه الصدمة . وبان الأثر بفقدانها القدرة على التركيز فى دراستها الموسيقية ، فتخلفت فيها بسرعة ، وهبط مستواها الفنى بدرجة كبيرة . .

واشتدت المتاعب بـ « نورا » عندما أتاها أبوها ذات يوم بشاب غنى من أصدقاء الأسرة ، وكانت تعرف ما جبل عليه هذا الشاب من ثقل الظل وضعف الشخصية ، فغضبت لرغبة والدها فى فرضه عليها ، وأعلنت حقها فى أن تختار شريك الحياة الذى يرضاه قلبها ، مثلما تفعل فتيات جيلها فى العالم المتقدم بأجمعه .

لكن الأب الذى لم يعترف فى يوم من الأيام بوجود « لا » فى قاموس التعامل مع أفراد أسرته ، قسا غاية القسوة فى زجره لابنته العاصية ، وأفهمها بوضوح أنه صاحب الحق الأول والأخير فى تقرير مصيرها ، وله هو دون غيره سلطة اختيار الرجل الذى يليق بها أن تتزوجه ، وما عليها سوى الطاعة والرضا . .

تضاعف عجزها عن التركيز ، كما هجرها النوم حتى كانت تقضى معظم الليل تتقلب فى سريرها وهى فى حالة من التوتر العصبى العنيف . : وقلت شهوتها للطعام فلم تعد تستطيع أن تصيب منه ولو بعض ما يكفى للحفاظ على نشاطها وحيويتها ، فانتابها الضعف ، وهزل جسدها ، واختفت دماء الشباب من وجهها ، وحلت محلها صفرة تنبئ بصراحة عن مدى ما تعانيه من تدهور فى صحتها .

وعندما ساءت حالتها ، طلبت من أهلها أن يسمحوا لها باصطحاب أختها الصغرى — أحب أخوتها وأقربهم إلى قلبها . . إلى أحد المصايف الحلية ، لتقضى وإياها هناك عطلة هادئة ترد لها ما فقدته من عافيتها . :

زواج بالإكراه

ولم يعارض الأب فى هذه العطلة ، فسافرت مع أختها إلى المصيف المنشود ، وهناك قابلت شابا أحمر الشعر نافذ النظرات ، لم يسبق لها أن رأته ، بل لم يقدر لها بعد ذلك أن تراه ثانية طيلة حياتها . فسلمت له نفسها برغم أنه لم يكن يتميز على أى إنسان عادى بشىء على الإطلاق ، ولم تشعر نحوه خلال الأيام الثلاثة التى قضاها نزيلا فى الفندق نفسه بحب يبرر تضحيتها الجسيمة . :

وبمجرد أن فعلت ذلك قطعت عطلتها وعادت بأختها إلى بيت الأسرة . : :

والعجيب أنها لم تتردد قط فى مصارحة أمها بغلطتها ، فبمجرد عودتها إلى البيت ألقت برأسها على صدر أمها ، وروت لها وهى تبكى بحرقة

ما حدث بالتفصيل ، وألحت فى ضرورة إعفائها من الزواج بالشاب الغنى باعتبار أنها فرطت فى نفسها مع غيره ، والواجب الأخلاقى يفرض عليها الابتعاد عن حياته . .

ونقلت الأم القصة إلى زوجها ، فإذا بالطاغية لا يبدى اهتماماً لسقطة ابنته ، ويمضى فى عناده متمسكاً بضرورة اقترانها بالشاب الذى اختاره لها ، متوعداً بالقطيعة والحرمان من الميراث إذا لم ترضخ لإرادته وتطع أوامره .

وعندما ضاق الخناق بالفتاة إلى هذه الدرجة ، سلمت أمرها لله . وأعلنت رضاها عن الزواج بالشاب الذى كانت دائماً تنفر منه وتحتقر ضعفه .

وتم الزواج بالفعل ، وتركت « نورا » بيت أبيها إلى بيت زوجها . .

وفى خلال شهر العسل بدأت متاعبها النفسية تسفر عن وجهها . فأخذت تعانى من الاكتئابات النفسية التى تسبب لها شعوراً بالقلق الموجع . .

وإزاء تدهور الحالة النفسية لـ « نورا » اضطر زوجها إلى عرضها على طبيب نفسانى كبير . استطاع فى الأيام الأولى أن يكسب ثقتها ، فاعترفت له بما فعلته مع الشاب المجهول خلال عطلتها ، وأبدت غاية الندم على سقطتها التى تتعارض تماماً مع تدينها الأصيل وإيمانها بالعفة والطهارة . .

وأراد الطبيب أن يحررها من عقدة الشعور بالذنب ، فنصحها بالاعتراف لزوجها . .

وعملت « نورا » بنصيحة طبيبها ، وروت لزوجها قصة الغلطة التى

ارتكبتها ، فإذا بها تفاجأ بأنه كان يعرف الموضوع من بدايته ، ولا يرى فيما فعلت ما يدعو للمؤاخذة . .

وكان المفروض بعد ذلك أن تخف وطأة الضغوط النفسية التى تعذب حياة « نورا » ، غير أن الظروف السيئة توالت وكأنها قد تكاتفت على تحطيمها . . فالأب الغنى القوى الجبار أصيب بصدمة مالية عنيفة أطاحت بتجارته وأورثته الإفلاس التام ، مما اضطره إلى إذلال نفسه بالاقتراض من زوج ابنته واستعطافه أن يعفيه من السداد إلى أن تتحسن أحواله . .

وفى خضم هذه الأزمة المالية التى أحالت الدكتاتور إلى ما يشبه المتسول ، وقعت الأخت الصغرى فى حب فنان رشيق وسيم، ولكنه مغمور وفقير ، فإذا بالأب الذى سبق له أن أذاق « نورا » الأمرين لتمسكها بحقها فى أن تتزوج بمن تحب ، يحنى رأسه أمام رغبة ابنته ، ويتركها تخطط لحياتها بما يرضى رغبات قلبها ، مشغولا بمتاعبه المالية عن ممارسة سلطانه القديم . .

لمسة العجوز

وحدث فى تلك الآونة أيضاً أن كانت « نورا » تعانى أزمة فى الخدم ، فأتاها زوجها بعجوز حمراء الشعر نافذة النظرات لتساعدها فى الأعمال المنزلية ، فشعرت « نورا » بنفور شديد منها ، وأرادت أن تسرحها فور مجيئها ، غير أن زوجها تمسك بضرورة بقائها فى البيت إلى حين العثور على غيرها . .

ولم تقض العجوز ذات الشعر الأحمر فى خدمة الأسرة سوى ثلاثة أسابيع فقط . .

لكن هذه المدة القصيرة كانت كافية لإحداث الدمار النهائى . . فمنذ خروجها من البيت أصيبت « نورا » بهوس الخوف القاتل من التلوث بلمسة المرأة العجوز ، وتطور بها هذا الهوس إلى الدرجة التى وصفناها فى بداية القصة : فأصبحت تقضى يومها بكامله فى الحمام . . تغسل جسدها المرة بعد الأخرى . . وتظل تعيد هذه العملية إلى أن يغلبها الإرهاق فتسقط مغشيًّا عليها . . كما تسبب الغسل المستمر والتطهير الدائم فى احتقان جلدها وتسلخه فتورمت ذراعاها وساقاها ، وانتفخ وجهها وجسدها وتقرحت عيناها . . مضافاً إلى ذلك الورق المعقم الذى حرصت على أن تغطى به كل شىء يمكن أن يلمسها ، وتكومه على صورة حاجز بينها وبين زوجها إذا جمعهما سرير واحد ، وهو أمر نادر الحدوث . .

أما ميولها الانتحارية فقد ظهرت عقب الهوس الذى أصابها ، وجعلها تخاف السير فى أى شارع أو ميدان أو دخول حانوت أو متجر يحمل كلمة « رِدْ » أى « أحمر » أو يشبهها فى طريقة النطق ، الأمر الذى أدى بها إلى عدم الخروج من البيت لأية مهمة قبل أن تدرس الطريق إلى وجهتها ، وتتأكد من خلوه تماماً من الكلمة المرعبة . .

ومثلما حدث فى تصرفاتها الماضية ، لم تستطع « نورا » أن تفسر السبب فى رعبها من « رِدْ » ، ولكن الضغط الناتج عن هذه الكلمة بلغ فى نفسها أقصاه ، مما دفعها إلى التفكير فى الانتحار تخلصاً من العذاب الدائم الذى تعيش فيه . .

معنى القصة

ويقول الطبيب النفسى الذى تولى علاجها إجابة لرجاء زوجها : إن كل إنسان فى هذه الدنيا يعانى بشكل أو آخر من تسلط فكرة معينة توحى إليه بتصرفات يقوم بها بطريقة لا شعورية ، ويكررها المرة تلو المرة دون أن يستطيع تفسير دوافعه إلى ذلك . . فمن الناس مثلا من يحرص على تنظيف منفضة السجاير بعد كل سيجارة تطفأ فيها . أو يغسل يديه بعد مصافحته لأى إنسان . . . أو ينظر تحت السرير قبل أن ينام كل ليلة . . أو يلمس بيده كل عمود للنور فى أثناء سيره فى الشارع . . وكل الذى يعرفه الشخص من تكراره مثل هذه الأفعال التلقائية ، أنه يأتيها دون وعى ، ولا يستطيع الكف عنها بدافع من شعور مجهول لا يدرى كنهه . .

ومثل هذه التصرفات التى تستهلك من صاحبها أو صاحبتها وقتاً وجهداً وطاقة كان من الممكن الاستفادة بها فى جهود أخرى أكثر فائدة لحياته ، غير أن العلم يؤكد أن هذه التصرفات لون من الدفاع عن النفس ضد رغبة تكمن بين طيات العقل الباطن ، ولو أفصحت هذه الرغبة عن نفسها بصراحة لتسببت لصاحبها فى أضرار جسيمة خطيرة ، لذلك نجدها تتخفى وراء تصرفات تافهة عديمة المعنى فى الظاهر وليس فى ممارستها ضررما . .

ولكى تنقطع هذه التصرفات ينبغى على المحلل النفسى أن يتعمق فى حياة المريض — خصوصاً فى فترة الطفولة ذات القابلية الهائلة للتأثر بما

يجرى حولها من أحداث – لكى يصل إلى جذور المتاعب الخفية التى تسللت إلى العقل الباطن واختبأت بين طياته: نتيجة لذكريات قديمة ارتبطت بأحداث الماضى كما ارتبطت بأحـــداث الحاضر ، ونسجت من هذا الارتباط عقداً أعلنت عن وجودها بتصرفات شاذة كثيراً ما تؤدى إلى الجنون التام، إذا لم تجد من يعالجها بالأسلوب العلمى الصحيح . .

وهذه الحقيقة تنطبق على حالة « نورا » كل الانطباق، فقد نشأت فى ظل أب جبار . يحرص دائماً على أن يظهر أمام الجميع بصورة الإله الذى لا يلين ولا يعتذر ولا يخطىء ؛ أب يؤمن بأنه صاحب السلطان الوحيد فى تصريف أمور أسرته ، وليس لأحد من أفرادها الحق فى اختيار طريقه أو ممارسة رغباته المشروعة ، أو بناء شخصيته فى ظل ما وهبه الله من إرادة وميول . .

ولقد كان من ألوان استبداده الأعمى أن حرم ابنته الحساسة الفنانة من إعداد نفسها لمستقبل موسيقى ، وبذلك أنزل بها الضربة النفسية الأولى ، ثم جاءت الضربة الثانية حين فرض عليها زوجاً كانت دائماً تحتقره وتنفر منه . . ولما دفعتها روح المقاومة إلى الإلقاء بنفسها فى أحضان شاب غريب لم يسبق لها أن رأته . ولم يقدر لها بعد فعلتها أن تراه ثانية . لم تثر كرامته للزلة فى حد ذاتها إنما ثار لمحاولة ابنته التهرب من تنفيذ رغباته . . وبذلك كشف عن حقيقته فجأة أمام ابنته ، وبدد جانباً لا يستهان به من هالة العظمة والوقار التى كان يحرص على إحاطة نفسه بها أمام جميع أفراد أسرته، وأثبت بتصرفاته أن قضية العرض لا تهمه فى الواقع ، لكن الذى يهمه هو غروره الشخصى .

وجاء ذلك بمثابة الصدمة النفسية الثانية لـ « نورا » .

أما الصدمة الثالثة المدمرة فقد ترتبت على انهيار مكانته الاقتصادية وما تبعها من ضيعة ماله وإفلاسه . والأقسى من ذلك أن وجدته ابنته التى كانت لا تزال إلى هذه اللحظة تراه فى صورة الرجل الأبى المتعالى ، يتدنى بنفسه إلى درجة الاقتراض من زوجها ، وينزل كرامته أمامها وأمام زوجها بعجزه عن دفع ديونه واستعطافه أن يمهله إلى ميسرة . .

فقد أطاحت هذه الأحداث المتتالية بكل ما كانت « نورا » تبنى عليه حياتها وأحاسيسها وأفكارها ، وتركتها أمام حقائق تتناقض تماماً مع كافة ما عاشت خلال طفولتها وصباها تتصوره لنفسها وأهلها . . . فالأب المتكبر الأبى الجبار تحول إلى متسول حقير . . والرجل المتعنت فى تطبيق مبادئ الشرف والأخلاق لم تتحرك شعرة فى رأسه عندما أهدرت ابنته شرفها مع عابر سبيل حقير . . وعميد الأسرة المتسلط ، صاحب الحول والقوة الذى منعها من أن تتزوج برجل من اختيارها ، وفرض عليها غنياً وجيهاً لا تحبه ولا تحترمه . . نفس هذا الرجل عندما شغفت ابنته الصغرى بفنان مغامر فقير تركها تسير بحياتها وفق رغباتها ، ولم يبد أدنى معارضة ، مشغولا عن مبادئه الأولى بتملق صهره الثرى ومحاولاته الذليلة للاقتراض منه . .

ويقول الطبيب النفسى أيضاً إن فجيعة « نورا » فى أبيها كانت الطعنة الكبرى المسمومة لتوازنها النفسى ، وقد اختلطت جذور هذه الطعنة بوجيعة السقطة التى ارتكبتها بدافع من الرغبة فى التخلص من الزوج المفروض عليها ، ويعارضها تماماً مع روح التدين الشديد التى شبت عليها

وتمسكت بها طول حياتها ، فظهرت نتيجة هذا الخليط فى صورة الأفكار المتسلطة ، التى تسببت أولا فى حرمانها من القدرة على التركيز ، ثم دفعت بها بعد ذلك إلى الاستحمام المستمر ، كتعبير عن رغبتها الدفينة فى أن تتطهر من دنس الغلطة الأخلاقية البشعة التى ارتكبتها فى خلال عطلتها الصيفية بالجبل .

ثم ازدادت العقد تشابكاً والهوس عنفاً بالخادم العجوز التى أثارت بشعرها الأحمر ونظراتها النافذة ذكريات المغامرة الغرامية المشئومة ، وركزت العقد والمتاعب كلها فى هوس الخوف من التلوث بلمسة المرأة العجوز ، والرعب من أى اسم يحمل كلمة « رِدْ » أى أحمر أو يشبهها فى النطق ، وهى الكلمة التى ظهر من التحليل النفسى أنها وردت فى اسم الشاب كما أنها تقترن بلون شعره .

وبتوفيق العالم النفسى فى استخراج عقد « نورا » من بين طيات العقل الباطن ، والارتفاع بها إلى سطح العقل الواعى ، شفيت المريضة من كافة متاعبها ، ولم تعد تخاف من لمسة المرأة العجوز أو من كلمة أحمر .

غير أن زوجها كان قد فرغ صبره نهائياً ، فلجأ إلى القضاء يطلب الطلاق ، وما إن حكم له به حتى تزوج شابة أخرى سليمة العقل صافية النفس ، مما دفع بنورا برغم شفائها إلى الاعتكاف بأحزانها بعيداً عن الناس ، وقضاء ما تبقى لها من العمر وحيدة حزينة كسيرة القلب . .

ويتضح من هذا التحليل أن أخطاء الأسرة نحو « نورا » تتلخص فيما يلى :

• أن والدها منعها من ممارسة هوايتها الموسيقية دون وجه حق .

* وأنه حرمها حقها فى اختيار الزوج المناسب ، وفرض عليها رجلا كانت تحتقره وتنفر منه .

* أنه لم يبد هو ولا زوجها بعد ذلك اهتماماً بغلطتها مع الشاب الذى قابلته فى عطلتها ، وثبت لها من ذلك أن الاثنين يدعيان الدين والتمسك بالشرف على غير أساس . .

* أن الأب المتعالى الذى فرض على ابنته أن تراه دائماً فى صورة الجبار القوى ، لم يتورع — حين أصابته الكارثة المالية — عن أن يمد يده إلى صهره كالمتسولين .

«كارين» تسعى إلى الشقاء!

* كيف تستطيع الطفولة أن تحطم كيان الإنسان وتهبط به إلى عالم التعاسة والشقاء . . . إن قصة «كارين» قصة الطفولة التعسة التي ينبغي أن يقرأها الآباء والأمهات ليتعلموا منها بعض الدروس . . .

عندما لجأت « كارين » إلى الطبيب النفسى لأول مرة فى حياتها ، لم تكن تعرف على وجه التحديد نوع المتاعب التى تعانيها وتشقى حياتها .

فلقد بدت هذه المتاعب متشعبة متشابكة . ومع ذلك لم تستطع أن تجد بينها صلة واضحة يمكن أن تعتبرها المرجع الرئيسى للمحن المختلفة التى تأبى إلا أن تلاحقها فى كل خطوة تخطوها ، سواء أكان ذلك فى المجال العاطفى أم المحيط المهنى . .

كانت « كارين » فى ذلك الوقت قد بلغت الثامنة والعشرين من من عمرها . . غير متزوجة ، وعلى درجة علمية عالية قلما تتوافر لمثيلاتها من الفتيات الأمريكيات . . وبفضل هذا المؤهل العلمى الممتاز تأتى لها أن تشغل وظيفة مرموقة ذات طابع قانونى بالإدارة العامة لاتحاد عمال صناعة النسيج ، كما استطاعت بجهودها وذكائها أن تغنى الاتحاد عن مستشار قانونى قد يكلفه مبالغ طائلة ، وأن تحرز لنفسها شهرة فى الأوساط العمالية المختلفة . .فالمذكرات التى كانت تكتبها للمحاكم فى حالات التقاضى أثارت غاية الإعجاب فى الاتحادات الأخرى ، مما كان يدفع بالمشرفين عليها إلى دعوتها لمحاضرتهم فى النقط القانونية التى يمكن الاستفادة بها فى المشاكل العمالية . .

ومن حيث الشكل كانت « كارين » تعتبر ولا شك جميلة ، فقوامها رشيق متناسق . . وشعرها غزير لامع . . ونظرات عينيها الخضراوين الواسعتين حانية توحى بالحنان والعاطفة . . وتقاطيع وجهها — وإن لم تكن صغيرة دقيقة — غنية بالجاذبية النسائية . . والأمر الوحيد الذى يمكن أن يعتبر نشازاً فى جمالها هذا هو الاصفرار الملحوظ الذى يشوب بشرة

وجهها البيضاء الناعمة ، هذه الصفرة التى توحى ببعض الاعتلال الصحى: كما كانت تمشى فى عرج ملحوظ . . تسحب ساقها اليمنى كأن تلك الساق مصابة ببعض الشلل . .

ولقد علم الطبيب النفسى من سياق حديثها أنها لم تلجأ إليه من أجل صفرة وجهها ولا شلل ساقها ، إنما جاءت ترجو معونته على التخلص من الأحلام المخيفة التى تطاردها فى نومها كل ليلة ، وتحرمها حقها المشروع من الراحة الضرورية لامرأة مثلها تشغل وظيفة ذات مسئولية كما شكت له التعاسة النفسية الشديدة التى تستولى عليها لشعورها بأن قطار الحياة أوشك أن يفوتها . . أو هو فاتها بالفعل دون أن تستمتع بلحظة واحدة من السعادة ، مع أنها بصفاتها وخلالها أحق من غيرها بأن تعيش فى هناء وراحة . .

وسألها الطبيب النفسى عن الأحلام التى تحرمها نعمة النوم ، فاعترفت بأنه حلم واحد لا يكاد يتغير فى صلبه وتفاصيله ، ولقد بدأ هذا الحلم يطاردها وهى لا تزال صبية صغيرة ، فكانت كلما استسلمت للنوم بالليل تحلم بأن والدها ينهال على فتاة صغيرة بالضرب المبرح حتى ليكاد يقتلها . . أما من تكون تلك الصغيرة فهى لا تعرف ، لأن وجهها ظل فى جميع الأحلام مطموساً غير واضح المعالم . . وبقى هذا الحلم مصدر عذابها الدائم . إلى أن أخذت تكبر واقتربت من مرحلة المراهقة . . عندئذ تغير الكابوس ، ولم يعد الأب يضرب طفلة غريبة ، إنما كانت تراه فى الحلم يضربها هى ، ويظل يضرب ويضرب إلى أن تستيقظ صارخة مولولة ، وتقضى بقية الليل ترتجف فى فراشها . . وعندما يشرق الصباح تجد أن

ساقها اليمنى قد توقفت عن الحركة أو كادت ، وتضطر فى مشيها إلى أن تجرها بهذه الطريقة التى تسىء إلى رشاقتها وتنقص من جمالها . .

ويحدث أحياناً أن يختفى الحلم المخيف ، وتمضى شهور دون أن تراه فى نومها فتكتسى بشرتها بحمرة الصحة والعافية ، وتسترد ساقها اليمنى قدرتها الكاملة على التحرك البرىء من أى عيب . . ثم يعود الحلم إلى مطاردتها ، فتعود معه متاعبها الصحية ويصيبها العرج مرة أخرى . .

ثم إن عملها باتحاد عمال صناعة النسيج ، برغم ما فيه من أسباب الترضية النفسية لأية امرأة متعلمة طموح مثلها ، يكاد يقضى على حاضرها ومستقبلها نظراً لأنها كثيراً ما تضطر أن تعمل فى مكتبها لمدة ست عشرة ساعة متواصلة فى اليوم الواحد ، بسبب استغلال رؤسائها وزملائها لها واعتمادهم عليها فى أداء واجباتهم . ومع ضخامة عملها فمرتبها ظل ضئيلا . وأحياناً يقطعونه عنها شهوراً متتالية بحجة الضائقة المالية التى يعانى الاتحاد منها ، مع أن آثار هذه الضائقة لا تشمل أحداً من الموظفين الآخرين . . فالجميع حتى صغار مرءوسيها ينالون مرتبات أكبر من مرتبها ، ويتقاضون هذه المرتبات بانتظام ، سواء كان الاتحاد يعانى ضائقة مالية أم لا يعانيها ، غير العلاوات السخية التى لم تشملها مرة منذ بداية عملها إلى ذلك الحين . .

وتعترف « كارين » للطبيب النفسى بأنها ولا شك امرأة منحوسة كتب لها الله العذاب والشقاء إلى آخر لحظة فى عمرها . . فحياتها العاطفية تسير على نفس الوتيرة التعسة . . رجال يخدعونها بمظهرهم البرىء ، فتتعلق بالواحد منهم ، وتخلص له الحب والوفاء ، وبينما هى فى غمرة أحلامها السعيدة بعش الزوجية الذى يوشك أن يجمع بينهما ، تفاجأ

بهجر حبيبها لها ، وذهابه عنها إلى غير رجعة . . ولقد تكررت هذه المأساة مرات ومرات حتى أصبحت تخاف الرجال وتهرب من صحبتهم خوفاً من أن يعذبوها ثانية مثلما عذبها إخوان لهم من قبل . .

وها هى ذى وقد بلغت الثامنة والعشرين من عمرها تجد أنها قضت حياتها هباء ، فلا راحة فى النوم ولا تقدير فى العمل ، ولا صداقة تبدد وحشة الوحدة التى تعانيها ، فحتى النساء اللاتى يناسبنها فى السن والمزاج والعقلية ، يرحبن بصداقتها فى البداية ثم لا يلبثن أن يهربن منها بعد قليل ، برغم ما تبذله من جهود مضنية فى الاحتفاظ بمودتهن . .

كانت هذه مشكلة « كارين » التى لجأت إلى الطبيب النفسى من أجلها ، راجية أن تجد لديه العلاج بعد أن فشل الأطباء الجسديون فى معونتها . .

وتبين الطبيب من أول لحظة أن الفتاة تعانى من محنة نفسية معقدة ، تتطلب منه أن يعود بمريضته إلى الوراء ليستخرج من بين طيات عقلها الباطن أبعد الذكريات التى أثرت على حياتها . . وأبدت « كارين » فى أول الأمر مقاومة شديدة فى العودة بذاكرتها إلى الوراء ، وحاولت مراراً وتكراراً أن تهرب من الحديث عن الماضى بحجة أن طفولتها كانت تعيسة ، وليس من المصلحة إحياء آلامها العديدة . . لكن لسانها لم يلبث أن أخذ فى الانطلاق تدريجياً ، فعلم الطبيب أنها الابنة الكبرى بين الثلاثة الذين رزق بهم والداها . . وكان الثانى صبيًّا أصغر منها بثلاثة أعوام ، والثالثة أختاً ولدت بعد أخيها بسبع سنوات كاملة . .

ومما استوقف اهتمام الطبيب من البداية أن وجد « كارين » تذكر

كل ما يتصل بشقيقها ، أما أختها الصغرى فقد انمحى من ذهنها كل ما يتصل بالسنوات الأولى من عمرها ولم يبق منه شيء على الإطلاق . . وبرغم الجهد المضنى الذى بذله فى دفعها على تذكر أيام طفولتها مع أختها الصغرى ، ذهب الجهد هباء ، وظلت هذه المرحلة من حياتها محوة من ذهنها تماماً . .

ولقد وجد الطبيب فى هذه الظاهرة مفتاح السر لمغاليق نفسها . فليس من المعقول أن تنسى كل ما يتصل بطفولة أختها التى ولدت بعدها بعشرة أعوام كاملة ، إلا إذا كان لهذه الأخت صلة مباشرة بالانهيار النفسى الذى أصاب « كارين » فى شبابها . .

مفتاح السر

وبفضل هذا المفتاح استطاع الطبيب أن يدفعها إلى الكلام ، فروت له قصة حياتها فى بيت أبيها الترزى الكبير المعروف ، الذى كان منذ بداية حياته يصنع الثياب للأثرياء ويكسب من المال ما يفيض عن حاجة أسرته الصغيرة . . ثم جاءت الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت الولايات المتحدة فى الثلاثينات ، وانعكست آثارها بشكل واضح على الصغار والكبار على السواء ، فكسد حال الأب بعد انتعاش ، وتدهورت بشدة موارده المالية . . .

وكانت « كارين » فى تلك الأيام طفلة غير جذابة على الإطلاق : سمينة الجسم أكثر مما يلائم سنها . . باهتة الشعر مشعثته . . تقاطيعها تبدو وكأنها متنافرة غير متناسقة . . ولعل شكلها هذا أثر فى تقدير

والديها لها . . أو هذا ما صورته لها طفولتها . . فأهملوا الاهتمام بها بدليل الثياب القبيحة التى كانت دائماً ترتديها ، ولم تحاول أمها فى يوم من الأيام أن تصلح من شأنها . .

وقدمت « كارين » لطبيبها فى معرض أحاديثها الطويلة صورة حقيقية لحياتها أيام طفولتها . . فالأزمة الاقتصادية التى حلت بالأسرة بعد رخاء أثرت على أعصاب أمها ، وجعلتها دائمة الثورة والتذمر . . فمسئولية تدبير شئون الأسرة بالمال الضئيل الذى يأتيهم مع الجهد المضنى الذى تبذله فى أداء واجباتها المنزلية وخدمة زوجها وطفليها ، أطلقت لسان الأم بالشكوى المستمرة ، ورسمت على وجهها طابع الضيق والغضب ، ولم تجد متنفساً لمتاعبها سوى ابنتها التى لم تزل فى عمر الزهور ، فصبت عليها جام متاعبها الكثيرة ، فكانت تتهمها دائماً بالكسل والخمول ولا تكف عن تأنيبها على ما تتصوره عدم تقدير منها للإرهاق الذى تعانيه من أجلهم ، والتضحيات البليغة التى تقدمها فى سبيل راحتهم . . وكلما حاولت « كارين » أن تثبت حسن نواياها وإخلاصها ، تزداد ضراوة الأم عليها ، مؤكدة خبثها وشرها وتفاهتها ، ومع أنها كانت تهماً ظالمة ، غير أن الفتاة اهتزت لها ، وأصابها قلق نفسى شديد خوفاً من أن تكون حقيقة عاقة شريرة كما تؤكد أمها . .

وتلفتت الفتاة الصغيرة حولها تبحث عن مصدر للحب يؤنس حياتها بعد أن فقدت الأمل فى التمتع بعطف أمها . . فلم تجد أمامها سوى والدها الرجل الهادئ الصامت . . الجامد المتعالى . . الطويل القوى الوسيم الذى

عرف على عكس أمها — كيف يحتفظ بوقاره وأناقته برغم ظروف الفقر التى تمسك بخناقهم . .

وتركزت عواطف « كارين » فى شخص هذا الأب . وأصبح بمثابة الكعبة التى تتوجه إليها بجميع ما تملكه من مشاعر وأحاسيس . .

وبرغم أنه لم يكن يبدى اهتماماً ظاهراً بها . أو يحاول من جانبه أن يخفف من طغيان أمها فى معاملتها ، غير أن تعطشها الشديد إلى الحب دفعها إلى أن توهم نفسها بأنها ابنته المفضلة . وأنه يخفى وراء تكشيرته الظاهرة الباردة الجامدة شغفاً شديداً بها يحرص على كتمان أمره عنها مراعاة لمشاعر أمها . .

كانت تريد بهذا التصور أن تخفف محنة الحرمان العاطفى الذى تعيش فيه . .

ولقد تركت لتصوراتها العنان . حتى أصبحت واثقة بأنها حبيبته الوحيدة فى الحياة وليس له داخل البيت أو خارجه من حبيبة سواها . .

وعاشت تتغذى بهذا الخيال الذى صنعته لنفسها . إلى أن ظهرت بوادر الحمل على أمها وأصبح معروفاً للجميع أنها تنتظر مولودها الثالث . .

وطوال مدة الحمل لم تجد « كارين » فى حمل أمها ما يدعو إلى القلق والانزعاج ، لأنها كانت واثقة فيما بينها وبين نفسها بأن أحداً فى هذه الدنيا لا يستطيع أن يشاركها فى قلب أبيها . . ثم إن الطفل القادم . . أيًّا كان نوعه . . لا بد أن يقاسى الأمرين من سوء أخلاق أمها . ويحتاج لحبها هى على سبيل التعويض ، فتعطيه ما حرمته من رعاية وعناية وحنان .

وظلت على هذا الظن حتى حان موعد الوضع ، وانتقلت الأم إلى المستشفى ، ولم يبق فى البيت من النساء سواها . .

وزينت لها طفولتها الغريرة أن تنتهز الفرصة وتحل محل أمها فى كل شىء ، حتى ما يختص بأدق شئون أبيها : فكانت تستقيظ كل يوم مع الفجر ، لتكنس البيت وتعد الطعام قبل موعد المدرسة وفى المساء تسهر على كى الملابس ، ورتق ما تمزق منها . .

وبرغم الجهد المضنى الذى تقوم به . كانت هذه الفترة أسعد أيام حياتها . فلقد استطاعت أن تقنع نفسها بأنها المرأة الوحيدة فى حياة والدها ، وأنها بوجودها معه قد عرفت كيف تنسيه أمها !

وذات ليلة قررت بسذاجتها أن تكمل الصورة تماماً . فارتدت أجمل قميص للنوم تملكه ، وأسرعت قبل عودة والدها إلى غرفة نومه ، وتمددت فى السرير المزدوج مكان أمها ، وكشفت عن ساقها اليمنى فى شكل إغراء اقتبسته من أحد أفلام السينما ، ثم تظاهرت بالنوم فى انتظار عودة أبيها .

وعاد الأب متعباً من الخارج ، وبعد أن ازدرد نصيبه من الطعام ، غير ثيابه واتجه إلى فراشه ، لكنه لم يلبث أن رأى ابنته ، فتوقف فى مكانه لحظة ، وبعدها مد يده يغطى ساقها العارية وانسحب إلى غرفة المعيشة ، وقضى ليلته نائماً على الأريكة . .

ولم تعد « كارين » إلى هذه الفعلة مرة أخرى ، فقد ردها تصرف والدها إلى الحقيقة المرة التى لم تشأ قبل ذلك أن تواجهها أو تفكر فيها . . عرفت أنها ليست زوجة هذا الرجل بل ابنته فقط ، ولقد ارتكبت

بحماقتها إثماً كبيراً يغضب الله ويستحق عقابه القاسى . .

وشاءت الظروف بعد ذلك أن تزيد من متاعب « كارين » النفسية . فبعودة الأم من المستشفى تحمل طفلتها الجديدة ، رأت الجميع يولون هذه الدخيلة التافهة كل اهتماماتهم . يعنون بها . . ويحنون عليها . . ويحرصون على راحتها وسلامة صحتها . حتى الأب الصامت الجامد المتعالى ، لم يكن يتورع عن الابتسام حين ينظر إليها وهى ترقد كالسردينة فى سريرها الصغير . . وبرغم الضنك المالى الذى يعيشون فيه ، لم يكن يتردد فى تدبير المال الضرورى لشراء الأغذية والملابس الضرورية للطفلة الجديدة . .

واعتبرت « كارين » أن هذا العمل أبشع خيانة يرتكبها أبوها فى حقها . . .

وتجسمت لها بشاعة هذه الخيانة حين شكتها أمها لأبيها ذات يوم بسبب تمردها على معاونتها فى أداء الخدمات المنزلية ، فلم يكن من الأب الذى عاشت عمرها تتصور نفسها أحب أهل البيت إليه إلا أن قام ولطمها بعنف على وجهها . مع أنه لم يسبق له مطلقاً أن لجأ فى زجرها أو زجر أخيها العفريت الصغير إلى التأديب البدنى ولو فى أبسط صورة . . .

كانت هذه الحادثة فى حياة الفتاة بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير . فقد لجأت بعدها إلى المغالاة فى العناد والتمرد ، وعندما حل العيد ، وصنع لها أبوها بنفسه ثوباً جديداً رفضت أن ترتديه ، وآثرت أن تظل بملابسها القديمة العتيقة على أن تقبل جميلا من الإنسان الذى خان عهدها وأهدر كرامتها وأذلها . .

ومع أنها ظلت طوال عمرها مثلا للتفوق الدراسى ، وبعد انتهائها من دراستها الثانوية والتحاقها بالجامعة ونجاحها بامتياز فى السنة الأولى طلب منها أبوها أن تبحث عن عمل تعيش من دخله ، لأنه يرغب فى أن يدخر نقوده لتعليم ابنه الصبى بالجامعة ، مع أن هذا الابن كان دائماً بليداً لا يليق ولا يصلح للشهادات الدراسية العالية . .

وفى اليوم نفسه الذى علمت فيه من أبيها بهذا الخبر حملت حوائجها ، وخرجت من البيت إلى غير رجعة . . والتحقت بعمل مع استمرارها فى الدراسة ، حتى أمكن لها أن تحقق حلمها الأكبر وهو الحصول على شهادة جامعية تكسبها هيبة اجتماعية ، وتوفر لها فرص الاشتغال بالمهن المحترمة وتثبت للعالم أنها هى التى تصلح للدراسة فى الجامعات لا أخوها . .

ومع أنها حققت لنفسها ما تبتغيه ، غير أن الأحلام المخيفة كادت تهلك صحتها ، واستغلال الزملاء لها أطاح بزاحتها وهنائها ، ثم كان إعراض النساء عن صداقتها ، وهرب الرجال من الزواج بها حكماً عليها بالوحدة والعذاب اللذين أوشكا على الإطاحة برشدها .

الطبيب يقول

ويقول الطبيب النفسى الذى استغرق علاج « كارين » منه ستمائة ساعة ، وهى مدة بالغة الطول بسبب تشابك العقد التى أصابتها : إنه كثيراً ما يحدث للطفل الصغير عقب مولد أخ له ، أن يصاب بسلسلة من الأحلام المفزعة التى يرى فيها والده يضرب طفلا آخر . . ومعنى ذلك أن الصغير يرى فى مولد الأخ أو الأخت مشاركة له فى حب والديه ،

فيسعى بمثل هذا الحلم إلى أن يقول لنفسه : « إن أبى لا يحب سواى ، وإنه يكره الطفل الجديد ولذلك يضربه . . . » و . . ومثل هذا الحلم يعبر عن الغيرة الشديدة التى تنتابه وتدفعه إلى أن يتمنى الأذى لمن تطفل على حياته ، واستأثر دونه بالحب الأبوى . .

وإذا كان الصغير طيباً حساساً بطبعه مثل « كارين » ، فقد يشعر فى قرارة نفسه بالندم الشديد على رغبته فى إيذاء أخيه أو أخته ، والنتيجة أن يصاب بمركب الذنب فإذا بالحلم يتحول إلى العكس تماماً ، فيرى فى نومه أن أباه يضربه هو بعد أن كان يضرب غريمه عقاباً على سوء نواياه السابقة . . ومما ساعد على تعميق شعورها بالذنب نحو أختها . أن تلك الأخت الصغيرة التى كانت تحقد عليها لاستيلائها على مشاعر والديها دونها ، أصيبت أكثر من مرة بأمراض خطيرة كادت تودى بحياتها ، فتصور لها أنها السبب بنقمتها على وجود هذه الأخت وتمنياتها بأن يصيبها من الأذى ما يزيحها من طريقها . .

فإذا أضفنا إلى ذلك عقدة الذنب التى أصابت « كارين » حين أغرتها سذاجة الطفولة بمحاولة اقتحام فراش أبيها لتعويضه عن زوجته الغائبة . فقد تبينت بعد هذه الفعلة أنها ارتكبت إثماً بمشاعرها الخاطئة ، وقد أذنبت أمام ربها بالتجائها إلى تعرية ساقها بقصد إغراء أبيها ، فنالت العقاب بالشلل الوهمى الذى أصابها . وجعلها تعتقد أنها مشلولة فتسير وهى تجر ساقها التى استعانت بها فى يوم من الأيام على تحقيق حماقاتها .. بل جزاء رغباتها الدفينة فى أن تنتصر فى حربها مع أمها من أجل الاستحواذ على أبيها . . فلقد كانت تحاول بعقلها الباطن أن تنتزعه

من أمها وتضمه إلى جانبها لكى تثبت لنفسها أنها حبيبته الوحيدة فى الحياة ولا حبيبة له غيرها . . وظلت هذه الرغبة الدفينة تسيطر عليها ، بل كثيراً ما تجعلها تتمنى لو أن هذه الأم تموت وتفسح لها مجال التنعم بعواطف أبيها . . وهى بلا شك تمنيات ورغبات تعرف بعقلها الواعى أنها محرمة وعقاب الله عليها أمر لا بد منه . . فكأن الأحلام المفزعة والساق الرجاء كانتا بمثابة العقاب الذى أرادت به « كارين » بعقلها الباطن بدون عقلها الواعى أن تنزله بنفسها جزاء السيئات التى أرادتها .

ويقول الطبيب إن المصابين بمثل هذه العقد تتغير أخلاقهم تحت وطأة متاعبهم النفسية ، فيبتلون بالحساسية المفرطة التى تجعل معاملاتهم مع أى رجل ينتمى إلى طبقة آبائهم غير محتملة بسبب ما تنطبع عليه هذه المعاملة من أثقال وإلحاح ورذالة لا يمكن احتمالها . . فكل كلمة تبدر من أولئك الناس ، أو أى تصرف برىء ، يجرح مشاعر الإنسان المعقد ، ويثير فى نفسه من الشجن والأحزان ، ما يدفع الآخرين إلى الهرب من صحبته والزهد فى حبه أو صداقته . .

وهذا ما ينطبق تماماً على « كارين » فلقد تسببت بإلحاحها وأثقالها من أجل اكتساب صداقة الناس ورضاهم ، أن حرمت نفسها من فرص لصداقة والزواج ، ودفعت العاملين معها إلى استغلال ضعفها أمامهم ، فكانوا يلقون إليها بأعمالهم ، ويأكلون حقها فى المرتب الذى تستحقه بالعلاوات التى كان ينبغى أن تنالها دون غيرها ممن هم أقل منها علماً وكفاءة . . .

فهى بتفوقها فى دراستها القانونية وامتيازها فى أداء عملها القانونى الذى

جلب لها الشهرة فى جميع اتحادات العمال الأخرى ، كانت تسعى إلى أن
ثبت لنفسها ولجميع من حولها أنها مثل الفتى القدير الذى أنكره والده
حين حرمها من الاستمرار فى دراستها الجامعية برغم تفوقها . وأمرها بقسوة أن
بحث لها عن عمل كى يدخر من المال ما يغطى نفقات دراسة أخيه
لكسول بالجامعة . .

ثم إنها بتصرفاتها مع المعجبين بها . تلك التصرفات التى دفعتهم إلى
الهرب منها . . ومع النساء اللواتى كانت تسعى إلى صداقتهن فكانت النتيجة
أنها لم تنجح فى الاحتفاظ بواحدة منهن . . ومع الزملاء الذين أحسنت
معاملتهم فاستغلوها فى القيام بأعمالهم المرهقة . . ومع الرؤساء الذين تفانت
فى إرضائهم فضنوا عليها بمرتبها وحرموها من العلاوات والترقيات المشروعة

فى كل هذه المجالات كانت تلعب دون أن تدرى دورها مع والديها
وإخوتها . . . دور الإبنة الوفية المحرومة من العطف . والأخت الضعيفة
المظلومة . . فتثقل فى ضغطها على الناس لكى تنتزع منهم أكبر قدر
من العواطف التى افتقدتها فى صغرها ، مما كان يحول حبها أو صداقتها
أو زمالتها إلى عبء ثقيل يثير الضيق والتذمر ويغرى بالاستغلال . .

ويؤكد الطبيب أنه حين أفلح فى الوصول إلى قرارة عقل « كارين »
الباطن ، ودفع العقد المختفية بين طياته إلى العقل الواعى . تغيرت مريضته
من حال إلى حال . . انقطعت عنها الأحلام المفزعة تماماً ، واستعادت
ساقها قدرتها على السير القوى السليم . . كذلك اكتسبت ثقة بالنفس
دفعتها إلى مواجهة رؤسائها بشجاعة ومطالبتهم بحقوقها الكاملة ، فإذا بهم
– على غير ما كانت تتوقع – يرفعون مرتبها إلى المستوى اللائق ، ويكفون عن

تكليفها بالأعمال الاستثنائية ويحترمون كافة حقوقها المهنية والإنسانية . . .

ولم يمض على شفائها عام واحد إلا والتقت بالرجل المناسب ، فتزوجته وبدأت بصحبته تستمتع بالحياة الأسرية السعيدة . . .

ويمكن تلخيص الأخطاء التى ارتكبها والداها دون قصد فدمرت نفسيتها بالنقط التالية :

١ ــ أنهما لم يعداها مسبقاً لتقبل فكرة مجيء المولود الجديد ، ولم يحاولا أن يربطاها عاطفياً به ، فلما وجدتهما فى شغل شاغل به اعتبرته غريماً ومنافساً لها . .

٢ ــ أنها حين ركزت عواطفها كلها فى أبيها لم تجد منه أدنى تجاوب يروى عطشها الشديد إلى العطف والمحبة . .

٣ ــ أنها حين عمدت إلى العناد والعصيان والتمرد كتعبير عن رفضها لوضعها العائلى بعد مولد أخيها ، لم يحاول أبوها أو أمها أن يفهما الدوافع الحقيقية لتصرفاتها ، واعتبراها شقية شريرة ، فلجآ إلى القسوة فى تأديبها ، وبذلك ضاعفا محنتها النفسية مما جعلها تعتبر نفسها إنسانة مسكينة يتيمة ، مهجورة لا أحد يريدها ولا إنسان يهتم بوجودها .

٤ ــ أنها حين وقعت فريسة للأحلام المخيفة وأصيبت بالشلل العصبى لم يستطع أحد ممن حولها أن يدرك أنها محنة نفسية تحتاج إلى إخصائى نفسى ينقذها منها . .

عندما ينقم الابن على أمه

* كيف تحول « بيلى » الهادئ المتدين إلى وحش مفترس يقتل أمه فى شخص أخرى ؟

ولماذا تحولت «تيريز» .. الفتاة الوديعة إلى أداة فى يد صديقها تساعده على قتل أمها ؟

يعتبر الجانب الشرقى من حى « مانهاتن » الواقع فى قلب مدينة نيويورك البوتقة التى تنصهر فيها أنواع مختلفة من الأجانب النازحين إلى الولايات المتحدة هرباً من الفقر فى بلادهم ، مثل اليهود والأيرلنديين والإيطاليين والصينيين والبولنديين وأهل پورتوريكو . :

وفى البداية كانت أحوال هذا الجانب من حى « مانهاتن » سيئة للغاية ، وتفاقم خطرها على الأمن نتيجة لتجمع المجرمين ورجال العصابات فى أزقتها ، واتخاذهم من أوكارها المظلمة قواعد للاعتداء على القانون : . وظل الأمر كذلك إلى أن قررت الحكومة الأمريكية أن تضع حدا للشرور التى تنبعث من هذه البقعة الموبوءة . وتحقيقاً لهذا الغرض قامت وزارة الإسكان هناك بهدم جميع المبانى القديمة ، وشيدت مكانها عمارات حديثة مزودة بجميع أسباب الحياة الصحية الحديثة اللائقة بسكنى الطبقات المحترمة من الناس : . لكن هذا التغيير الجسيم لم يستطع أن يقضى تماماً على الجريمة بهذا الحى ، فما زالت أسباب الأمن هناك غير مستتبة ، وبين حين وآخر تنفجر موجة من العنف يهتز لها المجتمع الأمريكى استنكاراً :

ومن ذلك ما حدث ذات يوم من شهر مارس عام ١٩٥٦ بإحدى العمارات المحترمة القائمة بالحى المذكور . فى إحدى الشقق الصغيرة بهذه العمارة كانت تسكن سيدة فى الثالثة والأربعين من عمرها أسمها « مسز جريش » مع ابنتها الوحيدة « تيريز » وهى تلميذة فى بداية المرحلة الثانوية لم تبلغ من العمر الخامسة عشرة بعد : .

وفى صباح اليوم المذكور ، بينما كان المشرف على المبنى يقوم بجولته

الصباحية ، اشتم رائحة كريهة تفوح فى ممرات الطابق الثالث ، وبتتبع لمصدر هذه الرائحة تبين له أنها تأتى بشدة وعنف من شقة « مسز جريش » التى تتألف من غرفة واحدة داخلها خزانة وخارجها مطبخ وحمام ، فأخذ المشرف يدق الجرس ليستطلع من الساكنة أو ابنتها أسباب هذا العفن الشديد ، لكن أحداً لم يجبه ، وبسؤال الجيران الذين يشغلون الشقق المجاورة ، أجمعوا على أنهم لم يروا السيدة المذكورة وابنتها منذ أسبوعين على الأقل ، وأن غيابهما لم يثر اهتمامهم نظراً لتباعدهما عن الجميع منذ البداية ونفورهما الواضح من عقد أواصر الصداقة ، أو حتى المعرفة البسيطة مع أحد ممن يسكنون معهما فى العمارة : :

وإزاء هذا الكلام لم يبق للمشرف مفر من إبلاغ الشرطة ، فجاء ثلاثة منهم وفتحوا الباب بصحبة ومعونة المشرف ، فهاجمتهم من داخلها رائحة عفن شديد ، غير أنهم لم يعثروا فى البداية على ما يبرر الرائحة حتى دخلوا الحمام . وأدهشهم أن يجدوا المغطس — أو « البانيو » — مليئاً بالعلب الفارغة والكاسارولات وأدوات الطهو المختلفة ، وبإزالة هذه الأشياء فوجئوا بجثة متعفنة بلغت من التحلل درجة أخفت معالمها ، ولولا الثياب التى ترتديها ما أمكن التحقق من أنها « مسز جريش » . . وبالتشريح ثبت أن الجريمة وقعت قبل ثلاثة أسابيع من اكتشافها ، وأن « مسز جريش » القتيلة مصابة فى جمجمتها بثلاث ضربات جبارة من آلة صلبة — مثل « شاكوش » — كما أنها طعنت فى جسدها بعدة سكاكين كبيرة حادة ثمانياً وعشرين طعنة . ست منها أصابت القلب مباشرة وحولته إلى ما يشبه كتلة من اللحم المفروم : : على حد تعبير الطبيب الشرعى :

وكانت « مسز جريش » عند العثور عليها ترتدى معطفها وقبعتها . وتحيط رقبتها بملحفة صوفية خفيفة ، مما يدل على أنها قتلت عقب عودتها من عملها إلى البيت وقبل أن تخلع ثياب الخروج ، لكن التفتيش الدقيق لم يصل إلى أثر لحقيبة يدها ، كذلك لم يعثر على أية نقود بالشقة . مما بدا كأنها راحت ضحية لص خطير شاء حظها التعس أن تفاجئه فى أثناء سطوه على بيتها ، الأمر الذى دفعه إلى قتلها تخلصاً من المأزق . . غير أن هذا التفسير لم يلبث بعد دراسة الموضوع أن بدا غير مقنع بالمرة . فاللص لا يبتغى عادة سوى الهرب ، ولذلك تكفيه ضربة أو ضربتان لتعويق ضحيته . فى حين أن « مسز جريش » مضروبة أربع مرات بالشاكوش على رأسها . ومطعونة بعدة سكاكين حادة ثمانياً وعشرين طعنة فى جسدها . وهو إجراء ينم عن الحقد والرغبة المجنونة فى الانتقام . .

ومن هنا بدأ المحققون يتساءلون عن الشخص الذى يحمل تاسيده الكادحة المتباعدة كل هذه المشاعر الشريرة ، ثم « تيريز » .. الابنه الصغيرة الهادئة بشهادة صديقاتها الكثيرات . . أين هى الآن ياترى ؟ وماذا حل بها ؟

وظلت الشرطة تبحث وتنقب عمن يستطيعون أن يمدوها بمعلومات تعينهم على كشف الستار عن هذه المجزرة البشعة ، إلى أن تم العثور على أخت لمسز جريش تسكن فى الجانب الآخر من مدينة نيويورك . وتعيش وحدها فى مسكن هادئ بعيداً عن ضجيج الحياة وعجيجها . وبسؤالها أخبرتهم أنها ليست على صلة وثيقة بأختها برغم المشاعر الطيبة التى يتبادلانها ، وكثيراً ما تمضى شهور دون أن تتصل الواحدة منهما

بالأخرى ، لكن حدث منذ أسبوع أن جاءتها « تبريز » وهى تبكى بحرقة لأن أمها سافرت مع حبيب لها لقضاء عطلة غرامية فى فلوريدا ، وتركتها بدون نقود تعيش منها ، وأنها اضطرت لما اشتد بها الجوع أن تتسول اللقمة من صديقاتها . . وأكدت أخت « مسز جريش » أن الصبية كانت عند حضورها غاية فى الانفعال ، وهزال الجوع يبدو واضحاً عليها ، فأخذتها بها الشفقة ، واستضافتها عندها إلى أن تعود الأم الحمقاء من رحلتها الغرامية ، ويمكن محاسبتها على إهمالها الذريع لابنتها الوحيدة التى مات أبوها وهى لم تزل رضيعة وليس لها عائل فى الدنيا سواها :

ودهش رجال الشرطة لهذا الكلام ، وذلك أن الطبيب الشرعى الذى قام بتشريح الجثة . . أثبت أن الجريمة وقعت قبل ثلاثة أسابيع من اكتشافها ، كما أن الجثة ظلت طيلة هذه المدة راقدة فى المغطس ، فى حين أن « تيريز » لم تستنجد بخالتها إلا منذ أسبوع ، فأين كانت تعيش خلال المدة السابقة لذلك ؟

وأقبلت « تيريز » من الخارج فى تلك اللحظة ، ولما سئلت عن أمها أعادت ما سبق أن قالته لخالتها بالحرف الواحد ، كما اعترفت بأن أمها ، برغم كفاحها المهنى المر كموظفة بإحدى الشركات الكبرى ، كانت مسرفة فى علاقاتها الغرامية ، وكثيراً ما كانت تعود إلى البيت بصحبة رجل غريب . وبما أن الشقة لا تحتوى إلا على غرفة واحدة ، فقد كانت تأمر ابنتها بالخروج إلى الشارع وعدم العودة قبل الساعة الحادية عشرة مساء . . وكثيراً ما تضطر الفتاة فى مثل هذه الحالات إلى التسكع فى الطرقات ، والتعرض لإهانات السكارى والفاسدين إلى أن يحين الوقت المسموح لها

بالعودة فيه : . وأحياناً ترفض الفتاة تنفيذ أوامر أمها ، فتضطر « مسز جريش » تلافياً لتعكير صفو متعتها مع صديقها . أن تحبس ابنتها فى الخزانة الواقعة خلف غرفة النوم ، إلى أن ينتهى اللقاء ، فتطاق سراحها . وروت « تيريز » كيف أنها شعرت ذات مرة وهى محبوسة فى الخزانة برغبة شديدة فى الذهاب إلى دورة المياه ، فظلت تطرق الباب من الداخل دون أن تعيرها أمها إهتماماً إلى أن انصرف الضيف ، فأخرجت الصبية من محبسها .

وبسؤالها عن مكان إقامتها خلال الأسبوعين السابقين لالتجائها إلى خالتها . أقرت بصراحة أنها لم تترك الشقة ، وأكدت أنها لم تشم رائحة عفنة . كما أنها لم تدخل الحمام طيلة هذه المدة ، نظراً لقضائها معظم الوقت مع صديقاتها فى بيوتهن حيث الحمامات الأنيقة المدفأة .

وبرغم الإشفاق الشديد الذى كان المحقق يشعر به نحو هذه الابنة المسكينة ، لم يجد مفراً من مكاشفتها بما حدث لأمها ، وكيف وجدوها فى المغطس قتيلة متعفنة ، فصرخت « تيريز » باكية وظهر عليها الإنهيار الشديد مما استدعى نقلها إلى المستشفى لإسعافها . .

غير أن شفقة المحقق على «تيريز» لم تلبث أن أخذت فى التضاؤل . حين أعيد تفتيش الشقة الخاصة بمسز جريش ، وتم العثور على أدوات الجريمة موضوعة فى الأدراج العادية دون أدنى محاولة لإخفائها . . وكانت آثار الدماء عالقة بها وجميعها من الممتلكات المنزلية ، وليس من المعقول بعد أن عاشت الفتاة فى بيت الجريمة أسبوعين كاملين أن تكون قد فاتتها

رؤية هذه الأسلحة الدامية أو فاتها ملاحظة العفن الشديد الذى يملأ أجواء الشقة . .

كان واضحاً أن الصبية تكذب ، وأنها تعرف من الحقيقة أضعاف ما أدلت به للمحققين .

البنت وصديقها

وبدأ البحث والاستقصاء من جديد فى أحوال « تيريز » وسلوكها ، فتكشفت أمور جديدة ، منها أنها كانت فى الشهر الأخير تصاحب صبياً فى السابعة عشرة من عمره على أكثر تقدير ، كان أصحابه يعرفونه دائماً باسم « بيللى سنايدر » ثم إذا به يفاجئهم بتغيير هذا الاسم إلى « بيللى بايرز » . . وأكد شباب الجيرة أن « تيريز » كانت تعيش معه فى شقتها خلال المدة السابقة لاكتشاف الجريمة ، بعد أن ادعت زواجها به وأرتهم الخاتم الماسى الذى اشتراه لها بهذه المناسبة . . وكثيراً ما كان العروسان يقيمان الحفلات الصاخبة فى المسكن المذكور ، ويقدمان لضيوفهما كميات هائلة من الخمور لا تتناسب مطلقاً مع إمكانياتهما المادية المحدودة ، ويطلقان لهم الحرية الكاملة فى السلوك والتصرف ، إنما بشرط ألا يقترب أحدهم من غرفة الحمام . . ولكم أبدى الضيوف المرحون نفورهم من رائحة العفن التى تملأ الشقة ، لكن « بيللى » و « تيريز » كانا دائماً يتهربان من هذا الموضوع ، وإذا ضيق عليهما الخناق يعطيان مبررات غير مقنعة بالمرة ! :

وعاد المحققون إلى « تيريز » يضغطون بالسؤال حتى كشفت لهم عن الحقيقة ، واعترفت بأن صديقها « بيللى » هو الذى قتل أمها بعد أن كذبت عليه الفتاة وادعت أنها حامل منه ، كما قالت له إن أمها « مسز جريش » لن توافق على زواجهما نظراً لصغر سنها ، ولأنها سبق أن شكت فى علاقة الاثنين فأمرت « تيريز » بالابتعاد عنه . . ولقد حدث القتل فى وجود البنت وبمعونتها ، إذ كانت هى التى تناول الشاكوش والسكاكين المختلفة . . وتعاون الاثنان على وضع الجثة فى المغطس ، وقاما معاً بتغطيتها بأدوات المطبخ ، وبعد ذلك أخذا يلعبان لعبة العريس والعروس ، فلبست « تيريز » خاتم أمها فى أصبعها وأعادت ترتيب مفروشات البيت بما يلائم مزاجهما . . وإتماماً للعبة أقاما الولائم الصاخبة للمراهقين والمراهقات من أهل الجيرة ، وأنفقا على تلك الولائم من النقود التى استوليا عليها بعد الجريمة ، احتفالا بالزواج الوهمى . ثم التحق « بيللى بايرز » الذى كان يعرف من قبل باسم « بيللى سنايدر » بالبحرية الأمريكية ، وتركها خلفه على وعد بأن يعود للزواج منها عندما تسنح الفرصة . . ولما فرغ ما تبقى معها من نقود أمها ، لجأت إلى خالتها طلباً للمأوى والطعام مبررة ذلك بالقصة الخيالية لرحلة الغرام فى فلوريدا . . كما قدمت الصبية للمحققين آخر رسالة وصلتها من صديقها وفيها يقول بالحرف الواحد :

« علمت من خطاب بعثت به أمى إلى أنك منذ اليوم الأول لغيابى وأنت تخونيننى مع أبناء الجيرة ، فلئن صح ذلك لأكونن قد ارتكبت جريمة

القتل بلا أدنى مبرر . . » .

واستناداً إلى هذا الاعتراف الصريح قبض على « بيللى » وجىء به مكبلا بالحديد من وحدته فى البحرية . . ولقد حاول فى البداية أن ينكر الجريمة ، ولكنه لم يلبث أن اعترف حين علم بأن « تيريز » غدرت به وأدلت بالحقيقة . . والعجيب أنه تكلم بغاية الصراحة ، ولم يترك صغيرة أو كبيرة إلا أدلى بها تفصيلا فيما عدا عدد الطعنات التى وجهها ، إذ أصر بعناد على أنه ضربها بالسكين مرتين لا ثمانياً وعشرين مرة كما جاء بتقرير الطبيب الشرعى ، وقال فى دهشة واضحة حين اطلع على التقرير المذكور : أنا أعرف أن أحداً لم يقتلها سواى ، ولكنى لا أتذكر غير الطعنتين الأوليين فقط . . وعندما سئل : لماذا ترك الجثة فى المغطس هكذا ولم يبذل أدنى جهد لإخفائها والتخلص منها ، أجاب مستنكراً بحدة : « إننى كاثوليكى متدين ، أخاف ربى وأحترم عقيدتى ، ولا يمكن أن يقبل ضميرى أن ألقى بها دون أن تنال حقها من الاحتفال الدينى اللائق بالدفن . . » . ولما سئل لماذا لم يهرب عقب ارتكابه الجريمة لينجو من العقاب ، أجاب قائلا بمنتهى البراءة : « لم تخطر لى هذه الفكرة على بال » . . وعندما قيل له فى نهاية التحقيق إنه ارتكب جريمة قتل مع سبق الإصرار وعقاب مثل هذه الجريمة هو الإعدام ، هتف يقول فرحاً : « أرجو أن تسمحوا لأمى بأن تحضر التنفيذ ، لكى تراتى بعينيها أحترق على الكرسى الكهربائى . » مع أنه ثبت فى التحقيق أنه الابن الوحيد لأمه ، وكان يعبدها مثلما كانت تعبده ، وقد ظل دائماً المثل الطيب للابن المطيع البار ، والطالب المجتهد الناجح مما يتنافى تماماً مع رغبته فى أن تحضر

إعدامه تشفياً فيها . . كذلك استوقف اهتمام المحققين أنه فى جميع أحاديثه عن المجنى عليها ، لم ينطق مرة باسم « مسز جريش » ، إنما كان يذكرها دائماً بكلمة « أمى » : فيقول مثلا : « وعندما دخلت أمى الشقة هاجمتها بالشاكوش والسكين ، ثم جررت أمى إلى الحمام ووضعتها فى المغطس . . وبالنقود التى وجدتها فى حقيبة أمى ودولابها أقمنا لأصدقائنا الحفلات الصاخبة . . إلخ » وبالإضافة إلى هذا كله ظهر أيضاً أن الصبى ظل يعيش مع والديه « مستر ومسز سنايدر » إلى أن تقدم للالتحاق بالبحرية . وبرجوعه إلى الأوراق الرسمية المطلوبة فى هذه المناسبة ومن بينها شهادة ميلاده، اكتشف لأول مرة أنه ابن سفاح ، أنجبته أمه قبل سنوات من زواجها بسنايدر ، ذلك الرجل الطيب الذى احتضنه وأعطاه اسمه لكى يجنبه عار مولده . . وكانت مفاجأة رهيبة دفعت الصبى إلى التخلى عن لقبه الذى ليس من حقه أن يحمله ، وأن يستبدل به لقب « بايرز » وهو اسم جده لأمه ، ثم ارتبكت أحواله السلوكية وانقاب من حمل وديع إلى شيطان رجيم ، وتم هذا التحول الرهيب خلال شهر واحد وهو الشهر الذى تصادف أن قابل فيه « تيريز » وصادقها . .

وبعد كل هذه الاعترافات الصريحة لوحظ أن « بيللى » قد حل عليه هدوء عظيم ، فكان ينام فى السجن طوال الليل ملء جفنيه ، ويتناول وجباته كاملة، وظلت الابتسامة مرتسمة على شفتيه خلال المحاكمة التى بدأت فى شهر يناير عام ١٩٥٧ ، وكانت « تيريز » بالكاد قد بلغت الخامسة عشرة عندئذ، وهو ما زال فى السابعة عشرة ، والاثنان أصغر من حوكم بجريمة القتل مع سبق الإصرار فى تاريخ ولاية نيويورك السابق

لهذه الحادثة . وتمشياً مع قانون هذه الولاية الذى يعتبر أن الخامسة عشرة هى الحد المشروع لاعتبار المتهمين بالغين بحيث يخضعون لأحكام الإعدام إذا توافرت أركان سبق الإصرار فى ارتكابهم لجريمتهم .

يريد الإعدام !

ومراعاة للعوامل الإنسانية التى تجيز للقاضى فى تلك البلاد التحايل على القانون رحمة بالأحداث ، رأى القاضى أن القاتلين أصغر سنًّا من أن يصح إعدامهما ، فطلب إليهما لقاء استعداده لتخفيف الحكم أن يعترفا أمام المحكمة بالإدانة فى التهمة الموجهة إليهما . . فقبلت « تيريز » عن طيب خاطر ، وبالفعل استبدل إعدامها بالسجن المؤبد . . أما « بيللى » فقد رفض ذلك بتاتاً برغم إدراكه التام لتبعة هذا الرفض . . وبالرغم من رجاء أمه واستعطاف محاميه ظل على عناده معللا موقفه الانتحارى بأمله فى أن يحصل على البراءة !

ولما فشلت جميع الجهود فى إثنائه عن موقفه ، لم يسع القاضى سوى أن يصدر عليه الحكم بالإعدام على الكرسى الكهربائى . وبمجرد أن نطق القاضى بالحكم دهش الحاضرون جميعاً عندما سمعوا « بيللى » يصرخ بأعلى صوته فى أمه ويتهمها بالفسق والفجور والدعارة ، ويستنزل اللعنات على رأسها برغم ما كان يبديه نحوها من حب واحترام وإعزاز إلى ما قبل صدور الحكم بدقائق معدودات . .

هكذا دخلت « تيريز » الصغيرة السجن لتقضى ما تبقى لها من الحياة بين جدرانه . .

أما « بيللى » فقد نفذ فيه الحكم بعد مضى عام على انتهاء محاكمته . فكان أصغر من أعدم فى التاريخ الحديث لولاية نيويورك . .

وفى خلال العام الذى قضاه فى السجن قبل إعدامه . كلف طبيب نفسانى كبير ببحث حالته . وكان الطبيب يلتقى به ثلاث مرات فى الأسبوع الواحد : يحادثه ويناقشه ويستدرجه بوسائله العلمية إلى الإفضاء بدخيلة نفسه بقصد الوصول إلى خفايا عقله الباطن . وما يكمن بين طيات اللاوعى من دوافع أدت إلى انقلابه المفاجئ من صبى كاثوليكى متدين مهذب مطيع إلى سفاح رهيب لا يكتفى بالقتل فقط ، بل يظل يطعن ويطعن بالسكين مسدداً ضرباته إلى قلب المجنى عليها مباشرة . مما حول ذلك القلب إلى كتلة من اللحم المفروم على حد تعبير الطبيب الشرعى الذى قام بتشريح الجثة . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن السر كله يكمن فى الصدمة التى تلقاها حين اضطرته ظروف التحاقه بالبحرية إلى الاطلاع على شهادة ميلاده لأول مرة فى حياته ، ومعرفته بسر مولده . . فاكتشافه أنه ابن سفاح لا ينتمى بصلة إلى الرجل الذى ظل منذ بداية حياته يعتبره أباه ويحبه من صميم قلبه . . قد هز الصبى من الأعماق . وأطاح بحكمته ووقاره . وملأه بالحقد على الدنيا ومن فيها من الناس والمبادئ والتقاليد . . ويدلل الطبيب على ذلك بما جاء على لسانه حين علم بأنه عرضة لحكم الإعدام . وقوله عندئذ : « . . أرجو أن يسمحوا لأمى بحضور التنفيذ كى ترى بعينيها كيف أحترق على الكرسى الكهربائى . . » ثم انفجاره فى شتم أمه وتوجيه أقذع النعوت إليها عند صدور الحكم . . فلقد كان لشدة تعلقه

بها واحترامه لها يعتبرها خير الأمهات وأشرف النساء . . امرأة ليس لها مثيل فى الفضل والأخلاق . . وبهذه الفكرة والتصور عاش إلى أن بلغ السادسة عشرة ثم إذا به فجأة يواجه العكس تماماً . فمن كان يتصورها سيدة النساء تحولت إلى زانية ، وإرضاء لنزواتها البهيمية الخاصة تأتى إلى هذه الدنيا بابن بريء ، وتصمه بعار مولده مدى حياته . . تلقى به إلى رجل غريب يعوضها بكرمه عن قذارة ودناءة الآخر الذى استولدها الصبى المسكين ، ثم هجرها بلا رحمة ولا شفقة .

ولقد بلغت قحة هذه الأم فى رأيه ، أن وجدت لديها الجرأة — وهى التى فسقت بنفسها وجلبت ابنها بالعار — أن تعارض فى صداقته بـ « تيريز » وتوافيه بأنباء خياناتها له مع أبناء الجيران . . وبذلك صورت نفسها فى صورة العاهرة التى تشى بعاهرة أخرى ، وترميها بما سبق أن فعلته وهى فى سن أكبر وفى ظروف تمكنها من التمييز بين الخطأ والصواب . .

وعندما أرادت « تيريز » أن تحضه على الإسراع بالزواج منها ، وكذبت عليه مدعية أنها تحمل جنيناً منه ، وعلم فى ذات الوقت أن أمها تأمرها بالابتعاد عنه . . تفجرت براكين الثورة فى نفسه ، فرأى فى الجنين المزعوم محنته تتكرر فى ابنه ، ومثلما ولد هو سفاحاً سيولد له ابن سفاح أيضاً ، ويواجه مذلة احتقار المجتمع وازدرائه . .

فأساة حياته التى صدمته بدون مقدمات ، عادت بكذبة « تيريز » — تتجسد أمامه من جديد ، فتهيأ تماماً لارتكاب الجريمة . . لم يكن ما يخشاه هو احتمال معارضة « مسز جريش » ، فكل أمريكى حتى الأبله يعلم أن موافقة الأهل على الزواج ليست حتمية فى الولايات المتحدة ، وأنه

فى أية لحظة يختارها يستطيع أن يتزوج فتاته دون إذن من أهله وأهلها . وبالزواج يصلح خطأه معها ، ويمنح طفله المنتظر الشرعية التى تحميه من الإذلال . . لكنه لم يفكر فى ذلك ، إنما أقدم على الجريمة لكى ينتقم من أمه ويقتلها فى شخص « مسز جريش » . . فحبه المتأصل لأمه منعه — دون أن يشعر — من إيذائها ، ودفعه إلى رؤيتها فى صورة « والدة تيريز » .

وهو حين أقدم على الجريمة ونفذها كان يقتل جميع الأمهات المخطئات المنحرفات المجرمات فى حق الأبناء الأبرياء .. بل هو قد أراد أيضاً أن يعاقب « تيريز » ، فإشراكه لها فى فعلته البشعة جاء بدافع من رغبته الدفينة فى أن تنال هى أيضاً — عند اكتشاف الجريمة — العقوبة التى تستحقها على انحرافها وتساهلها فى نفسها بالصورة التى سبق أن فعلتها أمه مع رجل آخر فأنجبته . . ومما يؤكد ذلك أنه ظل طوال التحقيق يسمى « مسز جريش » أمى ، وبعد طعنتيه الأوليين غاب عن الوعى إلى اللاوعى ، فظل يطعن ويطعن ويطعن دون أن يدرى أو يذكر فيما بعد . .

ومعروف أن الطفل غير الشرعى يأتى غير مرغوب فيه ، وأن المرأة التى تصاب بهذه النكبة تتمنى فى قراره نفسها لو مات الطفل وأنقذها بذلك من مواجهة المجتمع بخطيئة لا تغتفر . . ومهما بذلت الأم من جانبها فى إخفاء مشاعرها هذه ، فالطفل يحس بها بطريقة غامضة ، ويسير فى الطريق الذى تتمناه له أمه . . ولابد أن هذه المشاعر كانت تملأ صدر أم « بيللى » ومن غير جدال أن الصبى عرف بها بطريقة الإيحاء ، فانتقم لنفسه منها بقتله لها فى شخص سيدة أخرى ، ثم ترك

الجثة فى المغطس لكى يسهل اكتشافها ، ويعرف مرتكبها فينال جزاءه الحق على فعلته الشنعاء ، ويعدم هو ، وبإعدامه يحقق لأمه رغبتها الأولى فى أن يموت الطفل لكى تتخلص من عار مولده . .

وبدافع من رغبته اللاواعية فى أن تفتضح جريمته ، ترك الجثة فى المغطس ، مع أنه كان من السهل عليه أن يحملها فى ظلام الليل إلى خارج البيت ويلقى بها فى مكان ما ، ثم يهرب بعيداً عن المنطقة بحيث لا يستطيع أحد أن يقرنه بالجريمة . . ولكنه برر للمحققين تركها فى المغطس بأنه كاثوليكى متدين ولا يقبل ضميره الدينى أن يحرم امرأة من الاحتفال الدينى بالدفن . . وهو بطبيعة الحال قول هراء يخفى وراءه الحقيقة الكامنة فى عقله الباطن ، وهى رغبته فى أن يكتشف أمره ، وتسهيله هذه المهمة يترك خيطاً طويلا من الأدلة وراءه يرشد العدالة إليه بمنتهى السهولة ، كما أن رفضه للاعتراف بالإدانة أمام المحكمة برغم تأكده من أن هذا الرفض يفضى على كل أمل له فى الحياة ، ويقوده إلى الإعدام مباشرة ، فلقد ظل على عناده لكى يحقق لأمه رغبتها فى موته ، تلك الرغبة التى لابد أن تكون قد تملكتها طويلا فى أثناء حملها له ، ثم ولادته بدون عقد زواج شرعى يحل لها ذلك .

أما « تيريز » فيقول الطبيب النفسى الذى تولاها بعد المحاكمة إنها راحت هى الأخرى ضحية أمها ، فلقد تفتحت عينا هذه الصبية على أم تمارس الجنس فى البيت تباعاً ، ولا تتورع برغم حبها لابنتها وتفانيها فى توفير أسباب الحياة لها ، عن حبسها فى الخزانة ، فى أثناء وجود العشيق ، أو إخراجها إلى الشوارع حتى منتصف الليل : . ومثل هذا السلوك الأخرق

يوقظ فى الأبناء المشاعر الجنسية قبل الأوان ، ويدفعهم إلى التشبه بهم وهم فى سن أصغر من أن تسيطر الحكمة على الرغبات الجنسية وتوجهها إلى الطريق السوى . . فالإنسان . الناضج يتعلم بعقله وتجربته كيف يحب . ومن خلال الشعور الشريف بالحب يمارس الجنس فى نطاقه المشروع . لكن الصغار يندفعون وراء اللذة البهيمية الكامنة فى الجنس قبل أن يعرفوا سمو الحب أو يدركوا قيمته ، ولذلك تنتصر الرغبة الحيوانية فيهم على أحكام العقل والضمير ويدفعهم الخوف من فقد هذه اللذة إلى ارتكاب أبشع الأخطاء . . وهو ما حدث للصبية « تيريز » فالمثل الذى ضربته لها أمها بسلوكها ، أيقظ حيوان الجنس فيها قبل الأوان ، ودفعها إلى ممارسة مطالب هذا الحيوان وهى لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها بعد . . وعندما أمرتها أمها بالابتعاد عن صديقها الشاب ، غلبها على أمرها الذعر من فكرة الحرمان من لذات الجنس وجردها من كل إرادة وشخصية . فتحولت إلى أداة فى يد حبيبها يوجهها كما يشاء .

عندما يحتقر الابن أباه

* إن طغيان شخصية الزوجة على شخصية الزوج يقلل من شأن الأب فى نظر ابنه ، ويدفع الصبى إلى الاعتقاد بأن الأم هى العنصر الأقوى ، فيحاول التشبه بها مما يحوله إلى رجل مخنث

جرت حوادث هذه القصة فى أسرة رجل أعمال معروف يعمل وكيلا لشركة ثلاجات كهربية ، ويعيش بفضل دخله السخى فى مستوى اجتماعى مرموق .

وكان هذا الرجل قد تزوج قبل تسعة عشر عاماً بسيدة مثقفة تكبره سناً بخمسة أعوام ، ولشدة تعلقها بالتزامات الحياة العامة لم تشأ أن تقيد حركتها بالأولاد فاتخذت كافة الاحتياطات المانعة للحمل .

ومع أن زوجها كان يخالفها فى الرأى ، غير أنه لم يستطع أن يعارضها لضعف شخصيته الطبيعى ، وانقياده التام لسيطرتها عليه . . ثم حدث بعد خمس سنوات من الزواج أن حملت نتيجة لغلطة ، ولم يمنعها من إجهاض نفسها سوى إصرار أهل زوجها على رؤية أولاد له . . فقبلت فكرة الإنجاب على مضض ، ولما ولد «كريستوفر» — أو «كريس» كما كانوا يسمونه على سبيل التدليل — فرضت سلطانها عليه كما سبق أن فعلت مع والده ، وأبعدته عن أطفال الحى وأبناء الجيران والأصدقاء خوفاً عليه من الأمراض ، وترفعاً عن الاختلاط بمستويات اجتماعية تعتبرها لفرط غرورها دون المستوى المناسب .

وجاء «كريس» على درجة ممتازة من الذكاء . ولكن نموه الجسمى كان يسبق عمره . وأصبح حجمه دائماً أكبر من سنه بكثير مما كان يسبب له أشد الإحراج بين زملائه الصغار .

وزاد المشكلة تعقيداً أن الأب لم يلعب دوراً فى تربية ابنه . نظراً لسيطرة زوجته عليه ، وآثر أن يشغل نفسه عن مواجهة ضعفه إزاء زوجته بتوزيع وقته كله بين العمل بالنهار والنادى بالليل .

وفى إطار هذه الأوضاع لم يعد فى استطاعة كريس الصغير أن يجد مجالا لتحركه العاطفى ونموه الإدراكى خارج إطار أمه المسيطرة التى تبسط عليه سلطانها ، وتمنعه من الاختلاط بأبناء جيله وتقيم بينه وبين العالم الخارجى العامر بالخبرة والتجارب ستاراً حديدياً يشل قدرته على التواؤم الاجتماعى الضرورى لربطه بعجلة الحياة ومده بالقدرة على التعامل مع الآخرين . . وظل كريس دائماً طيعاً مهذباً لا يجرؤ على أن يقول لأمه لا . . مهما كانت الظروف . .

ولكن نذر المتاعب لاحت فى الجو بعد مولد أخيه الأصغر روبرت الذى جاء بعده بخمس سنوات . فعلى أثر مولد هذا الأخ الثانى تعثرت فجأة قدرة « كريس » على النطق ، وبعد أن كان فصيحاً فى الكلام اعتراه تلعثم جعله ينطق الكلمة الواحدة على دفعتين أو ثلاث دفعات .

وصاحب هذه العلة المفاجئة ميل إلى سرقة بعض الأشياء التافهة التى تقع فى متناول يده ، مع رخاوة فى التصرفات كانت تثير غضب الأم المسيطرة وتدفعها دائماً إلى أن تصرخ قائلة : « استرجل ياولد ولا تكن بنوته ! » .

ولما ازدادت هذه المشاكل وضوحاً ، ووجدت الأم نفسها عاجزة عن حلها ، لجأت إلى الطبيب النفسانى الذى اكتشف أن المشكلة كلها تعود إلى انصراف الأم إلى رعاية روبرت الصغير وانشغالها به عن كريس ، مما أشعره بالحرمان من مصدر الاهتمام الوحيد الذى عرفه فى حياته وأربك نفسيته إلى الحد الذى دفعه إلى السرقة وعطل قدرته على النطق السليم . وبفضل علاج الطبيب النفسى اختفى التلعثم تماماً وكف « كريس » عن

السرقة ولكنه ظل على خجله وحيائه لا يعرف كيف يتكلم أو يتعامل مع زملائه تلاميذ المدرسة البنين منهم والبنات فعاش بعيداً عنهم . وازدادت عزلته بخجله من الازدياد المستمر فى حجمه . ذلك الازدياد الذى جعله وهو لا يزال فى الرابعة عشرة من عمره يفوق الرجال طولا وعرضًا .

ومع اشتداد المتاعب النفسية المكبوتة ظل « كريس » فى الظاهر مثالا يحتذى به فى الطاعة والهدوء والأخلاق . . إلى أن حدث ذات يوم أن دعت أمه إحدى صديقاتها لتقضى معهم عطلة نهاية الأسبوع ، ولم تكن هذه الصديقة جميلة أو شابة ، ومع . ذلك انتظر « كريس » فى فراشه حتى نام الجميع وأظلم البيت ، ثم تسلل إلى سرير الضيفة وانهال على رأسها بضربة واحدة بشعة من تمثال برونزى وجده أمامه على المائدة المجاورة ، ثم عاد يجرى على أطراف أظافره إلى فراشه واختفى حتى قمة رأسه تحت الأغطية السميكة .

الزوجة المسيطرة

ولحسن الحظ أن الضيفة لم تمت برغم إصابتها الخطيرة . لكن الوالدين حارا فيمن يكون قد اقترف الجريمة . فأبواب البيت وجدت كلها مغلقة من الداخل مما ينفى التهمة تمامًا عن أى غريب يحتمل أن يكون قد أتى من الخارج . . والإنسان الوحيد الذى قد تتجه إليه الأنظار فى ارتكاب التهمة هو « كريس » ولكنه أمر غير معقول بل مستحيل ، نظراً لأن الصبى كان دائمًا رقيقًا وديعًا لا يؤذى ذبابة .

غير أن الحقيقة لم تلبث أن اتضحت حين رأوا الصبى فى الصباح

يأتى إلى أمه متهالكًا منهاراً ، ويعترف لها — وقد عاد إليه داء التلعثم فجأة وبشكل غاية فى العنف — أنه الجانى ، وأنه لا يدرى لماذا فعل ذلك .

ولقد رفضت الضيفة أن تبلغ الأمر للشرطة مراعاة للصداقة التى تربطها بأسرة « كريس » ، فاكتفى والداه بعرضه على طبيب نفسانى .

ويقول الطبيب الذى تولى علاجه إن الفتى — أى فتى — يحتاج فى مرحلة نموه الأولى إلى السند الذى يمنحه القوة النفسية مدى الحياة ؛ وهذا السند هو الأب القوى الحازم الذى يقف دائمًا بجانب ابنه ، وفى ظل عطفه عليه وحبه له يُقَوِّمه ويُوَجِّهه ويعوده النظام .

كذلك يحتاج إلى الأم التى تقوم بدورها كاملا دون أن تنافس زوجها على سلطته أو تمحو بسيطرتها شخصيته . . لأن طغيان شخصية الزوجة على شخصية الزوج يقلل من شأن الأب فى نظر ابنه ، ويجرده من خصائص الرجولة المعروفة فى الآباء الآخرين ، ويدفع الصبى إلى الاعتقاد بأن الأم هى العنصر الأقوى ، فيشعر بالرغبة فى أن يتشبه بها مما يحوله إلى رجل مخنث .

وهو ما حدث لـ « كريس » فطغيان شخصية أمه على شخصية أبيه ، واستسلام الأب للضعف ، وتخليه عن مسئولياته نحو الابن ، فجع الصبى فى أبيه ، ودفع به من حيث لا يدرى إلى محاولة الاقتداء بالعنصر الأقوى وهو الأم ، فنشأ رخواً ناعمًا فى تصرفاته برغم ضخامة حجمه . . وبدل أن تتنبه السيدة إلى حقيقة الوضع ، وتحاول من جانبها أن تعالج الموقف بإعادة الثقة إلى نفسه ، قست عليه وعيرته بالتخنث ، فتضاعف الداء .

كذلك يقول الطبيب إن الطفل يحتاج أيضًا فى مرحلة نموه المبكرة إلى الاختلاط بأبناء جيله من الجنسين ، فعن طريق تعامله معهم يتعلم التعامل مع الحياة ، وينضج إدراكه فى ظل الروابط الجماعية . . وهو ما لم يتأت لـ « كريس » الذى أبعدته أمه عن الاختلاط بالأطفال الآخرين . فسلبته القدرة على التعامل الاجتماعى ، وسلبته موهبة التعبير عما يجول بخاطره ، وتركته فى معركة ضارية مع نفسه القاصرة ، التى تجسم له عجزه وتفاهته ، وتغريه بمحاولة القيام بعمل — أى عمل — يثبت به رجولته ، ويسترد به احترامه لنفسه ، ذلك الاحترام الذى دمرته أمه بسيطرتها عليه ، واحتقارها لتخنثه ، وأضاع عليه فرصة الشعور بهذا الاحترام بتخلى أبيه عنه ، وضعفه المخزى أمام زوجته ، التى تكبره بخمس سنوات . وتصر على معاملته معاملة الابن لا الزوج . . .

وانفجر بركان المتاعب حين نزلت ببيتهم صديقة أمه ، فبرغم سنها المتقدمة وشكلها المجرد من الإغراء ، بدت فى نظره المنحرف رسول العالم الخارجى الذى يتمنى أن يثبت فيه رجولته وقوته ، فقرر أن يعتدى عليها لكى يقوم بما يقوم به الرجال فى نشاطهم الجنسى . . . ولما وجد نفسه عاجزاً عن إتمام مهمته ثارت كوامن الشر فى نفسه فقرر أن يقتلها . . وكان فى استطاعته أن يقضى عليها بضربة واحدة من ذراعه القوية ، أما لماذا لم يحدث ذلك ، ولأى سبب جاءت الضربة خفيفة ، فنتيجة لتحرك بقايا الخير الكامنة فى صدره ، فهذه البقايا سلبت ذراعه قوتها ، فجاءت الضربة هينة لحسن الحظ .

مسئولية الأم

وقد نتساءل: لماذا طغت نوازع الغرائز الحيوانية على هذا الصبي الوديع فجأة؟ ويجيب الطبيب على هذا السؤال بإلقاء التبعة كلها على الأم، فالتربية الجنسية السليمة تنصح الأم عادة بألا تتحرج عن خلع ثيابها أمام ابنها خلال السنوات الخمس الأولى من عمره، ففي هذه المرحلة المبكرة من عمر الصبي تستبد به الرغبة الشديدة في حب الاستطلاع، ولكي تنتهي هذه الفورة بالأسلوب الطبيعي ينبغي على الأم ألا تحرمه من رؤية جسدها وهي تغير ثيابها أو تغتسل في الحمام، حتى يعتاد رؤية أجسام الجنس الآخر، ويتحرر من حب الاستطلاع الذي كثيراً ما يتحول بالكبت إلى خيالات جنسية تكبر مع الزمن وتصيب صاحبها بالضرر.

ولكن التربية الجنسية السليمة تنصح بالعكس تماماً مع الابن بعد أن يتخطى مرحلة الطفولة.. فابتداء من سن التاسعة ينبغي على الأم أن تأخذ حذرها وتغطي جسدها أمام ابنها. ومن الخطر الشديد على أخلاقه أن تتيح له رؤيتها وهي عارية في مرحلة المراهقة، أو الفترة السابقة لها، فهذا التصرف في مثل هذا الوقت يعتبر تحريضاً جنسياً يوقظ رغباته قبل الأوان، ويجسم خيالات الغرائز في ذهنه، مما يؤدي إلى انفجار قد يكشف عن طبيعته بصراحة، أو قد يعبر عن نفسه بصور أخرى من الانحراف مثل الكذب أو السرقة أو التمرد أو التفريط أو القتل.

وهذا ما حدث لـ «كريس» فقد اعترف لطبيبه بمنتهى الصراحة

أن أمه كانت لا تتحرج عن الظهور عارية أمامه . وكثيراً ما تطوف بغرف البيت فى الصيف وليس على جسدها سوى أقل القليل . . .

ويقول الطبيب إن الأم أضرت بابنها من حيث أرادت الخير أو عن جهل بالتربية الصحيحة ، فظهورها أمامه عارية وهو الفتى المحروم من التعامل الاجتماعى بأنواعه ، أثاره جنسيًّا . . ولكونه يعرف فى قرارة عقله الباطن أن أمه محرمة عليه ، ومجرد التفكير فيها داخل الإطار الجنسى يعتبر خطيئة بشعة ، ثار غضبه عليها ، وأراد أن يعاقبها على ما تفعله به ، فتهجم على صديقتها التى بدت أمامه فى آخر لحظة بديلا لأمه . . لكن حبه الدفين لأمه أفقده القدرة على إتمام جريمته واكتفى بالضربة الخفيفة التى أنقذت حياة الضيفة من موت محقق . . وفجأة عاد إلى طفولته فجرى إلى فراشه واختفى تحت أغطية السرير كما كان يفعل فى صغره عندما يخاف من الظلام وهو فى الغرفة وحده . وترجم الشعور بالذنب عن نفسه باللعثمة التى عادت إليه فجأة وبغاية الحدة صباح اليوم التالى للجريمة . كذلك يحذر الطبيب الأمهات والآباء من السماح لأبنائهم الصغار بمشاركتهم غرفة النوم ، فالطفل حتى فى نومه لديه القدرة على الإحساس بحقيقة ما يجرى حوله . والعلاقات الجنسية الزوجية تبدو لذهنه الغرير فى تلك المرحلة نوعًا من التهجم أو الاعتداء الصارخ . الأمر الذى لا يوقظ الغرائز قبل أوانها فقط ، بل هو أيضًا يطبع العلاقات الجنسية فى نظر الصغير بطابع العنف والإجرام .

ولقد أمكن شفاء « كريس » بالعلاج النفسى ، فاستطاع أن يتم دراسته الثانوية بنجاح ، ثم دخل الجامعة وانتظم فى صفوفها موفقًا وكان

ذلك بفضل أمرين هامين : أولهما بقايا الخير الكامنة فى نفسه ؛ والأمر الثانى أسلوب الطبيب فى علاجه ؛ فالطبيب لم يصدر عليه حكمًا بالإدانة ، ولم يشعره بأنه مجرم ، بل أقنعه بأنه مريض ولسوف يشفى بالعلاج تمامًا . . . فبالحب الصحيح والعطف والتقدير والحزم والصراحة ، استطاع العلاج النفسى أن يكشف للصبى عن أصول علته ، ويرشده إلى طريق السلامة . . .

عندما تتنكر الأمّ لأمومتها..

* كيف استطاعت التربية الخاطئة أن تحول « إيدا » الرقيقة الحلوة إلى فتاة منحرفة تتزوج بطريقة غير شرعية ، وتلقي بابنها الى أحد الملاجئ ؟ ! . . .

إنها قصة التزمت فى معاملة البنات وكيف يولد الانفجار الرهيب ، وبطلة هذه القصة فتاة أمريكية إسمها « إيدا » فى السابعة عشرة من عمرها صغيرة الحجم تبدو من حيث الشكل أقل من عمرها الحقيقى ، ولكنها جميلة بدرجة تلفت الأنظار، بيضاء البشرة فاحمة الشعر خضراء العينين ، رقيقة وديعة مثقفة مهذبة ، تتكلم بصوت هادئ خفيض ليس فيه لفظ واحد خشن أو جرىء أو مبتذل ، وتتصرف فى غير تصنع أو افتعال بوقار أكبر من عمرها بكثير ، لا تميل للمرح ولا الضجيج ولا تحب الخروج من البيت إلا لزيارة المكتبات العامة وممارسة رياضة المشى .

ولقد التقى الطبيب النفسى بهذه المخلوقة الجميلة المهذبة بواسطة صديقة لأسرته ، إسمها « مسز درايفرز » كانت « إيدا » قد التحقت بخدمتها قبل ذلك بشهور كمربية لأولادها الصغار الثلاثة . وأبدت فى رعايتها لأولئك الأطفال من الحنان والإخلاص والأمانة مالم تعهده مخدومتها فى أى مربية سابقة لهم ، واكتسبت بأدبها واستقامتها مضافاً إلى ذلك تعلقها الجنونى بالأطفال حب « مسز درايفرز » وزوجها ، حتى اعتبراها بمثابة الأخت الشقيقة لهما ، وأحاطاها بكل ما يملكانه من القدرة على الرعاية والاهتمام .

ولما عرفا منها أن أملها الأكبر فى الحياة أن تصبح مدرسة برياض الأطفال ، وكانت بعد إنتهائها من دراستها الثانوية قد تلقت تدريباً يؤهلها لهذه المهنة ، وجدا من واجبهما نحو هذه المربية الصغيرة العزيزة أن يعيناها بنفوذهما الاجتماعى على تحقيق أملها والاشتغال بمدرسة للأطفال قريبة من منزلهما . . ولكن العجيب فى أمر « إيدا » أنها بمجرد أن عرفت بأن

الموضوع قد أخذ يدخل فى حيز التنفيذ ، غيرت رأيها فجأة وراحت تعارض دون إبداء أى أسباب .

وبالإلحاح على « إيدا » فى قبول الوظيفة تدهورت صحتها بشكل ملحوظ ، فكانت تنتابها حالات إغماء عنيفة وبلا أدنى داع ، بجانب لصداع القاتل الذى يرفض أن يتركها ، ثم المغص الشديد الذى يصيبها بعنف يكاد يفقدها عقلها ، وكثيراً ما يدفعها إلى أن تصرخ وتصرخ كأنها قد أصيبت بالجنون . . وكان يخيل « لمسز درايفرز » أن مربية أولادها يتيمة الأبوين محرومة من الأهل والأقارب ، بدليل وحدتها الشديدة وعدم تصالها بأى إنسان خارج البيت الذى تعمل فيه حتى ولو بالمراسلة ، كذلك كانت تعرف أنها لا تملك من المال إلا المرتب الضئيل الذى تتقاضاه منها ، لذلك اصطحبتها إلى الأطباء على نفقتها ، ولم تبخل عليها بالمال وإن كثر فى سبيل علاجها . . غير أن الأطباء أجمعوا على أنها سليمة من جميع الأمراض العضوية . . ونصحوا بعرضها على الطبيب لنفسى .

ولقد اختارت « مسز درايفرز » هذا الطبيب الذى تعرفه وتثق به ، وطلبت إليه أن يتولى بحث حالتها ولا يضن بجهد أو وقت فى سبيل الوصول إلى حقيقة علتها ، وتعهدت أن تقوم هى بجميع النفقات المطلوبة لهذا لعلاج .

ومن حسن الحظ أن « إيدا » قبلت عن طيب خاطر أن تلجأ إلى لطبيب المذكور ، ولم تتخل ، ولو مرة واحدة ، عن مواعيد الجلسات لتى يقررها لها ، وهذا فى حد ذاته عامل مساعد على نجاح العلاج النفسى ،

ولكنها برغم ما كان يبدو فى سلوكها من ثقة تامة به ظلت تقاوم العلاج النفسى مدة طويلة ؛ وتعاند فى فتح قلبها لطبيبها سنتين كاملتين قبل أن يتمكن من معرفة قصتها الحقيقية بكاملها ، وينجح فى العثور على جذور العقدة النفسية التى أوشكت أن تقضى على عقل « إيدا » وهى ما زالت فى السابعة عشرة من عمرها .

« طفولة قاسية »

كانت « إيدا » الإبنة الوحيدة لأبوين يتمتعان بقدر وافر من الجاه والمال ، ولكنهما مفرطان فى تدينهما لدرجة التزمت الشديد . . لا يؤمنان إلا بحرفية النصوص الدينية ، ولا يسمحان لتفكيرهما وتصرفهما بأن يسايرا روح العصر ويتطورا بتطور مقتضيات الحياة المتجددة . . ولما لم يكن لهما من الذرية سوى « إيدا » فقد ركزا عليها فلسفتهما وأحاطاها منذ بداية حياتهما بنطاق حديدى من الصلابة والجمود .

ومنذ تفتحت عيناها على الحياة وهى تجد نفسها ممنوعة تماماً من الضحك بصوت عال والإفراط فى المرح والجرى بحجة أنه سلوك ماجن لا يتمشى مع وقار التدين .

وفى صباح الأحد من كل أسبوع اعتادا أن يقوداها معهما إلى الكنيسة لتحضر القداس كله من بدايته إلى نهايته ، ثم يعودا بها إلى البيت لتقضى بقية النهار حبيسة بين الجدران ، ولا تخرج منه إلى حديقة المبنى حيث يقضى أطفال الحى يوم عطلتهم الأسبوعية فى مرح جماعى لذيذ . . ولا تشترك فى أى رحلة ترفيهية ، لأن الأحد هو اليوم المقدس فى نظر والديها

ينبغى أن يخلو من جميع الأنشطة الترفيهية . : وحتى الطعام كان دائماً سيطاً متقشفاً ، لا لأن الوالدين لا يملكان القدرة على الإنفاق ، ولا بسبب بخل والتقتير ، بل لإيمانهما بأن التنويع فيه وصنع اللذيذ منه يتعارض تماماً ع روح التقشف التى تبنى الشخصية الأصيلة فى تدينها .

وانقضت السنوات الأولى من حياتها — أى حياة (إيدا) — تحت هذه ضغوط المخالفة تماماً لطبائع الطفولة السليمة ومتطلباتها . : وكان يحدث حياناً أن يفرغ صبرها فتتذرع بالشجاعة وتسأل عن الحكمة فى أن تحرم ى وحدها دون أبناء الحى من لذاتها من المتع البريئة ، فيكون الجواب ائماً بأن الأحد يوم له قداسته الدينية وينبغى على المؤمنين الحقيقيين من حباب الله وخلصائه أن يقضوه فى التأمل الهادئ الوقور . . ثم إن كثيراً ن الأطفال الذين تراهم يمرحون فى حديقة المبنى شريرون ينقصهم الضمير لحى والأخلاق الكريمة ، ومن الخطر على أية فتاة فاضلة أن تصاحبهم و تتمثل بهم فى تصرفاتهم :

وتدهش (إيدا) لهذا الكلام وتتساءل فيما بينها وبين نفسها عن كنه لخطر الذى يكمن فى صحبة أولئك الصغار المرحين الظرفاء ، وما هو نوع شر الذى يحتمل أن يضمروه لمثلها ؟ . :

وتطوف بذهنها مثل هذه الأسئلة مراراً وتكراراً ولكنها لا تجرؤ على لإفصاح عنها ، لأن أهلها الحريصين دائماً على حبها وسعادتها قد علموها ن تقبل أوامرهم قضية لا تحتمل الجدل ، وأن تسلم لهم قيادة حياتها ينظموها ا بلا مناقشة أو اعتراض . :

(ومراهقة بائسة)

وكبرت (إيدا) واشتدعودها على هذا النحو .. وأصبحت بمضى السنين صبية ذكية جميلة متفوقة على زميلاتها وزملائها فى المدرسة بدرجة تبشر بمستقبل علمى عظيم . . غير أن سياسة والديها لم تتغير كما كان ينبغى أن يحدث .. بالعكس ، فدخول (إيدا) فى مرحلة الصبا والمراهقة دفع بوالديها إلى مزيد من التشدد حماية لها من الجموح المألوف فى فترة العمر التى تمربها . . وبقدر ماكانا يحبانها ويسهران على اختها كانا فى الوقت نفسه يقسوان عليها من حيث لا يدريان . ومن ذلك مثلا أنهما كانا يحرمان عليها ارتداء الملابس الحديثة المناسبة التى تلبسها مثيلاتها من البنات . . ويفرضان عليها الفساتين الفضفاضة التى تصل أطرافها إلى ما تحت الركبتين ، وبذلك تبدو بين الأخريات غريبة شاذة وتقاسى من زملاء وزميلات دراستها لواذع السخرية ، وتحتمل كل هذا العذاب وهى راضية بحرمانها من ممارسة جميع الأنشطة المدرسية التى تجرى عادة فى نطاق الدراسة وخارجها ، مثل الرحلات والمعسكرات الصيفية والحفلات الجماعية ، فكان زملاؤها وزميلاتها يستمتعون بوقتهم فى حين تبقى هى فى البيت أو يصطحبها والداها معهما برفقة واحدة أو اثنتين من بنات الأصدقاء الموثوق بتدينهم إلى الشاطئ أو السينما ، الأمر الذى يختلف فى أثره تماماً عن استمتاع الشباب بدون الحرج والضيق والتكلف التى تفرضها عليهم صحبة الكبار .

وبدخول « إيدا » مرحلة الشباب أصبحت لديها القدرة أحياناً على

مقاومة الاتجاهات الدينية المتطرفة المفروضة عليها ، فكانت تجمع شجاعتها فى بعض الأوقات لتواجه والديها بامتعاضها وتناقشهما حكمة القيود التى يكبلانها بها ، فيخيل إليهما أن ابنتهما العزيزة الوحيدة التى بذلا غاية جهدهما فى تربيتها تطوى صدرها على إلحاد شرير ، ولا بد أن يكون ذلك لأن الله قد أراد أن يعاقبهما على أخطاء ارتكباها دون قصد . . وبعد أن يستغفرا ربهما ألف مرة على ما تقدم منهما وما تأخر يعمدان إلى بث الذعر فى نفسها بما يقصانه عليها من أبشع القصص عن الرجال وما جبلوا عليه من النوايا القذرة الشريرة ، وكيف أنهم يتظاهرون بالخير ويتسلحون بالعواطف النبيلة الكاذبة لكى يوقعوا بالساذجات الطيبات من مثيلاتها ، ثم يلقون بهن فى أسواق الرقيق الأبيض حيث يبيعونهن لتجار البغاء وملوك الرذيلة . . فنشأت « إيدا » على الاعتقاد بأن الرجل ذئب شرير ، وأن الاتصال به دمار أكيد ، وأن طريق السلامة فى الابتعاد عنه والانعزال التام عن أى فرصة للاتصال به فى أى مجال كان .

« وبدأت المتاعب »

وكانت (إيدا) إلى هذه اللحظة قد ضربت بسهم وفور فى التفوق العلمى ، وحان الوقت لأن تفكر فى العمل الذى تحب أن تعيش منه فى المستقبل . . . غير أن والديها تناسيا حقها فى اختيار المجال المناسب لميولها ، وقررا — دون العودة إلى رأيها — أن يلحقاها بعد انتهاء الدراسة الثانوية بمعهد معلمات مدارس رياض الأطفال ، لكى تقضى ما تبقى من حياتها برفقة الصغار الأبرياء ، بعيداً عن المجالات الأخرى العامرة بأخطار الكبار .

ومن هنا بدأت المشاكل تنذر بالانفجار القريب . . . . .

فـ(إيدا) لم تكن تفكر مطلقاً فى هذا الطريق المهنى ، ولا تحب أن تسلكه على الإطلاق ، وأملها الوحيد أن تتخصص فى شئون المكتبات حيث الأعمال الأدبية والفنية التى تلائم مواهبها الطبيعية وتشبع ميولها التواقة إلى الارتقاء فى عالم القلم والفكر . . . وكانت البادرة الأولى لعصيانها أن رفعت رأسها فى مواجهة أهلها وأبت بكل عناد أن تعد نفسها لمهنة تدريس الأطفال ، وظلت متمسكة برأيها لا تحيد عنه برغم طول المناقشات والمحاولات فى الإقناع . . . ولم يمض وقت حتى اكتمل الانفجار .

إذ التقت (إيدا) ذات يوم وعلى حين فجأت بشاب ممتاز من كافة الوجوه على خلق عظيم وكفاءة طيبة ، متعلم مهذب وقور ، وكانت تعرفت به بدون علم أهلها لدى بعض الأصدقاء الذين تتردد عليهم خفية ، فارتاحت إليه مثلما ارتاحت نفسه إليها . . . ثم تطورت المعرفة إلى حب شديد . . . لكنه حب شريف لا يخرج مطلقاً عن حدود الوقار — ولا يستهدف سوى أقدس روابط الحياة وهو الزواج بدون أى تفريط سابق ، أو ممارسة حريات مما اعتادها الشباب الأمريكى .

وقدمت (إيدا) (چورچ) إلى والديها ، وطلبت موافقتهما على زواجها به لكنهما رفضا بمنتهى الإصرار . . . وركبا رأسيهما بغاية العناد . . . لا لنقائص فى الشاب تعيبه وتقلل من أهليته لمشاركة هذه الفتاة الطيبة الحياة . . . بل لأنه ينتمى إلى مذهب مسيحى يختلف عن

أسرتهم ، ويؤدى فرائضه الدينية فى كنيسة غير كنيستهم ، وطال النقاش والحوار حول هذا الموضوع ، وحاولت (إيدا) من جانبها أن تقنعهما بخطأ التفرقة بين مؤمن ومؤمنة فالكل أمام الله سواء ، ومن التزمت الأعمى أن يحكم عليها بالحرمان من السعادة مع شاب بهذا الامتياز لمجرد اختلاف مذهبه . . . لكن الكلام ذهب هباء ، وظل الأبوان على عنادهما ومعارضتهما غير المنطقية ولا المستساغة .

وبدون أى سبب أو مبرر بدأت تظهر على الفتاة التى عاشت حياتها كلها مثلا للصحة والعافية أعراض مرضية ، حار الأطباء فى تشخيصها ، وخابت العقاقير المختلفة فى علاجها . . . من ذلك الصداع الرهيب الذى لا يرحم رأسها لا بالليل ولا بالنهار . . . وأرق عنيف يحرمها لذة النوم . . . وتقلصات فى أحشائها تسبب لها ما لا قبل لها به من الأوجاع الشديدة . . . . . .

وبتأثير هذه المتاعب فقدت (إيدا) شهيتها للطعام وامتنعت عن الأكل ، فأصابها الهزال والضعف ونحل جسدها فوق نحوله الأصلى .

وذات صباح استيقظ الأب والأم ليجدا أن ابنتهما المطيعة دائمًا قد جمعت حوائجها بالليل وهربت من البيت ، ومن رسالة مقتضبة تركتها عرفا أنها ذهبت مع صديقها الشاب إلى غير رجعة ، وطلبت إلى والديها ألا يبحثا عنها إذ ليس فى نيتها أن تعود إليهما أو تبقى على أية صلة بهما .

ومع ذلك حاول الأب والأم أن يبحثا عن ابنتهما الوحيدة العزيزة ، ولم يتركا وسيلة للاهتداء إليها ، لكن جهودهما خابت تمامًا واختفت (إيدا) كما تختفى الإبرة فى أكوام ضخمة من القش .

« الانتقام »

وبعد أن أفضت (إيدا) إلى طبيبها النفسى بقصة حياتها كاملة صارحته أيضاً بما فعلته بعد أن هربت مع (چورچ) من بيت أسرتها .... فبالرغم من أنهما اتفقا على الزواج بعد ثلاثة أيام واستخرجا الرخص والتصاريح الرسمية الضرورية لذلك ، وجدت . . . أنها لسبب لا تدريه تغرى خطيبها . وتقدم له نفسها ملحة فى الاتصال الجنسى به ، قبل أن يجمع القس بينهما فى إطار الدين والحلال . . . وضعف (چورچ) بدافع من حبه ، وحقق لـ (إيدا) رغبتها ، ولكنه فوجئ فى صباح اليوم التالى بهربها منه ، واختفائها من حياته دون أن تترك كلمة ترشده إلى سبب هجرها المفاجئ ، ولا المكان الذى يمكن أن يجدها فيه . . . . .

وبعد تسعة أشهر وضعت (إيدا) صبياً صغيراً فى أحد المستشفيات المجانية ، ورفضت أن تفضى لإدارة المستشفى بأسم والده أو بمكان أسرتها وأسرته .

كما أنها أبدت نفوراً شديداً من الطفل لدرجة أنها أبت أن تراه أو ترضعه بعد الولادة ، وكتبت تنازلا عنه لإحدى مؤسسات التبنى ، وطلبت أن يخفوا عنها الأسرة التى تتبناه لكى تقطع الطريق بينها وبينه إلى الأبد . . .

ولقد حاول الباحث الاجتماعى للمؤسسة أن يقنعها بغير ذلك ، كما ألح فى معرفة الأسباب التى تدعوها إلى التمسك بهذه الشروط ، ولكنها إختارت الصمت التام ، ولم تشأ أن تنطق بكلمة واحدة فى هذا الموضوع . . . وكان من عجيب التغيرات التى أصابتها بعد ذلك أنها بعد أن كانت

تكره تربية الأطفال وتعليمهم راحت تبحث عن وظيفة مربية لهم حتى عثرت على أسرة (مسز درايفرز) ، وأبدت فى عطفها على الأطفال وشفقتها بهم ما يتعارض تماماً مع اتجاهها نحو طفلها .

والأعجب من ذلك أنها أبدت لمخدومتها رغبتها فى احتراف مهنة التدريس بمدارس الأطفال ، على عكس ما كانت تريده أيام وجودها مع أسرتها ، ومعارضتها العنيفة لرغبة والديها فى احتراف مهنة تدريس الأطفال .

« أصل العقدة »

ويقول الطبيب النفسى الذى تولى علاجها : إن (إيدا) مثل واضح لضحايا الصراعات النفسية التى تصيب الفتيات فى مقتبل حياتهن فتملأ صدورهن بالعنف الذى يلقى بهن فى أتون الإجرام والخطيئة . . . فهذه الفتاة — مثل غيرها من ضحايا تزمت الأهل — لجأت بدافع من الرغبة فى التحدى إلى تحطيم نفسها متصورة أنها بذلك تحطم قيود الاستبداد التى كبلها بها والداها ، وتنتقم منهما لحرمانهما إياها من الاستمتاع بطفولتها وصباها ومسايرة روح العصر الذى يعيش فيه زملاؤها وزميلاتها .

فمثيلات (إيدا) من البنات الطيبات لا يخطئن رغبة فى الخطيئة ، ولكن بدافع التحدى والانتقام وبتأثير الصراع النفسى الدفين . . أصابتها الأمراض الغامضة أولا ، ثم هربت مع خطيبها . . . مع أنه كان من السهل عليها أن تقنع (چورچ) بتغيير مذهبه ، وما كان ليرفض ذلك على الإطلاق نظراً لسماحته وتعلقه الشديد بها .

ولكن العقد المتمكنة من عقلها الباطن دفعتها إلى عدم الالتجاء إلى هذا الأسلوب العادى الأخلاقى ، وزينت لها دون أن تدرى أن تنتقم من والديها بإبقائه على مذهبه الدينى وبتقديم نفسها له قبل الارتباط الشرعى .

ويقول الطبيب أيضًا : إن (إيدا) بمجرد أن حققت انتقامها ، أفاقت صباح اليوم التالى فجأة على قبح ما فعلته وتحركت مشاعر التدين الأصيلة فى نفسها ، ودفعها الندم الشديد إلى كراهية الرجل الذى انصاع لرغبتها حين أرادت أن تتخذه للانتقام ، واعتبرت هذا الرجل الجانى عليها ، ورغبة فى أن تعاقبه بالمثل على الاشتراك معها فيما لا يرضى الله . . . . . هربت من حياته وقطعت كل صلة به وضيعت عليه فرصة الزواج منها لإصلاح الخطأ . . . .

واتسع حقد (إيدا) على نفسها وشمل الطفل أيضًا ، فرأت من خلال ثورة الندم التى انتابتها أن تعاقبه هو الآخر بالتخلى عنه نهائيًا باعتباره رمز الخطيئة التى ارتكبتها فى ساعة حقد ومرارة ، وتمسكت بضرورة تركه لمؤسسات التبنى لكى يكون حرمانها منه هو العقاب الذى تستحقه ، بل العقاب الذى يستحقه أبوه أيضًا ، الذى تحول فى ذهنها من أداة لانتقامها إلى شريك بغيض فى الجريمة المتنافية تمامًا ، مع تعاليم الدين وأصول الأخلاق ، وغلبها إحساسها بالذنب نحو والديها ، واختلط بمشاعر الأمومة القوية فى نفسها فلجأت إلى الرغبة فى تربية الأطفال الآخرين وتعليمهم . . . أولاد الحلال الذين جاءوا إلى هذه الدنيا مطهرين من وصمة الخطيئة التى تلوث ابنها . . . . فكان موقف (إيدا) من نفسها ذا شقين : موقف

المذنب المؤمن بخطئه ، وموقف القاضى الملزم بإنزال أقصى العقاب على المذنبين . . . .

ويؤكد الطبيب أنه عندما أفلح فى الوصول إلى عقدة (إيدا) وأمكنه بالعلاج الطويل أن يطفو بهذه العقدة من أغوار العقل الباطن إلى أنوار العقل الواعى ، رأت الفتاة الحقيقة أمامها سافرة واضحة وفهمت أصول الدوافع والتصرفات التى أتتها ، فعادت إلى طريق العقل والحكمة .

وكان أول ما فعلته مغتبطة أن اتصلت بوالديها لتصل ما انقطع بينها وبينهما من ود، ثم كتبت إلى (چورچ) ترشده إلى مكانها، وتزوجت به لفورها . . . كما أنها استردت طفلها من المؤسسة وأغدقت عليه كل ما يطويه صدرها من حنان وحب ورحمة ، وعاشت معه ومع أبيه وكأنها تحلق فى سماء الهناء اللانهائى . . . وذهبت عنها جميع أمراضها واستعادت صحتها ، كما أبدت نفورها من تعليم الأطفال والتحقت بعمل فى إحدى المكتبات العامة لتحقق من خلاله طموحها إلى مستقبل أدبى مرموق ....

ويمكننا أن نلخص أخطاء الوالدين فى النقط التالية :

أولا ــ أنهما فرضا عليها منذ البداية فى حياتها قيوداً دينية وأخلاقية لا تساير روح العصر ، وبذلك حرماها من أن تعيش مثل غيرها من أبناء جيلها ، وأفسدا حياتها بمشاعر أقوى من أن تحتملها .

ثانيًا ــ أنهما رسما لها الرجل فى صورة الوحش الأنانى الذى يعيش ليدمر حياة الفتاة البريئة ويورثها الخزى، مما دفعها إلى التوحش هى أيضًا فى الانتقام من خطيبها والإساءة إلى طفلها منه .

ثالثًا – أنهما لم يراعيا ميولها الخاصة فى الدراسة فصممت على أن تتخصص فى تعليم الأطفال ، الأمر الذى كانت تكرهه وترغب فى طريق مهنى آخر يختلف عنه تمامًا .

ويختم الطبيب النفسى كلامه بأن (إيدا) كانت سعيدة الحظ . لأنها صادفت امرأة فاضلة مثل (مسز درايفرز) التى ساعدتها بالمال والحب والرعاية على التخلص من مرضها النفسى ، على عكس آلاف غيرها ممن تعرضن لنفس المتاعب ولم يجدن العون ، فتحطمن نهائيًا ، إما بالتدهور فى مهاوى الرذيلة أو قضاء بقية حياتهن بين أسوار المستشفيات العقلية .

"سلفادور" يُعلن الحرب على الظّلم

* إن الحب هو عماد الحياة الإنسانية . . . ومن الضرورى أن يتناول الإنسان جرعاته المشبعة من بداية حياته ، ولو أن سلفادور نال حقه من هذا الغذاء لما تحول إلى ذلك السفاح الذى هز المجتمع الأمير يكى ببشاعة فعلته. . . .

إنها جريمة بشعة ارتكبها صبى منحرف بدأت مأساته مع بداية حياته نتيجة لحرمانه من حنان أمه فى أشد أوقاته احتياجاً إليه . . والقصة لمذبحة حدثت ذات مساء من شهر أغسطس بإحدى ساحات اللعب المعدة لأبناء الأحياء السكنية بمدينة نيويورك ؛ ولقد قتل فى هذه المذبحة ثلاثة صبيان صغار لا يتجاوز عمر أكبرهم أربعة عشر عاماً ؛ كما أصيب ثلاثة آخرون بجراح بالغة الخطورة. ولقد اهتز المجتمع الأمريكى من الأعماق عندما علم أن « القصاب » الذى تولى القيام بهذه المذبحة لم يكن سوى صبى صغير فى السادسة عشرة من عمره . والأبشع من ذلك أنه لم يكن يعرف ضحاياه ولم يسبق له أن قابل واحداً منهم ، وقدأمكن للشرطة الاهتداء إليه من الأوصاف التى أدلى بها الجرحى من ضحاياه .

وعند القبض عليه ذهل الحاضرون حين صاح بينهم يقول صارخاً : « أرجو أن يحكموا على بالإعدام كى تتفرج أمى علىّ وأنا أحترق أمامها فى الكرسى الكهربائى ! »

وكانت أمه تعرف فيه ميله إلى التدين ، فبعثت إليه فى السجن بنسخة من الإنجيل يتسلى بها فى وحدته ، لكنه فاجأ الجميع مرة أخرى بإلقاء الإنجيل خارج زنزانته رافضاً أن يبقيه معه . .

وكان القصاب الصغير هو صبى أمريكى من أصل إسپانى اسمه « سلڤادور أرجون » . . صغير الحجم . . . وسيم الشكل . . يميل إلى التدين يبدو دائماً هادئاً طيعاً ، لا يعاند ولا يكابر ولا يخالف التوجيهات إلا مضطراً . وقد ثبت فى أثناء المحاكمة أنه فى الليلة المشؤومة غطى رأسه بقلنسوة مثل « دراكيولا » ـ الشخصية السينمائية المعروفة لمصاص الدماء ـ

ثم تسلح بخنجر طويل حاد ومظلة لها طرف مدبب كالحربة ، وتسلل إلى ساحة اللعب بالليل ، وانهال على الفتيان طعنًا بالخنجر وطرف المظلة ، فقتل ثلاثة وترك ثلاثة آخرين بين الحياة والموت !

مأساة حياته :

وكشفت محاكمة « سلڤادور » عن مأساة حياته ، فقد ولد الصبي من أم فى الثامنة عشرة من عمرها وأب فى السادسة والثلاثين . وبعد مولده بمدة وجيزة ضاق الأب بقيود الأسرة ، فانطلق على هواه يعب من الخمر عبًّا ثم يعود فى آخر الليل إلى بيته مخموراً لينكل بزوجته الصغيرة المسكينة .

واحتملت المرأة صنوف العذاب ، إلى أن فاضت بها الكأس يومًا فحملت طفلها وهربت من البيت إلى غير عودة . وتلفتت حولها فلم تجد مكانًا تلوذ به سوى ملجأ للفقراء تديره مجموعة من الراهبات الكاثوليكيات بقصد معونة العجزة والشيوخ والمجانين . وقد قبلت إدارة الملجأ أن تؤوى الطفل الصغير بين نزلائها مقابل أن تعمل أمه خادمًا فى المكان ، وبشرط أن تقطع صلتها تمامًا بابنها فلا ترعاه أو تقترب منه . وقضى « سلڤادور » بهذا الملجأ أول ثمانى سنوات من عمره . .

وفى خلال هذه الفترة الخطيرة فى أثرها النفسى والتربوى على الحدث ، خاض أقسى التجارب وأمرها فى الحياة ، إذ كانت الراهبات ينكلن به لأبسط هفوة تصدر منه ، ولا يعطينه من الطعام ما يكفى لسد رمقه ، ويتركنه ينام بالليل فى الظلام الدامى يرتعد وحده لصراخ المجانين المقيمين معه بالملجأ .

وخوفاً من أن يتبول على نفسه كن يتركنه على « القصرية » بالساعات ، وإذا بلل فراشه بعد ذلك يعاقبنه بالضرب المبرح . .

ولقد أتت هذه المعاملة القاسية بعكس النتيجة . إذ ظل « سلڤادور » يتبول على نفسه إلى أن اشتد عوده وكبر . وكانت الراهبة حينئذ تأمره بتغطية رأسه بالملاءة المبللة بالبول ، وتطوف به على العجزة والشيوخ والمجانين والمعاتيه محرضة لهم على إهانته والتنكيل به . . كل هذا والأم ترى ابنها يحترق بلهيب العذاب والخزى والحرمان ، فلا تجرؤ على الاقتراب منه والتخفيف عنه ولو بقبلة أو ضمة أو كلمة حانية .

وكلما نفد صبرها لا تجد أمامها سوى طريق السلبية . فتهرب من الملجأ تاركة ابنها وحده فى أتون العذاب . . . وتختفى أسابيع أو شهوراً ، ثم لا تلبث أن تعود لترقب ابنها مرة أخرى فى أثناء قيامها بالعمل من بعيد . .

ولقد أدى تكرار اختفاء الأم إلى أن أصيب « سلڤادور » بحالة من الرعب الدائم الذى يلازمه بالليل والنهار ، خشية أن تذهب أمه يوماً ولا تعود . . . وخوفاً من أن يحدث ذلك دأب على انتظارها كل مساء عند انتهاء موعد عملها ، ويظل يصرخ ويبكى راجياً أن تصحبه معها حتى يصل صوته إلى آذان الراهبات ، فيسرعن إليه ويفصلنه عنها ، وينزلن به العقاب اللازم جزاء عصيانه . . .

وبدت بارقة من الأمل فى أفق « سلڤادور » عندما تزوجت أمه بمبشر لأحد المذاهب الدينية النادرة فى أمريكا . ورضى هذا الزوج أن يعيش الابن معهما ، فخرج الصبى من الملجأ ليستنشق نسيم الحرية

لأول مرة فى حياته . لكن النحس الذى لازمه منذ مولده أبى إلا أن يتبعه فى حياته الجديدة ، فقد ظهر بعد وقت قصير أن المبشر يكره « سلڤادور » من كل قلبه ، وأن الدين الذى يبشر به لم يستطع أن يروض قسوته البالغة ، فكان يقفل على الطعام — حتى الخبز — بالمفتاح حتى لا تصل يد الصبى إليه إذا استبد به الجوع . . يهينه ويضربه ويطرده من البيت بالليل لأبسط هفوة لا تستحق العقاب ، فلا يجد المسكين مكانًا لمبيته سوى أرصفة الشوارع أو مداخل العمارات أو مقاعد الحدائق العامة .

وترى الأم هذا الجحيم المستعر الذى يحترق فيه ابنها ، فتتعذب فى صمت ولا تمد يدها لمعونته ، خوفًا من أن تغضب زوجها فتفقده . وحدث ذات مساء أن انهال زوج الأم على « سلڤادور » ضربًا ، فخرج الصبى ولم يعد ، وبعد أيام ارتكب جريمته البشعة .

النشأة الصالحة

ويقول الطبيب النفسى الذى وكل إليه دراسة حالته قبل تقديمه للمحاكمة : إن الإنسان لكى ينشأ نشأة تربوية صالحة تساعده على الاستمتاع بشخصية قوية سليمة يحتاج بالضرورة إلى أن يعيش طفولته الأولى بكل أبعادها دون أى قيد خارجى يشكل ضغوطًا نفسية أو جثمانية عليه .

ولكى يعيش طفولته بكل أبعادها ينبغى أن يترك — خصوصًا خلال العامين الأولين من عمره — على سجيته يمارس الحريات الطبيعية التى

تقتضيها طبيعة هذه الفترة المبكرة من العمر ، ومعنى ذلك أن يأكل عندما يجوع ، ويتبول حينما يشاء .

ومحاولة منع الطعام عنه وحرمانه من حرية التبول على نفسه بفرض نظام صارم لا يستطيع الطفل أن يدرك معناه ، ولا تقوى طبيعته على اتباعه ، يؤدى إلى حرمانه من حقه فى التمتع بطفولته التى هى غذاء روحى يبنى الأساس القوى لشخصيته ، ويدفعه بفعل الضغط عندما يكبر إلى العودة إلى الطفولة فى أثناء نومه وهى حالة اللاوعى فى حياة الإنسان لممارسة الحريات الطبيعية التى حرمها .

لذلك ينبغى على الأم الواعية العاقلة أن تتجنب تنظيم تبول الطفل خلال السنتين الأوليين من حياته ، وأن تبدأ فى تنظيمه بالتدريج بعد ذلك ؛ فتبول الطفل على نفسه بعد السن المعقولة لذلك هو بمثابة الاحتجاج الشديد على الضغط الظالم الذى فرض عليه فى بداية حياته ويحرمه حقه فى الاستمتاع بطفولته . وهذا ما حدث لـ « سلڤادور » فقد حرمته الراهبات بقسوتهن البالغة من أن يعيش الفترة الأولى من حياته على سجيته ، وبذلك سلبنه طفولته وسلبن معها فرصته فى أن يبنى شخصية سليمة . ولقد أضفن إلى هذه الجريمة جريمة أخرى وهى التنكيل به لاستمراره فى التبول بعد أن شب عن الطوق وكبر ، فدفعنه بذلك إلى أن يرى نفسه فى صورة الوحش الكاسر الذى خلق لارتكاب أبشع الأخطاء ، وأن يمارس حياة هذا الوحش وهو فى السادسة عشرة من عمره .

ولم تكن مصادفة أن ارتكب « سلڤادور » جريمته الوحشية وهو

يغطى رأسه بقلنسوة حمراء ويتدثر بعباءة سوداء فضفاضة ، فالقلنسوة ترمز إلى غضبه الهائل المكبوت لما عاناه من ظلم بلا مبرر ، والعباءة ترمز إلى ملابس الراهبات اللاتى أسرفن فى تعذيب حياته .

فالعالم الذى تعامل معه فى طفولته وصباه صور له نفسه فى شكل « دراكيولا » مصاص الدماء ، فلما أفلت منه زمام نفسه اختار أن يتحدى المجتمع الإنسانى بالشكل والمنظر ذاتهما . .

ويؤكد العلم أيضًا أن أهم عنصر فى بناء الشخصية السليمة أن يحس الإنسان ، خصوصًا فى بداية حياته ، بأنه مرغوب فيه خصوصًا من قرب الأقربين إليه ، فهل أعطى « سلڤادور » فرصة الإحساس بذلك ؟

الجواب طبعًا بالنفى ، فأبوه لم يكن يريده منذ مولده بدليل قسوته على زوجته وتخليه نهائيًا عن ابنه ، كذلك تخلت أمه عنه أيضًا عندما وضعته فى الملجأ راضية بشروط الراهبات التى تنص على فصله التام عنها .

ولقد أمعنت الأم فى تخليها عنه بهربها المستمر من الملجأ ، ثم عودتها بعد أسابيع كثيرة أو شهور طويلة . . . كذلك زوج الأم ، فقد أثبت هو الآخر عدم رغبته فى الصبى ، بمواصلة ضربه وإهانته وتجويعه وطرده بالليل إلى ظلام الشارع ، حيث لا فراش ولا أنيس ولا مأوى .

فكأن الظروف تكاتفت لتقنع « سلڤادور » فى جميع مراحل حياته بأنه مخلوق تعس لا يريده أحد . وما دام الجميع لا يريدونه فهم يتمنون القضاء عليه دون ذنب جناه .

هذه الأوهام البشعة والمشاعر الحزينة التى أوجدتها ظروفه المثقلة

بالعذاب والحرمان ، هى التى دفعته إلى القضاءعلى صبيان آخرين أبرياء لم يسئ أحدهم إليه . مثلما لم يسئ هو إلى أحد . ومع ذلك تجرع من العذاب أنواعًا مختلفة .

فالطفل — كى يتحول إلى إنسان كبير سليم النفس والأخلاق — يحتاج أكثر ما يحتاج إلى الشعور برغبة الآخرين فيه . لا بالكلام المفتعل ، بل بالعطف والحنان والرفق والتسامح بالابتسامة الحلوة والقبلة الرقيقة والضمة الحانية والاستعداد لحبه بكل أخطائه ومساوئه .

أكبر الجرائم

لقد عاش « سلڤادور » حياته كلها خائفًا نتيجة لعصله عن أمه وهو فى أشد الأوقات احتياجًا إليها ، عندما كان ينام بالليل بعيداً عنها فى الملجأ يطوقه الظلام المليء بأسباب الرعب للأطفال . . . تطارده صرخات المجانين من النزلاء . . . يهدده الجوع الذى لم يجد مطلقًا من يعمل على إسكات وجيعته فى بطنه . . ويتربص به بطش الراهبات لكل هفوة تصدر منه دون قصد .

هذا الخوف الدائم كان سببًا رئيسيًّا فيما أصابه من انحراف انتهى بارتكاب هذه الجريمة البشعة . نتيجة لانهيار جميع القيم التى كان يتوكأ عليها . . ويتمثل ذلك فى رفضه الإنجيل مع كونه صبيًّا يميل بطبعه إلى التدين ، وفى قوله عند القبض عليه : « أرجو أن يحكم علىّ بالإعدام كى تستمتع أمى برؤيتى وأنا أحترق فى الكرسى الكهربائى » ؛ فقد صدرت

هذه الصرخة بصورة تلقائية معبرة عما يضيق به صدره من الاحتجاج الشديد على تخلى أمه عنه فى الطفولة . . . فالحب هو عماد الحياة الإنسانية ، ومن الضرورى أن يتناول الإنسان منه جرعات مشبعة من بداية حياته ، فالحرمان من الحب كثيراً ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ، ويدفع المحروم إلى ارتكاب أبشع الجرائم .

والحب يبدو فى عطف الأم على طفلها وحرصها على البقاء بجانبه دائمًا حتى لا يفتقدها عندما يحتاج إليها ؛ وهو إذا جاع فعلى أمه أن تسرع بإطعامه ، وإذا صرخ بالليل مناديًا فعليها أن تأخذه فوراً بين أحضانها تهدهده وتدلله حتى تعيد إليه هدوء نفسه واطمئنانها . . وإذا كان يخاف من الظلام فمن الضرورى أن تضاء غرفته بنور بسيط يبدد الظلام من حوله .

فالطفل فى بداية حياته لا يخاف إلا من الموت : إذا جاع ولم يجد الطعام فى متناوله يخاف أن يموت ؛ وإذا سمع أصواتًا مزعجة ولم يجد الصدر الحنون الذى يضمه ويهدئه يخاف أن يموت ؛ وإذا فُرض عليه أن يفعل شيئًا لا يستطيع القيام به يخاف أن يموت . . والخوف من الموت هو العدو الأول للشخصية السليمة ، وإذا لم يعالج بالحب والفهم والحنان والعطف يؤدى إلى إغراء الشخص بقتل الآخرين تخلصًا من رعبه . . .

أما عن مصير « سلفادور » فلقد عجز التحليل النفسى عن إفادته ؛ لأن الضرر كان قد توغل وتخطى مرحلة العلاج . ولما كان فى السادسة عشرة

من عمره فقـد اعتبر بحكم القانون بالغًا ، فصدر الحـكم عليه بالإعدام ، ولكن نظراً لظروفه الخاصة شمله وزير العدل برأفته ، وأبدل الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وبذلك أضاع عليه الأمل فى الانتقام من أمه التى تخلت عنه ، وتعذبت برؤيته يحترق على الكرسى الكهربائى .

"بيل" ينتقم من أبيه

* إن المثل الأعلى للصبى فى سن الطفولة هو أبوه ، وهو يتعلم الكثير من هذا الأب عن طريق تقليده . . فإذا لم ير منه سوى القسوة ، اختار لعقاب أبيه الأسلوب نفسه .

القاتل الصغير

هو صبي في الحادية عشرة من عمره اسمه « بيل »، ينتمي إلى أسرة طيبة لديها من أسباب المال والجاه والمعرفة ما كان ينبغي أن يهيئ للأطفال كافة فرص النجاح في الحياة، لو أن الأهل عنوا في تنشئتهم باتباع الأسلوب التربوي السليم . . . وكان « بيل » وأخته الصغرى «جينيفر» هما الطفلان الوحيدان لوالدهما رجل الأعمال الجبار المسيطر. ومن سوء الحظ أن الأم كانت أضعف شخصية من أن تستطيع الحد من جبروت زوجها ومعالجة آثار أخطائه التربوية في أولاده ؛ مما أدى إلى دمار « بيل » وهو مازال في بداية العمر . .

فقد شاء القدر أن يأتي هذا الصبي إلى الحياه متوسطًا في كل شيء . الذكاء والشكل وخفة الروح ، وأن تأتي « جينيفر » بعده بسنتين على العكس تمامًا : جميلة نشيطة لماحة .

والظاهر أن الأب شعر في قرارة نفسه بأن ابنه البكر قد خذله بتوسطه في كل شيء . فصب نقمته عليه . وآثر « جينيفر » بكل ما يملك من أرق المشاعر والأحاسيس . فكان يدللها بإفراط . ويتقبل بمنتهى السماحة والرضا جميع ما يصدر عنها من أخطاء ومخالفات ، وينصرها دائمًا على أخيها « بيل » بالحق والباطل . . . في حين أن « بيل » لا يذكر أنه رأى والده ولو مرة واحدة يبتسم في وجهه أو يربت بيده على رأسه أو يُطوق جسده الصغير بذراعيه القويتين كما يفعل دائمًا

مع أخته . . . مضافاً إلى ذلك القسوة فى العقاب بالضرب أو التسفيه أو السب الموجع للنفس أكثر من التأديب البدنى كلما جاءت الشهادة المدرسية بدرجات أقل مما يريده الأب ، أو يتأخر الصبى ولو دقائق معدودات عن الموعد المقرر لعودته من المدرسة . . .

وعاش « بيل » إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره فى حالة من الغليان النفسى المكبوت ، وظلت حرارة هذا الغليان ترتفع دون أن يظهر لها أثر فى وجهه أو تصرفاته ، حتى بلغ الضغط أقصاه وأصبحت المحنة فى انتظار الشرارة المولدة للانفجار . .

ولقد وقع المحظور ذات مساء وعلى غير انتظار ، عندما عاد الأب إلى بيته من رحلة اقتضت غيابه أياماً ، وهرع « بيل » و « جينيفر » لاستقباله عند الباب فرحين بلقائه فإذا بالأب يفتح ذراعيه على سعتهما لابنته ، ويضمها إلى صدره ، وهو يمطرها بقبلاته ويناجيها بأرق ألفاظ التدليل . . وعز على « بيل » أن يظل منسياً فى مكانه فقال لأبيه كى يجتذب بعض اهتمامه إليه : « أهلا يابابا ! » فأجاب الأب بمنتهى الجفاف والاقتضاب قائلا : « أهلا ! » دون أن يذكر اسمه أو يدير وجهه عن ابنته الحبيبة المفضلة ، عندئذ لم ير بيل مفراً من أن ينسحب إلى غرفته ليعالج وجيعة قلبه بأداء واجباته المدرسية ، واستذكار دروسه ، علّه ينجح فى الحصول على درجات طيبة فى نهاية الشهر ترضى والده عنه وتلين مشاعره نحوه . . وانكب « بيل » على كتبه ، وانهمك فى دروسه ، ولكن لم تكد تمضى دقائق معدودات حتى انفتح باب الغرفة ودخلت « جينيفر » كالإعصار لكى تدعوه إلى تسليتها بمشاركتها فى

اللعب بعد أن نالت كفايتها من تدليل « بابا » وتاقت نفسها إلى التغيير . .

وكانت الواجبات المدرسية كثيرة ومعقدة . فرفض « بيل » أن يلعب مع أخته . فإذا بها تخطف الكتب والكراسات من أمامه وتجرى بها حول الغرفة . ولما لم يغير ذلك من موقف « بيل » قالت له مهددة « إذا لم تلعب معى فسوف أذهب إلى أبى وأدعى أنك ضربتنى كى يؤذيك . فأنت تعرف كم يحبنى ويفضلنى عليك ! » .

وجاء هذا التهديد الموجع بمثابة الشرارة التى ولدت الانفجار . فقد طاش عقل « بيل » لما سمعه من أخته ، وخرج من الغرفة جريًا . وعاد لفوره يحمل بندقية والده . فأفرغ رصاصها فى جسدها ثم ألقى بالبندقية فوق الجسد الصغير المسجى على الأرض وسط بركة من الدم . وجلس على المقعد يتنفس الصعداء . .

واهتز المجتمع الأمريكى من الأعماق لهذه الجريمة البشعة . وزاد الموقف قبحًا ما ورد على لسان المحققين من أن الصبى القاتل يرفض بعناد وإصرار أن يبدى الندم على ما فعل . . ولما كان « بيل » ما زال حدثًا . والقوانين لا تسمح بمحاكمته كالكبار . فقد أحيل عن طريق المحكمة إلى مؤسسة طبية متخصصة فى علاج أمراض النفس المؤدية إلى الانحراف . وعهد إلى طبيب مشهور ببحث حالته وعلاجها إن أمكن .

ويقول الطبيب فى أسباب وظروف الانحراف المدمر للأبناء والبنات إن الأهل يتصورون أن البراءة التامة هى طابع الطفولة ، وهى غلطة شائعة

فنَدَّدَها العالم « فرويد » حين أثبت بالأسانيد العلمية أن الطفولة ليست بريئة كما يسود الاعتقاد . . فنوازع الشر توجد فى نفس الصغار من البداية وبصورة أشد عنفًا من الكبار ، ذلك أن الكبار لديهم من الإدراك والنضج والفهم ما يمكنهم من السيطرة على مشاعرهم ، فى حين أن الطفولة محرومة من هذه العوامل المهدئة . . ونوازع الشر فى الطفل يمكن بكل سهولة أن تموت من تلقاء نفسها ولا يبقى لها أدنى أثر إذا احتوتها بيئة تربوية صحيحة يتوفر للصغير فيها كافة ما يحتاج إليه من الغذاء العاطفى لنفسه المتحرقة إلى الحب والحنان والتسامح والتقدير لظروفه . . ولكنها تنتعش وتكبر وتتفرع بالتربية الخاطئة ، أى بالصرامة والجفاء والقسوة والظلم فى المعاملة ، وحتى إذا عمل الوالدان على كبت نفورهما من الطفل أو أخفيا احتقارهما لمواهبه المتوسطة أو الهزيلة ، وحرصًا على عدم النطق بكلمة واحدة تدل على شعورهما الحقيقى نحوه ، فلا جدوى من ذلك ، لأن الطفل بغريزته الفطرية مزود بالقدرة على قراءة المشاعر والأفكار من خلال النظرات الموجهة إليه . إنه قادر على التفرقة بين الأصالة والإخلاص ، والتظاهر والادعاء فى معاملة والديه له . . وإذا فطن الطفل إلى أنه غير مرغوب فيه أو أنه محتقر من أهم شخصين بالنسبة له فى هذا العالم الكبير وهما والداه ، تثور شياطين الحقد فى صدره ، وتكبر مع الأيام ويتسع شرها إلى أن تأتى اللحظة المناسبة التى يزيد فيها الضغط على قوة الاحتمال فيحدث الانفجار بشكل من أشكال الانحراف العنيف .

وبناء عليه فالانحراف لا يهبط على الصغير فجأة ، ولا يأتى بعشرة

السوء كما يظن البعض ، إنما تتجمع عناصره ذرة ذرة بالحرمان من التقدير والحب والعطف ؛ وحتى إذا أتى الانفجار فى سن العشرين أو الثلاثين فالأصل فيه يعود دائمًا إلى مشاعر الغضب والحقد والشعور بالظلم فى مرحلة الطفولة الأولى .

ومن طبيعة الطفل أنه يريد دائمًا أن يكون محبوبًا من والديه لنفسه فقط . لا لأنه جميل الشكل أو خفيف الروح أو ذكى أو مجتهد فى دراسته .

فلكى تموت نوازع الشر فى صدره ينبغى أن ينال هذا الحب من والديه دون مقابل وأن يجد مكانه الفسيح فى قلبيهما الكبيرين مهما كانت عيوبه . فليست غلطته أنه جاء إلى الحياة غبيًا . . . أو بليداً . . . أو متوسط الذكاء أو دميم الشكل . . أو ثقيل الدم . . بل إن الطفل الفقير فى مواهبه أحوج إلى الحب والعطف والتقدير من أخيه الذى أكرمته الطبيعة بمواهب فائقة تأتيه بالحب والتقدير دون جهد من ناحيته . ولو حاولنا تطبيق هذه المبادئ على حالة « بيل » لوجدناها واضحة للغاية .

فلقد جاء إلى الحياة ولا ذنب له فى نصيبه المحدود من المواهب . وبدل أن يُغْمَر بالعطف والحنان لكى يعوض بهما ما ينقصه ، استبد به والده وضغط عليه أكثر مما تحتمل مشاعره : فقد طالبه فى دراسته بأضعاف ما يستطيع . وقسا فى زجره وتأديبه على أمور لا حيلة له فيها ؛ والأبشع من هذا كله أنه ميز «جينفير» عليه . . أحبها أضعاف ما أحبه . .

تسامح معها فى الأخطاء التى يحرمها عليه . . أعطاها كل شىء وحرمه كل شىء ، فيما عدا المهانة والاحتقار والاستهانة بوجوده .

حب الوالدين

ويقول الطبيب النفسى إن الطفل لكى يشب طيب الأخلاق سليم النفس والمشاعر ، يطيع والديه ويحترمهما كما يحترم المجتمع الذى يعيش فيه ، ينبغى أن يحصل على قدر مذكور من الحماية والقوة ، وهو يستمد هذه الحماية وهذه القوة من عطف والديه عليه وحبهما له ولينهما فى معاملته وتقديرهما لاحتياجاته وتسامحهما عن أخطائه وعدلهما التام فى الحكم على تصرفاته .

فإذا شغلت الأم عن الطفل بمتاعبها الخاصة أو التزاماتها المختلفة أو إذا قسا قلبها عليه ، تكون النتيجة أن يحرم من الغذاء النفسى والعاطفى الذى يحتاج إليه ، ويفقد الشعور بالحماية والقوة ، فيشب قلقًا خائفًا متمرداً ناقمًا حاقداً .

وهذه الصفات كفيلة بأن تفقده احترامه لنفسه ، وتدفعه فى طريق الانحراف ، وتنمى بذرة الشر الكامنة فى طيات تكوينه النفسى نموًّا لابد أن يدمره بصورة من الصور .

إن المثل الأعلى لأى صبى فى سن الطفولة هو أبوه ، وهو يتعلم الكثير من هذا الأب عن طريق مراقبته الدقيقة لأفعاله وتصرفاته ، وإذا تعلم قلد واقتبس . . فماذا رأى « بيل » فى رقابته لأبيه ؟ لم ير سوى مخلوق قاس بارد العاطفة عدائى فى سلوكه نحوه ، لا يعرف الرحمة فى

معاملته . وبهذه الصفات المقيتة أثر الأب فى شخصية ابنه دون أن يدرى . وطبعها بطابعه .

فالصبى « بيل » لم يجد أمامه ما يحتذيه فى مثله الأعلى سوى القسوة البالغة . لذلك اختار لعقاب أبيه نفس الأسلوب . . أى القسوة . وعمد فى التنفيس عن غضبه المكبوت بحرمان أبيه من البنت الصغيرة التى منحها كل حبه . والتى عذب أخاها المسكين إكراماً لها ودون ذنب جناه .

أراد أن يؤلم والده مثلما آلمه مراراً . فاختار له أشد أنواع الإيلام فى غمرة انفجار نفسانى مفاجئ أعمى ضميره عن التمييز بين الخير والشر . والتفرقة بين الصواب والخطأ .

والسؤال الذى يدور فى أذهاننا الآن هو : هل من الممكن علاج الانحراف الخطير العنيف الذى يصيب طفلا مثل « بيل » ويدفعه إلى التردى فى أحضان السقطات الأخلاقية البشعة نتيجة لتقصير والديه فى معاملته بالأساليب التربوية السليمة ؟

ويجيب الطبيب عن هذا السؤال بأن إنقاذ المنحرف الصغير وتقويمه لا يكون بالضرب ولا بالسجن ولا بالإيداع فى مؤسسات تأديبية مثل الإصلاحيات . . إنما يكون الإنقاذ والتقويم بالعلاج النفسى . وقد ينجح هذا العلاج مائة فى المائة إذا كان المنحرف الصغير مازال يحتفظ بقدر من الثقة بالآخرين . ويشعر بعطف الطبيب عليه . فيسلم له قياده كى يتيح له فرصة تطهيره من أدران الحقد والكراهية . ويعيد إليه القدرة على التمييز بين الخير والشر . . . وقد لا ينجح العلاج إذا كان الضرر قد استفحل وتوغل فى النفس وترك آثاراً لا تمحى ، فى مثل هذه الحالة

يسجن الطفل نفسه بين جدران الحقد والكراهية ويغلق أبواب عقله الباطن في وجه الطبيب بحيث يعجزه عن الوصول إلى قراره . . .

ومثل هذا الصبي ، حتى إذا أقلع عن الإجرام فيما بعد ، لا يفعل ذلك ندمًا على ما فعل ، أو تقديراً لقبح غلطته ، بل تلافيًا للمتاعب المستقبلة . . ومعنى ذلك أن يعيش ما تبقى له من الحياة بشخصية هزيلة غير قادرة على التجاوب مع المشاعر النبيلة . . .

"كارولين" تنتقم لطفولتها

* لماذا كانت ليلة عيد الميلاد قنبلة فجرت أحزان كارولين ومتاعبها ودفعتها إلى ارتكاب جريمتها البشعة ؟

وقعت حوادث هذه المأساة فى ليلة الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٦١ م وهى ليلة عيد الميلاد المجيد الذى اعتاد العالم المسيحى كله أن يحتفل به ، كل بطريقته المميزة . . فعلى عكس ما يحدث عندنا فى « الكريسماس » من صخب وهرج ومرج . يحرص الناس هناك على ملازمة بيوتهم بعيداً عن الأماكن العامة . . ويتركون الشرب والرقص واللهو ليلة رأس السنة التى يطلقون فيها لأنفسهم حبل المرح على غاربه . أما فى « الكريسماس » أو عيد الميلاد فيضفون عليه طابعاً عائلياً وقوراً يجمع شمل الأسرة حول مائدة عميدها بعد العودة من الكنيسة والانتهاء من أداء الشعائر الدينية الواجبة . .

والمسيحيون فى أمريكا وأستراليا وغيرها من قارات العالم يعتبرون الاجتماع بالوالدين والإخوة فى هذه المناسبة سنة مقدسة ، وكثيراً ما يأتون من بلاد بعيدة لقضاء هذا العيد مع أهليهم وإخوانهم من ذوى القربى . . لذلك تجد الأماكن العامة هناك تكاد تكون خالية من روادها . فيما عدا البائسين الذين شاءت ظروفهم التعسة أن تمزق روابط انتمائهم العائلى وتلقى بهم فى أحضان الوحدة المريرة . فمثل أولئك البائسين لايجدون فى « الكريسماس » من يلوذون به ، فيلجأون إلى الحانات ليغرقوا فى كئوس الخمر همومهم . .

وفى تلك الليلة من العام المذكور دخلت « كارولين » برفقة صديقتها « جين » إحدى الحانات الواقعة فى قلب مدينة « نيويورك » الصاخبة دائماً بالناس والأحداث . .

وكانت « كارولين » فى الثامنة عشرة على أكثر تقدير ، جميلة الوجه .

غزيرة الشعر ، رشيقة القوام . . ترتدى ثوباً رخيص الثمن ، لكنه غاية فى البساطة وسلامة الذوق .

لكنها كانت عند دخولها الحانة محتقنة الوجه حادة النظرات سريعة الخطوات ، تدب بقدميها على الأرض فى عصبية واضحة ، على عكس رفيقتها « چين » التى كانت تسير بجوارها بادية الهدوء والمسالمة كأنها منقادة لها واقعة تحت تأثيرها ؛ .

وألقت « كارولين » نظرة سريعة على الجالسين فى الحانة . فلما رأت القاعة مليئة بهم على غير المعتاد ، فى مثل تلك الليلة المباركة ، وكان معظمهم من الكبار الناضجين الذين ينم مظهرهم على أنهم من أرباب الأسر ، ولابد أن يكونوا أزواجاً وآباء . . ازداد وجهها حنقاناً وهمست تقول لصاحبتها فى عنف ومرارة : « هكذا الرجال دائماً . . خنازير قذرة ، لا قلب لها ولا ضمير . . يتركون ذويهم يصارعون الوحدة والحرمان فى ليلة كهذه ، من أجل أن يملأوا بطونهم بالخمر ، و ينفقوا حصيلة دخلهم الأسبوعى فى إرضاء نزواتهم الحقيرة . . » .

وهزت « چين » رأسها مصدقة على كلام صاحبتها دون أن تنطق بكلمة ، وسارت بجوارها فى استسلام إلى أن وصلتا إلى « البار » فجلستا على مقعدين عاليين وسط الرجال المجتمعين حول الساقى . وبصوت مرتفع عامر بالتحدى طلبت « كارولين » كأسين من أقوى أنواع الخمور ، أعطت إحداهما لصاحبتها ورفعت الثانية إلى فمها وابتلعتها دفعة واحدة ، ثم أمرت بدورة ثانية وهى تحض « چين » على الإسراع فى الشرب .

ولم يكن من المألوف أن يرتاد الحانات فى ليلة عيد الميلاد سوى نساء الليل المحترفات. وكانت الخمر قد لعبت برؤوس المجتمعين حول « البار » ، فأخذوا يتغامزون على الفتاتين . واجترأ بعضهم على رفع صوته بعبارات تخدش الحياء . .

وازدادت براكين الغضب تأججاً فى صدر « كارولين » . وقد اعترفت فيما بعد فى أثناء التحقيق أنها كانت تصرخ بأعلى صوتها احتجاجاً على قحة هذا الرجل . . الذى يمثل أبناء جنسه من الخنازير البشرية القذرة الذين لا يعرفون فى تعاملهم مع النساء سوى استغلالهن فى إرضاء شهواتهم الحيوانية ، و بمجرد أن يقضوا حاجتهم منهن يديرون لهن ظهورهم ، وينبذونهن بلا رحمة أو شفقة . .

لكن « كارولين » استطاعت حتى هذه اللحظة أن تسيطر على ثورتها النفسية ، فلزمت الصمت برهة ثم لم تلبث أن قفزت من مقعدها واقفة ، وبعد أن ألقت إلى الساقى بثمن الشراب أسرعت بالخروج من الحانة وهى تجذب « چين » من ذراعها . .

سألتها « چين » بمنتهى الهدوء والبراءة : هل نعود إلى البيت فى هذه الساعة المبكرة ؟

أجابت فى حدة وعنف : أتسمين الغرفة القذرة التى نسكنها بيتاً ؟ والله إنى لأفضل أن أقضى الليل فى الشوارع على العودة إلى جحرنا العفن . .

واستوقفت سيارة تاكسى تصادف أن مرت بهما فى تلك اللحظة ،

وطلبت من سائقها أن يحملها إلى حانة أخرى تقع فى إحدى ضواحى مدينة نيويورك . .

وجلست فى مقعدها جامدة وقد تسمرت عيناها على حذاء صغير لطفل رضيع يعلقه السائق على المرآة الموضوعة أمامه . .

وحاولت « چين » مراراً أن تجاذبها الحديث علها تخرجها من حالة الانفعال النفسى المسيطرة عليها ، لكنها لم ترد أو تتحرك ، إذ كانت بقلبها ومشاعرها وسمعها وبصرها مع الحذاء الصغير المدلى من المرآة . . حذاء الطفل الذى لابد أن يكون الآن نائماً بفراشه فى انتظار عودة أبيه من العمل . .

قال السائق فى تظرف : لابد أنكما تعتزمان قضاء ليلة حمراء فى الحانة البعيدة ، ولكن ألستما أصغر سنًّا من أن تمارسا مثل هذه الحياة ؟ !

ولقد ذكرت « چين » فى التحقيق أن « كارولين » التى ظلت منذ ركبت السيارة مسمرة النظرات على الحذاء الصغير المعلق أمامها ، انتفضت فجأة حين سمعت سخرية السائق وتعريضه بهما ، وعلى غير انتظار فتحت حقيبة يدها ، وأخرجت منها غدارة صوبتها إلى رأس الرجل وهى تأمره بالوقوف . . وعندما اضطره الخوف إلى تنفيذ أمرها ، طلبت إليه أن يعطيها كل ما معه من النقود ، وهى تقول فى صوت كأنه يأتى من العالم الآخر : « أسرع بنقودك قبل أن ألهب رأسك برصاصة تطيح بأفكارك القذرة . . »

قال فى غضب : ليس من حقك أن تفعلى ذلك !

أجابت ، وقد ازدادت حدة وانفعالا : « إياك أن تنطق بهذه العبارة مرة أخرى ، فلقد عشت طوال عمرى أسمعها كلما أردت أن أفعل شيئاً ! »

قال وهو يمد يده إلى جيبه ليخرج حافظة نقوده : أيتها البغى !

ولم يتم كلامه ، فقبل أن تصل يده إلى جيبه كانت الغدارة قد انطلقت وأصابته فى جمجمته ، فتهاوى الرجل على عجلة القيادة صامتاً والدماء تنفجر من رأسه . .

صرخت « چين » فى رعب مميت : لقد قتلته يا « كارولين » !

أجابت القاتلة الشابة وكأنها تستفيق فجأة من كابوس مخيف : والله ما أردت أن أقتله ، لكنه سبنى ، فطار صوابى ولم أعد أشعر بما أفعل . . لم أكن أبتغى سوى نقوده !

قالت « چين » : لماذا تريدين نقوده ومعنا كفايتنا وأكثر ؟ !

أجابت فى ذهول : لست أدرى ، شىء ما أهابنى فجأة أن أفعل ذلك . .

قالت « چين » وهى تبكى بحرقة : من أين أتيت بهذه الغدارة ؟ فعلى طول معرفتى بك لم أرك يوماً تملكين سلاحاً أو تحملينه ؟!

أجابت فى همس كأنها لا تقوى على النطق : سرقتها قبل أيام من زميل لنا فى المعهد . . كان يحتفظ بها فى درجه بحجة الدفاع عن نفسه وقت اللزوم ، لكن الرجال يعيشون فى أمان وليسوا فى احتياج إلى حماية أنفسهم بالأسلحة .. نحن أولى بها منهم ، لأننا نتعرض لإهانات الرعاع والسكارى واعتداءات الذئاب البشرية التى تتربص بالوحيدات مثلنا . .

قالت « چين » : وما العمل الآن ؟

أجابت : علينا أولا أن نسرع بالابتعاد عن السيارة والتخلص من الغدارة ، ثم نترك الباقى إلى الصباح .

ونزلت الفتاتان من السيارة ، وسارتا مسرعتين بعيداً عن مكان الجريمة . وعند أول صندوق قمامة قابلهما ألقت فيه القاتلة بالغدارة ، ثم عادت الاثنتان لتقضيا البقية الباقية من ليلة عيد الميلاد فى غرفتهما الحقيرة ، أو الجحر العفن على حد تعبير « كارولين » . .

ومرت بهما ليلة ليلاء . لم يغمض لهما جفن فيها . . وفى الصباح المبكر خرجتا إلى الطريق مرة أخرى للبحث عن إحدى الجرائد اليومية . .

وفى الصفحة الأولى وجدتا قصة مصرع السائق ، وكيف عثر عليه رجل الشرطة مقتولا بالرصاص فى منطقة نائية من طريق الضواحى . . وجاء فى سياق الخبر أن الجريمة لم تكن للسرقة بدليل العثور على نقوده كلها سليمة فى جيبه ، كما فشل البحث والتقصى فى الاهتداء إلى شاهد يستطيع أن يدلى بمعلومات تفيد فى الإرشاد إلى القاتل . .

كانت « كارولين » فى أمان ، وليس من المحتمل أن تحوم حولها الشبهات .

لكنها أصرت على تقديم نفسها للشرطة ، وقالت فى تبرير تمسكها بضرورة هذه الخطوة الكفيلة بتدميرها : « لقد قتلت رجلا ، وحرمت إنساناً من حياته دون وجه حق ، وما دامت العين بالعين والسن بالسن ، فعلىّ أن أعترف بجريمتى وأكفر عنها . . » .

وسارت بخطوات جادة إلى مركز الشرطة ، وتقدمت إلى الضابط النوبتجي باعترافها . .

ولم يصدق الضابط لأول وهلة أن فتاة صغيرة جميلة مثلها تقترف جريمة دموية رهيبة كهذه دون مبرر معقول . .

وتصور أنها من المجانين الذين كلما قرأوا فى الصحف عن جريمة يتقدمون إلى الشرطة زاعمين أنهم مرتكبوها ثم لا يلبث التحقيق أن يثبت براءتهم الكاملة . .

وهذا النوع من الجنون مألوف فى أمريكا ، والمصابون به يسببون للشرطة متاعب كثيرة . .

لكن الفتاة أصرت على أنها القاتلة . وأدلت بمعلومات وتفاصيل لا يعرفها سوى القاتل . كما أرشدت إلى مكان الغدارة حيث ألقت بها فى صندوق القمامة ، فلم يبق مفر من اتخاذ الإجراءات القانونية ضدها .

ونظراً لصغر سنها ثم عجزها التام عن إعطاء مبررات مقنعة لجريمتها . أمر القاضى بإحالتها إلى طبيب نفسى للتأكد من سلامة عقلها قبل تقديمها للمحاكمة .

وقضى الطبيب النفسى ستة أشهر فى مجالستها بحثاً عما يختزنه عقلها الباطن من الدوافع إلى الجريمة .

ولقد لقى منها فى البداية مقاومة شديدة فى فتح عقلها الباطن . لكنه لم يلبث أن نجح بوسائله العلمية فى الوصول إلى قصة حياتها ، وما اكتنفها من مآس قذفت بها بعيداً عن طريق السلامة .

فقد ولدت « كارولين » بمدينة ديترويت ، وهرب أبوها قبل مولدها أو بعده بشهور ، فالحقيقة لا يعرفها أحد ، والمعلومات الوحيدة التى توصلت إليها الفتاة عن نفسها وجدتها فى ملف خاص بحالتها مودع لدى محكمة الأحداث . . فى ذلك الملف عرفت ما يفيد بأن أباها آثر أن يهرب من بيته تخلصاً من أعبائه العائلية ، تاركاً خلفه زوجته وبناته الثلاث بلا عائل أو معين . . وقبل أن تبلغ كارولين الشهر الثامن من عمرها ، ماتت أمها وأختاها الكبيرتان بالتسمم إثر تناولهن وجبة من الطعام الفاسد . . ولم تتمكن الجهات المسئولة من العثور على أهل لـ « كارولين » الرضيعة ولا على أقارب أو أصدقاء ، فصدرت الأوامر بإيداعها أحد الملاجىء إلى أن تحين لها فرصة المعيشة فى أسرة بديلة . .

وبعد أيام من دخولها الملجأ تقدمت سيدة فى منتصف العمر اسمها مسز « ديمنج » وأبدت استعدادها لتربيتها لقاء أجر تتلقاه من إدارة رعاية الطفولة ، فأجيب طلبها بلا أدنى تردد نظراً لأنها سبق أن تعهدت برعاية فتاة يتيمة أخرى اسمها « بتى » ، وثبت بالبحث والتقصى أنها أحسنت القيام بمهمتها وما زالت ربيبتها الأولى تعيش معها فى هدوء وسلام . .

غير أن « بتى » كانت فى العاشرة من عمرها ، وفى مقدورها أن تقوم بخدمة نفسها ، ومساعدة أمها البديلة كذلك فى آداء الواجبات المنزلية . . على عكس « كارولين » الرضيعة التى كانت بحكم سنها الصغيرة تعتمد فى كل لحظة من حياتها على جهود أمها البديلة . فهى التى ترضعها وتنظفها وتغير لها ثيابها وتغسلها ، هذا غير السهر عليها بالليل وحملها بالنهار ، مما حول الطفلة إلى عبء رهيب أثار عليها نقمة المرأة ،

وحرمها من الحب الذى كانت تغدقه على « بنى » ذات الفوائد الكثيرة .

والمعروف علمياً أن الأطفال فى بداية حياتهم يكونون بالغى الحساسية لمشاعر أمهاتهم نحوهم . أو مشاعر من يقمن منهم مقام الأمهات . . فانعكست نقمة مسز «ديمنج» على الرضيعة المسكينة ، ودفعها طوال المرحلة الأولى من عمرها إلى أن تكون مصدراً لتعكير صفو أمها البديلة بالبكاء المستمر ليلا ونهاراً ، وبالتبول على نفسها إلى ما بعد السن التى تسمح بذلك . .

ولقد ضاعفت هذه المضايقات من نقمة المرأة على « كارولين » حتى بلغت المسألة مبلغ العداوة السافرة . ومن آيات ذلك أن حرمت على الفتاة مناداتها بلقب أمى . كما تفعل بنى . وإذا أفلتت هذه الكلمة من فمها عفواً تزجرها قائلة : « لاتنادينى هكذا مرة أخرى . فلست أمك ولا أحب أن أكون كذلك » . وكانت « كارولين » ترد العدوان بالمثل . فإذا ضربتها مسز « ديمنج » لسبب من الأسباب — وكثيراً ماكانت تفعل ذلك — تصرخ الفتاة فى وجهها قائلة : « لست أمى كى تضربينى هكذا » !

ومضت السنوات الأولى من حياة الفتاة فى وحدة نفسية قاتلة : تشعر فى هذا العالم الكبير المليء بالناس أنها وحيدة . . لا تنتمى إلى أحد . . ولا أحد ينتمى إليها . . على عكس جميع من تعرفهم من الأطفال الآخرين سواء أكانوا من زملائها فى المدرسة أم من أبناء الجيرة ، فقد كانوا — حتى الأيتام منهم — يعيشون فى كنف أسر سعيدة مترابطة تدفئ حياتهم بالحب والحنان والرعاية . . فيما عدا القلة من مثيلاتها المحرومات من الروابط

الأسرية ، فهؤلاء المنبوذون يقضون أجمل سنى عمرهم بين جدران الملاجئ دون هدف أو أمل أو احترام اجتماعى ، وهو المصير الذى كانت « كارولين » ترهبه ، وتفضل عليه الموت ألف مرة . . فمسز « ديمنج » — برغم قسوتها البالغة — تمنحها على الأقل حياة أسرية ولو فى شكلها الظاهر ، وهذا أكرم من المعيشة فى الملاجئ وما يكتنفها من تحقير وخزى وإذلال . .

ولما بلغت « كارولين » السادسة من عمرها قررت مسز « ديمنج » أن تترك ديتر ويت وتعيش فى نيويورك ، فأودعتها مؤسسة للأيتام وسافرت بصحبة « بنى » إلى مقرها الجديد ، بعد أن وعدت بالإرسال فى استدعاء الصغيرة عندما تعثر على المسكن الملائم وتنظم أحوالها فيه . .

غير أن « كارولين » بطفولتها البريئة تصورت أن أمها البديلة قد انتهزت الفرصة للتخلص منها نهائيًا ، وليس فى نيتها أن تبعث فى استدعائها كما وعدت ، ومعنى ذلك أنها فقدت جميع الروابط الاجتماعية التى تصلها بهذه الدنيا ، وأن مسز « ديمنج » هجرتها مثلما سبق أن هجرها أبوها بالهرب ، وهجرتها أمها وأختاها بالموت .

وإزاء شعورها بأن العالم أجمع قد تخلى عنها تملكها ذعر شديد من الخطر المجهول الذى يتربص بها ، فأصيبت بانهيار عنيف انقطعت معه عن الأكل والنوم ، وعادت مرة أخرى تتبول على نفسها وتمص أصبعها ، مما أثار عليها موظفات المؤسسة ودفع بالبنات إلى معايرتها والسخرية منها ؛ جزاء هذه التصرفات التى كانت تأتيها برغم إرادتها . .

ولم تكن مسز « ديمنج » تنوى التخلص منها كما توهمت ، وقد وفت بوعدها فأرسلت فى استدعاء الفتاة بعد أن نظمت أحوالها بمدينة نيويورك ،

غير أن الضرر النفسي كان قد وقع وانتهى الأمر . وأصبحت « كارولين » في حالة خوف مستمر من أخطار مجهولة يعجز عقلها الواعي عن توضيحها لها . .

وكانت في العاشرة من عمرها عندما اضطرتها الأنشطة المدرسية ذات مساء إلى العودة إلى البيت متأخرة ، واختصارا للوقت تركت الطريق الذي تسلكه كل يوم وفضلت الرجوع عبر حديقة تقع بين المدرسة والبيت . .

وبينما كانت تسير في ظلام المساء بتلك الحديقة ، فوجئت برجل من الذئاب البشرية يخرج إليها من بين الأشجار بقصد افتراسها . . فإذا بالخوف الشديد يمنحها قوة مضاعفة ، وراحت تقاومه وتصرخ بأعلى صوتها حتى أثارت اهتمام من تصادف مرورهم بالحديقة حينئذ . فخاف الرجل ولاذ بالهرب بعد أن تمزقت ثيابها . وأصيبت في وجهها وعنقها وذراعيها بجروح وخدوش كثيرة . .

وعادت إلى البيت في حال يرثى له . .

وأسرعت وهي تلهث وترتجف إلى أمها البديلة تحدثها بما أصابها ، غير أن السيدة لم تبد أدنى اهتمام أو شفقة ، وكل ما فعلته أن نظرت إلى ثيابها وجروحها وقالت في سخرية واضحة : « أي حمار هذا الذي تجتذبه فتاة مثلك ؟ ! » .

ومنذ ذاك الحادث تغيرت أحوال « كارولين » . ولوحظ عليها نفورها من الرجال ، وميلها الشديد للاحتماء دائماً بالنساء ، حتى ولو كانت مسز « ديمنج » التي تعرف حق المعرفة أنها تكرهها وتفضل « بتي » عليها . .

ولقد شرعت الفتاة فى الانتحار ثلاث مرات : أولاها وهى فى الثالثة عشرة من عمرها ، عندما دعتها إحدى زميلاتها بالمدرسة إلى حفل عيد ميلادها ، وهو حدث عظيم فى حياتها المجردة من كافة أنواع الترفيه والمتعة . ونظراً إلى أن ثيابها كانت جميعها عتيقة وليس بينها ما يليق لهذه المناسبة ، فقد طلبت من أمها البديلة أن تصنع لها ثوباً بسيطاً جديداً يحفظ لها كرامتها بين المدعوات الأخريات . . غير أن طلبها قوبل بالرفض القاطع ، فطاش عقل الفتاة ، ولفرط يأسها جرت إلى زجاجة حامض الفنيك وشربت منها جرعات كبيرة أملا فى أن يريحها الموت من مذلة الحياة التى قدر عليها أن تعيشها ، لكنها أسعفت بالعلاج ، وكتب لها أن تبقى على قيد الحياة برغم إرادتها . .

وتكررت المأساة بعدها بسنتين ، عقب مشادة عنيفة قامت بينها وبين مسز « ديمنج » بسبب شكوى ظالمة تقدمت بها « بتى » ضدها ، فانهالت السيدة على الفتاة ضرباً دون أن تبحث فى الموضوع أو تتحقق من صدق ربيبتها المفضلة .

ومرة أخرى قررت « كارولين » أن تضع حداً لحياتها ، فابتلعت محتويات زجاجة الأسبرين ، ونقلت إلى المستشفى فى حالة سيئة ، لكنها أسعفت بالعلاج مثلما حدث فى انتحارها الماضى . وكتب لها أن تعيش لتجرع ما تبقى لها من كئوس العذاب المترعة . .

غير أن مسز « ديمنج » وجدت فى هذه الميول الانتحارية انحرافاً خلقياً لا يصح السكوت عليه ، فرفعت أمرها إلى إدارة رعاية الأحداث ، فصدر عليها الحكم بسنة تأديبية تقضيها فى إصلاحية الأحداث . وبعد

انقضاء العقوبة عادت مرة أخرى إلى أمها البديلة . ولكن بعد أن تعلمت درساً لا ينسى ، وهو ضرورة الاحتمال فى صمت حتى لا تتعرض مرة أخرى لتجربة الإذلال فى الإصلاحية . .

وأحست مسز « ديمنج » بما يختلج فى ذهن الفتاة ، فاستغلت الموقف أسوأ استغلال ، وأخذت تتحين الفرص لتهددها بإعادتها إلى الإصلاحية ، حتى إذا لم تأت بما يدعو لهذا العقاب . .

لكن شيئاً حدث خلال مدة عقوبتها ترك أثراً عميقاً فى نفسها ، وغير اتجاه ميولها ورغباتها . فلقد تنبهت فى أثناء وجودها بالإصلاحية إلى أنها رائعة الجمال . لديها من الإمكانيات النسوية ما يتيح لها فرص الحياة المحترمة . . إذ كانت زميلاتها صريحات فى امتداح شكلها وقوامها وجمال شعرها . وكثيراً ما كن ينصحنها باستغلال هذه المميزات فى الاشتغال كعارضات للأزياء . . وتقبلت « كارولين » هذه النصيحة بلهفة . بعد أن وجدت فيها وسيلتها الوحيدة إلى الارتقاء بنفسها إلى مستوى اجتماعى أفضل . . وبمجرد خروجها من الإصلاحية التحقت بمعهد لعارضى الأزياء وعارضاته ، حيث قابلت « جين » — وكانت يتيمة مثلها لا أهل لها ولا أصدقاء — فتوثقت عرى الصداقة بينهما . . وبعد فترة قصيرة من التحاقها بالمعهد أخذ طريق الحياة يتسع أمامها . وأثار جمالها اهتمام المعلنين من مصممى الأزياء ، فكانوا يلبسونها أجمل ما لديهم ويصورنها فى أشكال مختلفة . ثم ينشرون الصور بالصحف والمجلات لقاء أجر طيب بنى باحتياجاتها . .

ومع أن اسمها لم يكن ينشر على الإطلاق ، فقد كانت تجد فى ظهور

صورها على صفحات المجلات ترضية نفسية بالغة ، ولفرط اعتزازها بذلك كانت تقص الصور وتجمعها فى كراسات كبيرة أعدتها لهذا الغرض . .

وأخذ نفورها من الرجال يتضاءل عندما وقعت فى حب زميل لها بالمعهد اسمه « بوب » ، وكان شاباً وسيماً من أسرة طيبة وبنات المعهد كلهن يتمنين رضاه ، غير أنه اختار كارولين من دونهن جميعاً ، فأغرقها بفيض حبه وحنانه إلى أن سلمته نفسها مطمئنة إلى صدقه وإخلاصه . . لكنه سدد إلى كرامتها طعنة نجلاء حين تخلى عنها فجأة بعد أن نال منها وطره ، وتحول إلى فتاة أخرى من زميلاته . .

كانت الصدمة أشد من أن تحتملها ، وخيل إليها كأن السماء بكاملها انطبقت فوق رأسها ، فابتلعت حبوباً منومة بقصد الانتحار ، لكنها أنقذت لسوء الحظ مرة ثالثة . .

ومرت بها شهور فى شقاء ما بعده شقاء . .

ثم بدأت زهرة الأمل تنبت فى قلبها من جديد ، حين تعرفت بمصور للأزياء اسمه « إيدى » يبدو — فوق ذكائه ومهارته — ناضجاً مثقفاً ينظر إلى الحياة من جانبها الرصين . ويتعامل مع الآخرين بغاية الأدب والتهذيب . . وقد أظهر غاية المهارة والكياسة فى اجتذابها إليه . وعندما أحبته متصورة أن القدر قد أصدر عفوه عنها ، دعاها إلى قضاء ليلة معه فى أحد الفنادق الريفية ، وفى الصباح اعترف لها بأنه متزوج وله ولدان وليس فى نيته

أن يطلق زوجته أو يهجر ابنيه . فكانت ضربة أخرى ألقت بها فى أحضان اليأس دون شفقة أو رحمة . .

وبلغت « كارولين » الثامنة عشرة من عمرها . وأصبحت بحكم القانون ولية أمر نفسها ، فتركت مسز « ديمنج » إلى غير رجعة ، واستقلت بمعيشتها فى غرفة تقاسمتها هى و « چين » صديقتها الوحيدة فى الحياة . .

وتصورت أنها باستقلالها فى المعيشة ونجاحها فى عملها قد تخلصت نهائيًا من عبودية اليتم الذى عذب حياتها منذ بدايتها . وساعدها ذلك على قهر محنتها مع « إيدى » فأشرق وجهها بالبشر . وتحسنت نظرتها إلى الدنيا ومن فيها . ثم لاح لها بريق السعادة حين جمعتها الصدف بمحامشاب اسمه « چو » يعمل مع والده فى مكتب قانونى ذائع الصيت ، ويعيش مع والديه فى قصر منيف . . ولم يكن كغيره من الرجال الذين مروا بطريق حياتها . إذ أكد لها رغبته فى الزواج منها ، ولم يطلب الثمن مقدماً . . وبعد أن استوثق الاثنان من صدق شعورهما ، اصطحبها « چو » إلى بيتهم ليقدمها لأمه وأبيه قبل إعلان الخطبة . .

وذهبت مع « چو » وهى تكاد تطير لفرط السعادة والرضا . . وبذلت غاية جهدها فى العناية بأناقتها وجمالها لكى تنال إعجاب والدى الرجل الذى تحبه ويحبها . .

لكن الأب والأم قابلاها بصلافة وعجرفة ، وأخذا يستجوبانها عن أصلها وعملها ، فلما اعترفت لهما بأنها يتيمة نشأت فى أحضان أم بديلة ، والآن تعمل عارضة للأزياء . بدا عليهما الذعر والاستنكار ، وانتهت الجلسة بالفشل الذريع مضافاً إلى المزيد من الإحساس بالمذلة والمهانة . .

وفى اليوم التالى جاءها « چو » يبلغها معارضة والديه فى زواجه بها ، واقتناعه برأيهما ، ثم أولاها ظهره ، وذهب إلى حال سبيله بعد أن رفضت اقتراحه بأن تقبل معاشرته فى الخفاء دون زواج أو أمل فى زواج .

وكان ذلك قبل أسبوع من ليلة عيد الميلاد التى ارتكبت فيها جريمة القتل دون مبرر .

ويقول الطبيب النفسى فى التقرير الذى رفعه إلى المحكمة ، إن ليلة عيد الميلاد بما تحمله من معان وذكريات جاءت بمثابة القنبلة التى فجرت جميع أحزانها ومتاعبها ، ودفعت بمشاكل عقلها الباطن وعقده إلى التغلب على عقلها الواعى بهذه الصورة الدموية العنيفة .

فليلة عيد الميلاد هى ليلة الأسرة والأهل والأحباب ، حيث يجلس الأب ومن حوله أهل بيته يتسامرون ويتبادلون آيات المودة حول الشجرة التقليدية التى تحمل الهدايا والزينات .. فوالد « كارولين » — الذى عرفت من سجلات محكمة الأحداث أنه هرب وتخلى عن أسرته ، وكان بأنانيته السبب فى موت أمها وأختيها بالتسمم — حرمها من حقها فى الانتماء .. فى الاستمتاع بالعيد المبارك ، ووصمها بعار اليتم والفقر ، وتركها تذوق وحدها مذلة الحياة منذ البداية . . ولم تكن هناك ليلة أنسب من عيد الميلاد لتفجير أحقاد الطفلة المهجورة على الرجال فى شخص أبيها ، الذى لا بد أن يكون على قيد الحياة الآن ، يعيش سعيداً مرحاً ناسياً أنه بأنانيته البشعة قد ترك خلفه قطعة منه تتمرغ فى مهاوى الحرمان والإذلال والمهانة . .

كان والدها — فى حكم عقلها الباطن — أول نذل يمر بحياتها . .

ومن بعده توالى مرور الأنذال من بنى جنسه . . الرجل الذى أراد

أن يغتبرسها فى الحديقة . . ثم « بوب » . . و « إيدى » . . و « چو » . . فهذا الموكب الطويل من الأنذال ، الذى شاء حظها النكد ألا تعرف من الرجال سواهم ، أثار نقمتها على الجنس كله . وأيقظ لهيب آلامها النفسية المحرقة ، وردها وهى فى الثامنة عشرة من عمرها إلى الطفلة الرضيعة التى عاشت عمرها محرومة من الأهل والأقارب والروابط الإنسانية المشروعة . . ولقد أكد سوء ظنها بالرجال كونها لم تتصل برجل طيب عن قرب . فقد اختفى أبوها من حياتها قبل أن تصل إلى سن الوعى . وتصادف أن قامت برعايتها مسز « ديمنج » الأرملة . وقد كان من الممكن أن يتغير شعور « كارولين » نحو الرجال ، لو كان لأمها البديلة زوج أو أخ يعيش معهم فى البيت ، ويعطى بأخلاقه وتصرفاته صورة مختلفة عن التى وجدتها فى الأنذال الآخرين .

ويؤكد الطبيب النفسى ما سبق أن قرره العالم النفسى « فرويد » من أن الطفولة ليست بالبراءة التى نظنها ، فالحقيقة أنها أبعد ما تكون عن هذه البراءة ، لأن جميع المشاعر الوحشية التى نجدها فى الكبار البالغين تدور رحاها فى صدر الصغير ، وهى تعتمل فى ذلك الصدر بشدة مضاعفة بسبب قصور تفكير الطفل فى هذه المرحلة المبكرة من عمره . . والدلائل على ذلك واضحة ، فالطفل حين يغضب يضرب بيده أو بما فى يده غير عابئ أو مقدر أن يلقى بنفسه فى موارد التهلكة ، وليس بغريب عليه أن يتمنى الموت لمن يضايقه من أقرب الناس إليه ولو كانت أمه . . والمهمة الأولى فى تربية الطفل تحتم علينا أن نعمل على تحويله من مرتبة العنف الوحشى التى يولد بها ، إلى مرتبة الإنسان المتحضر القدير على التحكم فى

غضبه وقهر مخاوفه ، واستئناس مشاعر الكراهية والحقد التى تنتابه فى بعض الظروف . .

وإذا كان الطفل العادى يحتاج فى عملية التحويل هذه إلى قدر كبير من العطف والحنان والمسايسة ، فالطفل اليتيم المحروم من الأهل والروابط الأسرية يحتاج فى ترويض نوازعه البدائية العنيفة إلى قدر مضاعف من الحنان والحب والرفق والرعاية . . لأن متاعبه النفسية تكون عادة أعمق بكثير من حيث تغلغلها بين طيات عقله الباطن . وبناء عليه يكون من الضرورى جداً أن يسند بتربيته إلى أم بديلة معروفة بالإفراط فى الحنان والطيبة ملمة بحقيقة أحواله النفسية ، حتى يمكنها أن تمنحه جو الاطمئنان والاستقرار والشعور بالانتماء ، وتمحو من نفسه فكرة أنه غير محبوب ولا مرغوب فيه ، فترتقى به فوق حدة نوازعه الانفعالية التى كثيراً ما تدفعه دون سبب أو مبرر إلى تصرفات عنيفة ، تبدو فى نظر من يعايشونه — إذا كانوا غير ملمين بقواعد علم النفس — أنها أخطاء فظيعة ، وتدفعهم إلى العمل على تأديبه بمزيد من التشدد ، وهو عكس المطلوب تماماً . .

من الضرورى جداً أن تكون الأم البديلة لليتيم على بينة تامة بهذه الحقائق العلمية ، حتى يتسع صدرها لعنفه ، وتتوخى منتهى العطف فى إزالة مخاوفه وتهدئته . . لكن مسز « ديمنج » لم تكن من هذا النوع ، بل لم تكن لديها أى فكرة عن علم النفس ، فسلكت الطريق غير الصحيح على طول الخط ، وحرمت الفتاة من كل ما تحتاج إليه لتنشئتها تنشئة سليمة آمنة . . ولو كانت مسز « ديمنج » طيبة فاهمة مقدرة لظروف اليتيم واحتياجاته ، لما تعقدت « كارولين » بهذه الصورة ، ولا اقترفت

جريمة القتل ، أو حتى فكرت فيها . .

لكن . لسوء حظ الرضيعة المسكينة ، أن ألقى بها فى رعاية امرأة قاسية القلب مجردة من الرحمة والشفقة . وبالرغم من المحاولات الكثيرة التى بذلتها الفتاة فى التقرب إليها واسترضائها ، ظلت المرأة على قسوتها . وبذلك غرست فى نفسها أولا بذور عدم الانتماء ، وأيقظت مشاعر العنف والتوحش فى صدرها . . ثم جاءت الضربة العنيفة بتخليها عنها وسفرها مع « بتى » إلى نيويورك ، فالعذاب النفسى الذى لقيته الفتاة فى مؤسسة الأيتام إبان تلك المدة ، والخوف الذى تملكها حين توهمت أنها هجرت ولم يبق فى حياتها إنسان تربطها به أدنى رابطة . أحدثا فى نفسها دماراً دائماً أعمق من أن يصحح باستدعاء أمها البديلة لها بعد استقرارها فى نيويورك ، وقد ظهر أثر ذلك فى عودتها إلى التبول على نفسها ومص أصابعها بعد أن كانت قد تخطت هذه المرحلة .

أما لماذا لم تقتل « كارولين » مسز « ديمنج » بدل السافق ، بل لم تخطر ببالها هذه الفكرة مطلقاً برغم العداوة السافرة بينهما . فذلك لأن الفتاة كانت بعقلها الباطن تعتبرها البديل لأمها المسكينة التى هجرها زوجها دون وجه حق ، ثم ماتت بالتسمم إثر تناولها وجبة من الطعام الفاسد . . فمسز « ديمنج » — برغم إساءاتها المتعددة — ظلت فى نظر ربيبتها الوجه الآخر للأم ، التى عرفت قصتها المحزنة من سجلات محكمة الأحداث . .

ولهذا نجت السيدة من نقمة « كارولين » ، وانحصر حقدها فى الرجال . الجنس الذى عرفته بتجربتها المريرة فى موكب الأنذال الطويل ، وأصبح الرجل هو عدوها الحقيقى الوحيد . ولقد انفجرت مراجل حقدها

الأسود على هذا العدو حين رأت الحانة فى ليلة عيد ميلاد تعج بالرجال البالغين الذين يبدو بوضوح عليهم أنهم أرباب أسر . . آباء وأزواج . . مكانهم فى مثل هذا اليوم المبارك فى بيوتهم بجوار أهليهم . . يسعدونهم ويعمرون حياتهم بالحنان والألفة والمحبة .. لكنهم — لفرط أنانيتهم — انساقوا وراء نزواتهم الحيوانية العابرة ، فتركوا أحباءهم يعانون الوحدة والألم ، من أجل أن يملأوا هم بطونهم بالخمر ، وينفقوا نقودهم فى متعهم الشخصية..

ولقد رأت فى كل رجل يجلس بالحانة صورة مكررة لأبيها ، وبديلا مشابهاً للأنذال الذين خدعوها وتخلوا عنها . .

ويؤكد الطبيب النفسى أن سرقة الغدارة كانت استعداداً نفسياً مسبقاً لارتكاب كارولين جريمة تنتقم بها لعذابها الطويل . . وكان خروجها المفاجئ من الحانة محاولة منها للهرب من الحقد الأسود الذى استولى فى تلك اللحظة على عقلها ومشاعرها . . ولقد شاء سوء حظ سائق السيارة أن تطاول فى حديثه على الفتاتين ، برغم أنه أب بدليل الحذاء الصغير المعلق أمامه . . فأطاح تطاوله هذا بما بقى لها من قوة الإرادة فقتلته ، انتقاماً فى شخصه من والدها وجميع الآباء القساة وكافة الرجال الأنذال ؟ ؟

لقد قتلت « كارولين » فى شخص سائق التاكسى أباها والذئب الذى أراد أن يفترسها فى أثناء رجوعها من المدرسة . . قتلت بوب . . وإيدى . . وچو ، بل جنس الرجال بأكمله . . ورغبة فى تبرير فعلتها لنفسها ، أوحى إليها عقلها الباطن بفكرة سرقة النقود مع أنها كانت تحمل هى وصديقتها « چين » ما يكفى لجميع نفقاتهما خلال تلك الليلة . .

ولم تكن فكرة الموت بجديدة عليها بدليل شروعها فى الانتحار ثلاث

مرات خلال حياتها القصيرة . وبما أن الرغبات الانتحارية قد تكون فى بعض الأحيان مادية وفى بعضها الآخر معنوية . فقد اختارت كارولين — بعد أن نجت من الموت برغم إرادتها — أن تقتل إنساناً غيرها مما يؤدى إلى القبض عليها ومحاكمتها فيتم انتحارها أدبيًّا . .

فجريمة القتل جاءت بديلا للانتحار ، ووسيلة لإعلان احتجاجها على المجتمع الظالم وما ينزله بالأبرياء من ألوان التعذيب والتنكيل . .

ولقد تحقق الهدف الذى كانت « كارولين » تسعى إليه بواعز من عقلها الباطن ، وذلك عندما صدر حكم المحكمة عليها بالأشغال الشاقة المؤبدة . وما زالت بين جدران السجن إلى يومنا هذا .

جريمة إبن ..

* إن الشذوذ الجنسى فى الرجال هو صرخة الاحتجاج على ما حرموه فى طفولتهم من القدوة الحسنة للشخصية السوية ، وما سلبته منهم أمهاتهم من فرص ممارسة سيادة الرجل .

فى صباح اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس عام ٩٥٤: دق جرس التليفون بمركز الشرطة الرئيسى فى مدينة برونكس بالولايات المتحدة ، وكان المتحدث هو المشرف على إحدى العمارات الأنيقة القائمة بالحى الشرقى من المدينة ، وأبلغ أن أحد سكان العمارة . وهو دكتور فرايدون الطبيب المعروف قد وُجد هو وزوجته ميتين داخل الشقة التى يستأجرانها ، وأنه تلقى هذا الخبر من ابنهما الوحيد « هارلو » الذى حضر لزيارة والديه قبل دقائق من هذا البلاغ . وفوجئ برؤيتهما على الأرض فاقدى الحياة ..

ولم تمض نصف ساعة على وصول هذا البلاغ حتى كان ضابط الشرطة يقف أمام باب مسكن دكتور فرايدون . وبعد أن دق الجرس مراراً ، فتح الباب بمنتهى الحذر ، ووقف فيه شاب فى العشرين من عمره تقريباً .. فارع الطول . . شديد النحف . . أحمر الشعر . . يضع على عينيه نظارة غاية فى السمك مما يدل على ضعف نظره . .

قال يقدم نفسه للشرطى : أنا « هارلو » فرايدون الابن الوحيد للدكتور وليام فرايدون وزوجته ، ثم تقدم إلى الأمام خطوة . فظهر خلفه شاب آخر فى مثل سنه لكنه أقصر قامة وأكثر وسامة .

قال « هارلو » هذا صديقى العزيز « دينيس وبمان » ، ولقد استدعيته حين فوجئت بالمصاب ليكون بجوارى . .

ثم انفجر فى بكاء عنيف جداً ، وأخذ يشهق ويشهق ، وبين كل شهقة وأخرى يستنشق من زجاجة نوشادر يمسكها بيده . ويعتذر عن ذلك

بأنه مريض بالقلب ، وهو يحتاج إلى هذا الدواء لمقاومة أثر الصدمة : .

وأفسح « هارلو » الطريق لضابط الشرطة ، ودعاه إلى دخول الشقة ، وقال وهو يقوده إلى مكان الجثتين : يشاء حظى التعس أن أمنى بأربع نكبات خلال هذين الأسبوعين الأخيرين ، وأفقد أعز أربعة أشخاص فى حياتى ، وأنا إنسان مريض القلب وهذه الأحزان فوق احتمالى . :

وإجابة على سؤال ضابط الشرطة عمن يعنيهم بأعز أربعة أشخاص فى حياته ، روى كيف ماتت خالته وزوجها بالاختناق قبل عشرة أيام فى منزلهما الصيفى نتيجة لتسرب الغاز من المدفأة فى أثناء نومهما ، وكيف وجدهما الجيران صريعين بفراشهما فى اليوم التالى . . ولما كان والداه شديدى التعلق بهذين الشخصين ، فقد أصابتهما النكبة بهزة نفسية شديدة آثرا معها الانتحار تخلصاً من ألم الحياة بدونهما . . ثم أكد فى حديثه على اعتقاده بأنه حادث انتحار ، ولا يمكن أن يكون مصرعهما نتيجة لحادث آخر ، فوالده ووالدته محبوبان جداً من كل من يعرفهما ولو معرفة بسيطة ، والاحتياطات التى يتخذانها من الدقة بحيث تجعل من المستحيل على إنسان غريب أن يقتحم عليهما بيتهما . .

كذلك حدث الشرطى بأنه يسكن منذ دخوله الجامعة إلى حين تخرجه فى ذلك الصيف بمنزل مستقل يشاركه فيه صديقه « دينيس » ، وأنه لم ير والديه منذ أيام ، ولما حاول الاتصال بهما تليفونياً صباح اليوم ولم يجبه أحد انتابه بعض القلق فجاء بنفسه يستطلع الخبر ، وفتح الباب بواسطة المفتاح الذى اعتاد أن يحتفظ به معه دائماً ليسهل عليه دخول بيت الأسرة وقتما يشاء . .

وطاف الشرطى بأرجاء الشقة منقباً ، فوجد على منضدة غرفة المعيشة كأسين نصف ممتلئين بجوارهما زجاجة شمبانيا مفتوحة بجانبها علبة من مسحوق سيانور البوتاسيوم — وهو أبشع وأسرع أنواع السم — داخلها ملعقة صغيرة .. أما القتيلان فكانا يرقدان على أرض المطبخ : الأب بملابس النوم والأم بمعطف الخروج . مما يوحى بأنها كانت عندما لقيت مصرعها عائدة من الخارج لتوها . .

واستدعى الطبيب الشرعى لفحص الجثتين . فقرر أنهما ماتا قبل اكتشافهما بأربع وعشرين ساعة على الأقل . وأكد أن الموت قد حدث نتيجة لتناولهما كمية هائلة من سيانور البوتاسيوم المذاب فى الشمبانيا . .

وساورت ضابط الشرطة بعض الشكوك بسبب ثياب القتيلين ورقدتهما المهينة على أرض المطبخ . فلقد تعلم من خلال خبرته الطويلة فى حوادث الانتحار أن المنتحرين يحرصون دائماً قبل إقدامهم على فعلتهم على المحافظة على حسن منظرهم بعد الموت . فيتأنقون فى ثيابهم ويجلسون بطريقة مريحة . ثم يقضون على حياتهم بالأسلوب الذى يختارونه . . وأنه لا يذكر مطلقاً . فى الآلاف من حالات الانتحار التى مرت به ، أن وجد زوجين وفيين ينتحران على أرض المطبخ هكذا . . ثم لماذا يختاران الموت فى هذا المكان المهين مع وجود كؤوس السم المذاب فى الشمبانيا على منضدة غرفة الجلوس حيث المقاعد المريحة والمكان اللائق برجل وامرأة فى مكانة دكتور وليام فرايدون وزوجته ؟

وازدادت الشكوك بالبحث والاستقصاء . فقد ظهر أن القتيل يملك بوليصة تأمين بمائة ألف دولار . ويتقاضى من وظيفته بوزارة الصحة سبعة

آلاف دولار فى العام ، كما تتقاضى زوجته المدرسة بإحدى المدارس الخاصة الأنيقة ما لا يقل عن هذا المبلغ ، وهو دخل مشترك يوفر لهما جميع أسباب الرخاء . . فضلا عن أنهما يتحركان فى دائرة اجتماعية واسعة عامرة بالأنشطة المسلية والأصدقاء الأوفياء ، فليس من المعقول والأمر كذلك أن يؤدى حزنهما على وفاة القريبين إلى الانتحار بهذه الصورة البشعة . .

وبرغم هذه الشكوك القوية لم يجد المحقق دليلا على ارتكاب جريمة ، فأقفل التحقيق على أنه حادث انتحار ، وترك الباقى للزمن .

وحانت الفرصة بعد أسبوع واحد من وفاة دكتور وليام فرايدون وزوجته ، حين وصلت إلى مسامع الشرطة أنباء سهرة حمراء أقامها الابن الوحيد « هارلو » بمسكنه الخاص ، دعا إليها مجموعة كبيرة من البحارة والشبان المستهترين ، وقد ترتب على مجونهم الجنونى أن أنكسرت ماسورة المياه بغرفة الاستحمام ، وتدفقت المياه على الشقق السفلية . فثار غضب المالك على الساكن الأحمق ، وأمره بالخروج فوراً من مسكنه باعتباره مستأجراً غير مرغوب فيه . .

ولقد وجد المحقق منتهى الغرابة فى أن يقيم « هارلو » سهرة ماجنة كهذه قبل مضى أسبوع واحد على موت والديه العزيزين وبكائه الشديد على فقدهما ، فالحزين الحقيقى لا يجد المزاج لمثل هذا المرح المجنون ومصابه مازال قريب العهد هكذا ! . . وبناء عليه بعث المحقق فى استدعاء « هارلو » وصديقه «دينيس» . وعند حضورهما بدا القلق واضحاً على الفتى ، وأخذ يلح فى السؤال عن أسباب استدعائه ، ويجيب على الأسئلة بعبارات فلسفية ، ويستعين فى توضيح أقواله بأبيات من وضع أعظم شعراء إنجلترا

وأمريكا . مما يدل على ارتفاع مستواه الثقافى ؛ وتضلعه برغم صغر سنه فى الآداب القديمة والحديثة . .

لكن عندما ضيق المحقق الخناق عليه ، فهم « هارلو » أن الشكوك تتجه إليه ، فثار ثورة عارمة ، وقال صارخاً : أبلغت بكم القحة أن تتهمونى بجريمة حيوانية كهذه . . لو كان لسانى بقذارة تفكيركم لأجبت بما تستحقونه ، لكنى مع الأسف شاب مثقف مهذب ، لذلك أكتفى بتأكيد براءتى من دم والدى الحبيبين . .

أما صديقه الوسيم « دينيس » فقد ظل طول الوقت هادئاً تماماً يتابع المحقق بنظرات نفاذة قوية . ويستمع إلى الأسئلة والأجوبة جامد الوجه صامتاً كأن الأمر لا يعنيه . .

ومرة أخرى اضطر المحقق إلى الاكتفاء بهذا الحد من متابعة القضية ، وأقفل التحقيق ثانية على أنه حادث انتحار . .

غير أن الأمور أخذت تتكشف فجأة بعد مضى أربعة شهور من الحادث : .

فى ذات صباح من شهر ديسمبر علمت الشرطة من إحدى المضيفات بهيئة الأمم المتحدة ، وكانت تعرف « دينيس » منذ أيام الدراسة ، أنه قابلها فى الطريق مصادفة ، ودعاها إلى تناول العشاء معه . . وكان يلف رأسه بضمادات كبيرة ، فلما سألته فى أثناء الأكل عما به ، اعترف لها بمنتهى الصراحة أنه يهوى كتابة قصص العنف ، وقد نشرت له بعض المجلات أكثر من قصة بوليسية . . ورغبة فى رؤية جريمة على الطبيعة رضى أن يشترك مع صديقه فى قتل والديه مقابل نصف الميراث الذى يؤول إليه بعد

وفاتهما . . لكن « هارلو » لم يلبث أن أخل بشروط الاتفاق بعد أن آلت إليه الثروة ، ورفض أن يعطيه شيئاً من نقوده كما امتنع عن إعالته مثلما كان يفعل فى الماضى برغم سفاهته فى إنفاق المال ، وتبديده خلال الشهور الثلاثة الأخيرة ما يزيد على نصف ميراثه . ولقد ساءت العلاقة بين الصديقين بسبب ذلك ثم حدث ذات يوم أن فوجئ « دينيس » بـ « هارلو » يهجم عليه وفى يده قضيب من الحديد ، ويصرخ وهو يهوى به على رأسه : « إنهم يطاردوننى » . . ونشبت بينهما معركة دموية انتهت بأصابة الاثنين ، وخروج « دينيس » من بيت صديقه نهائياً . .

وبهذه الأقوال دبت الحياة فى عجلة العدالة مرة أخرى : :

وقبض على « دينيس » أولا ، ومن خلال اعترافاته ظهر أن الصديقين مصابان بالشذوذ الجنسى ، لذلك اختارا أن يعيشا معاً فى مسكن واحد كى يتيسر لهما الاستمتاع بانحرافهما بعيداً عن الأهل والأقارب : : .

وبرغم أن والد « دينيس » كان محامياً كبيراً فقد توقف عن الإنفاق على ابنه بعد معرفته بانحرافه ، مما اضطره إلى المعيشة على نفقة « هارلو » الذى كان أبوه وأمه يغدقان المال عليه دون حساب . .

وقبل وقوع الجريمة بشهرين تخرج « هارلو » فى الجامعة بتفوق ، و رفض أن يبحث عن عمل يعيش منه ، ولما كان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وهى سن الرشد ، وأصبحت فى يده شهادة قيمة تمكنه من إعالة نفسه ، رأى دكتور وليام فرايدون وزوجته أن المصلحة تقضى بإجباره على الاعتماد على نفسه ، فأعلناه بعزمهما على قطع المال عنه ، وحددا له شهر أغسطس كنهاية للمهلة التى يمنحانها له ، فإذا وجد العمل كان بها ،

وإذا بقى على تعطله فهو حر فى نفسه . .

ومن هنا بدأ التفكير فى الجريمة . .

فقد أثار الإنذار نقمة الابن المدلل على والديه . ولما تأكد له أنهما جادان فى عزمهما على حرمانه من المعونة المالية . استقر رأيه على ضرورة قتلهما للاستمتاع بالثروة التى تؤول إليه بموتهما . . وبعد أن استعرض مع صديقه جميع وسائل القتل وناقشها ، انتهى إلى اختيار سيانور البوتاسيوم تأكيداً لخدعة الانتحار . .

وأسرع « هارلو » فى إعداد العدة لارتكاب جريمته . فاشترى السم كما اشترى زجاجة الشمبانيا . ثم اتصل بوالديه تليفونياً يزعم لهما أنه وفق إلى عمل ممتاز ، واحتفالا بهذه المناسبة يرجو أن يأذنا له بزيارتهما ليشرب الثلاثة معاً نخب بداية توفيقه فى الحياة العملية . .

ويقول « دينيس » فى وصف ما حدث بعد ذلك . إن « هارلو » اصطحبه إلى مسكن والديه . ولكنه تركه فى الخارج خشية أن يثير وجوده شكوكهما . . وبعد نحو نصف ساعة فتح له الباب ، ودعاه إلى الدخول فكانت صدمة شديدة له حين فوجئ بالزوجين راقدين على أرض المطبخ . . وكانت الأم ميتة والأب يحتضر ، غير أن « هارلو » لم يستطع الصبر دقائق حتى يلفظ فرايدون أنفاسه الأخيرة . ورغبة فى التعجيل بموته فتح فمه وصب فيه جرعة كبيرة من السم . كذلك فعل بأمه مع أنها كانت جثة هامدة . .

وبهذه الاعترافات أصبح من المحتم إلقاء القبض على الابن القاتل . . ولقد عثر رجال الشرطة عليه فى أحد الفنادق الفاخرة ، وكان يرقد

فى سريره يلف رأسه بضمادات ويقرأ فى ديوان شعر ..

وعندما اقتيد إلى مركز الشرطة صمم على أخذ ديوان الشعر معه ، وظل متشبثاً به على مضى أيام التحقيق وفى أثناء المحاكمة . . وكان كلما تناول الحديث وصف ما فعله فى تنفيذ جريمته ، يفتح الكتاب ويتشاغل عما يقال بتلاوة الشعر .. ولقد لزم الصمت معظم الوقت ، والكلام الوحيد الذى رضى بأن يدلى به هو أنه قتل أمه عقاباً لها على جبروتها وتعنتها ، كما قتل أباه لضعف شخصيته ووقوعه تحت سيطرة زوجته . .

ونظراً لوحشية الجريمة وتفاهة الأسباب الدافعة إليها ، قررت النيابة إحالة الشابين المجرمين إلى مستشفى الأمراض النفسية للتثبت من صحة قواهما العقلية قبل تقديمهما للمحاكمة . . وحتى فى المستشفى لم تفلح الحيل فى إقناع « هارلو » بترك ديوان الشعر ، وظل يتشبث به ليل نهار ، وعند النوم يضعه تحت وسادته خشية أن تمتد يد إليه . .

وجاء قرار الأطباء مؤكداً سلامة عقل « دينيس » وضرورة اعتباره مسئولا مسئولية كاملة عن دوره فى الجريمة ، وبناء عليه قدم للمحاكمة ، وتقديراً لاعترافاته التى ساعدت العدالة على أن تأخذ مجراها . أعفى من الإعدام ، وصدر الحكم عليه بالسجن المؤبد . .

أما « هارلو » فقد أجمع الأطباء على أنه برغم تفوقه العلمى وذكائه العظيم وقدرته الفائقة على التعبير عن نفسه ببلاغة نادرة . مصاب بنوع خطير من الجنون يحلق به فى عالم الأوهام والخيالات . وينحرف مذهبه بعيداً عن مسالك التفكير السليم ، نتيجة لإصابته باضطراب عاطفى عنيف حرمه فرصة النضج الذهنى والنفسى . ودفع به إلى طريق العنف

والشذوذ الجنسى . . ومن ثم فهو مريض ولا يمكن أن يعتبر مسئولا عن جريمته . . فصدر الحكم على « هارلو » بإيداعه فى مستشفى الأمراض العقلية . كما عين حارس قضائى على ما تبقى من ثروته لكى يتولى تدبير شئونها إلى حين يشفى — إذا قدر له الشفاء — فيقدم للمحاكمة ثانية . أو يموت فيئول المال لمن يليه فى خط الوراثة . .

ولقد كشف التحليل النفسى الذى استنفد شهوراً متتالية عن مأساة « هارلو » : فقد كان الابن الوحيد لزوجين يختلفان تمام الاختلاف فى شخصيتهما ونظرتهما إلى الحياة . . فالدكتور فرايدون كان طبيباً غاية فى الامتياز . ومن السهل عليه أن يقتنى المال والشهرة بممارسته لمهنته . لكن زهده الأصيل فى الطموح . وميله إلى حياة الراحة والمسالمة . دفعه إلى الاكتفاء بوظيفة حكومية تأتيه بمرتب طيب وتعفيه من المشقة والمسئولية . . . ولقد قدر لهذا الرجل الطيب المسالم أن يتزوج بمدرسة مسيطرة جبارة ، فجعت بعد زواجها منه فى ضعفه وزهده فى الطموح ، فاستبدت به ومحت شخصيته ، الأمر الذى دفع به إلى اختيار الوظائف التى تبعده عن البيت . وتريحه من سيطرة زوجته معظم الوقت . .

وولد « هارلو » فى هذا البيت غير المتوازن . .

وكانت أمه شديدة التعلق به ، إنما بطريقتها الجبارة المسيطرة . فاعتيادها التحكم فى تلاميذها وإجبارهم على النظام . دفعها إلى السلوك ذاته مع ابنها الصغير ، فكانت فى صغره تتركه يبكى الساعات فى فراشه معتقدة أنها ما دامت قد أطعمته وغيرت ثيابه فعليه أن يلزم الهدوء فى سريره ، ولا يطمع فى أن تحمله أو تداعبه بلا داع . . وعندما يحين وقت تبوله

أو تبرزه تضعه على « القصرية » فإن أخرج ما فى جوفه كان بها ، وإذا لم يخرجه تتركه فى مكانه مهما طال الوقت إلى أن يفعل ذلك . . . ولفرط ارتباطها بعملها حرمته نعمة الرضاعة من ثديها ؛ فحرم بالتبعية من حقوقه الطبيعية فى الاكتفاء العاطفى الذى يشبعه نفسيًّا ويمنحه الشعور بالاطمئنان الذى يجده الطفل عادة وهو راقد فى أحضان أمه . . ولشدة لهفتها عليه منعته من الاختلاط بالأطفال الآخرين ، ولكى تعوضه عن هذا النقص غمرته باللعب المختلفة التى يعالج بها وحدته . . وكانت فى غضبها عليه تضربه بيدها على عجزه ، وإذا رضيت عنه تربت بحنان على هذا الجزء من جسمه ، وبذلك جعلت من هذه البقعة مركز العواطف المختلفة ، الطيب منها والردىء ، فأصبح يشعر باللذة والألم عن طريقها . . .

ولقد كان « هارلو » منذ بداية حياته إنسانًا غاية فى رقة المشاعر وشفافية الأحاسيس والخيالات . . . يحب الزهور والعصافير ويطرب بالأنغام الحلوة ، ولما شب عن الطوق ظهر تعلقه بالشعر ؛ فكان يقبل على قراءته بشغف ، لكن هذه الظواهر الرقيقة لم ترق الأم الجامدة المسيطرة ، ودفعها غضبها عليه إلى اتهامه فى رجولته حتى خلال طفولته وقبل أن يعرف أى شىء يسمونه الجنس . . فكلما رأته يحنو على طير أو يعجب بزهرة أو يتلذذ بقراءة أغنية أو قصيدة ، تصرخ فى وجهه قائلة :

« والله إنك لمتخنث ، وياالنكبتى فيك إن كنت حقيقة كذلك » . . وعندما وصل إلى مرحلة الصبا ، ولم يبد عليه اهتمام ملحوظ بالجرى وراء

الفتيات تسبه قائلة : أيها المأفون متى تكف عن هذا التخنث . وتخرج من البيت لتفعل ما يفعله الذكور الآخرون ؟ ! ومع رغبتها الشديدة فى أن تجعله رجلا . ظلت تعامله معاملة الطفل . فتحميه بنفسها بعد تخطيه السن التى يجوز للأم أن تفعل فيها ذلك . . وتطوف بالبيت شبه عارية أمامه . . وإذا حاول مرة أن يرضيها بعقد صداقة مع فتاة فى مثل سنه ، تتملكها الغيرة الشديدة . وتظل تنتقد هذه الفتاة وتسخر من شكلها وتصرفاتها ، إلى أن تزهده فيها وتبعده عنها لكى لا تشاركها أخرى فى مشاعره واهتماماته .

وعاش « هارلو » حياته على هذه الصورة المحزنة . يتلمس حوله بحثًا عن القدوة التى تساعده على بناء رجولته فلا يجدها . . ذلك أن الإنسان الوحيد الذى كان بمقدوره أن ينقذه من محنته ويعالج آثار سيطرة أمه عليه . . وهو والده . . . اختار بضعف شخصيته أن يسلك سبيل السلامة بالابتعاد عن البيت أطول مدة ممكنة . وعندما كان يأتى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع زوجته وابنه . يلوذ بالنادى معظم الوقت . وبالليل يدفن وجهه فى كتاب يتلهى بقراءته عن كل ما يجرى حوله . وكأنه ضيف ليس من حقه أن يتدخل فى شئون الأسرة أو يشترك ولو بدور صغير فى تدبير أمور من فيها . .

ويقول الطبيب النفسى الذى تولى بحث حالة الابن القاتل بعد ارتكابه الجريمة : إن ظروف حياة « هارلو » حالت دون نموه الطبيعى العاطفى ، فمع أنه كان فى الحادية والعشرين من عمره عندما ارتكب جريمته البشعة غير أنه ظل حتى هذه المرحلة المتقدمة طفلا من حيث عواطفه

وأحاسيسه وتقديراته التى لم تجد بسبب سياسة الأم والأب فى تنشئته فرصة الارتقاء فوق مستوى الطفولة . . . فهارلو كان رجلا من حيث تكوينه الجثمانى والبيولوجى . ولكنه لم يخرج عن نطاق الطفولة فى أفكاره ومعتقداته وتصوراته وآماله . . . والأمر كذلك فيما يتصل بسلوكه الجنسى ؛ فالمصابون بالشذوذ الجنسى — خصوصًا المخنثون منهم — هم فى حقيقة أمرهم أطفال فى تصرفاتهم الجنسية . فلفرط خوفهم من مواجهة مسئوليات الاتصال بالجنس الآخر ، يتجهون إلى إشباع لذاته مع الجنس المماثل . .

ولقد كشف التحليل النفسى أيضًا على أن « هارلو » كان مختل العقل منذ الصغر ، فقد كان يكثر من البكاء خصوصًا فى أثناء تناول الطعام وبعده ، وهذا أكبر دليل على الاضطراب النفسى . فالأكل هو أول وأكبر خطوة فى استئناس الطفل وترويض نوازعه البدائية . . والأطفال الذين يقتلون هم الذين لم يستأنسوا ولم تروض نوازعهم البدائية ، فالوسيلة الأولى السليمة هى تزويدهم بمن يطعمهم بعطف وحب وحنان وصبر . وإذا أبدت الأم فى أثناء إطعام طفلها قلقًا وعصبية ، فإنها بذلك تعكس مشاعرها الدفينة عليه . وتضيع عليه فرصة الاستئناس والتروض . . والطفل الذى يبكى فى أى وقت من الليل أو النهار ، حتى لو لم تكن هناك أسباب لبكائه ، يحتاج بشدة إلى أن تهرع إليه أمه ، وتأخذه بين أحضانها لتهدئته وبعث الطمأنينة فى نفسه . لأن الطفل الذى نتركه يصرخ فى طفولته يظل طول حياته يصرخ بطرق مختلفة ، منها ارتكاب الجرائم أو الخروج عن المألوف فى السلوك الجنسى . .

ومع أن الظواهر كلها كانت تدل على اضطراب « هارلو » العقلى والنفسى منذ البداية فإن أحداً ممن حوله وأولهم أمه لم ينتبه للأمر ويعطيه حقه من العلاج . . ولقد ثبت أيضًا من خلال البحث الذى قام به الطبيب النفسى فى حياة « هارلو » أنه بعد أن بلغ الثامنة من عمره أخذت أسرته تعانى من نشوب حرائق فى أماكن مختلفة من البيت . . والعجيب أن هذه الحرائق لم تكن تحدث إلا فى أثناء وجود الابن فى المنزل مع أسرته . ولهذا مغزاه الواضح . غير أن الزوجين التزما الصمت إزاء ذلك مما اضطر الشرطة إلى مواجهتهما بمنتهى الحزم ، عن اقتناع بأن ابنهما هو الفاعل . وأنهما يعرفان ذلك ويتسترّان عليه ، فيحرمانه فرصة معاونة القانون لهما بإيداعه إحدى المصحات للعلاج من هذه الظاهرة الإجرامية التى تنبئ بأخطار كثيرة قادمة . ●

ويؤكد الطبيب النفسى أن مسز فرايدون هى التى أدت إلى دمار ابنها بأسلوبها التربوى معه . . فقد ظلت طول الوقت تعتبره طفلا . وتعامله كأنه عمل أو مهنة . والأمهات المفرطات فى رعاية أولادهن الصغار يسببن لهم منتهى الشقاء . . فالطفل يخضع فى الظاهر للسيطرة والمبالغة فى الرعاية . لكنه فى قرارة نفسه يكون ثائراً غاضبًا حانقًا على هذا الوضع . . والعلم لا يعتبر مثل هذه السياسة دليلا على حب الأم لابنها . بل يؤكد أنه تعبير للعداء الذى تشعر به نتيجة لعجزها الحقيقى عن مسايرة مطالب الحياة ومواجهتها . . فهى بشدة تضييقها على ابنها وإصرارها على تسييره وفق هواها ، ترمى إلى أن تخدع نفسها بتصورها أنها تفعل ذلك بدافع من الحب الشديد ، فى حين أن سلوكها الاستبدادى بالطفل

هو الترجمة الصادقة لخوفها واضطرابها أمام مسئوليات الحيـاة ؛ والنتيجة أنها تعطل النمو العاطفى لصغيرها ، وتحرمه القدرة على التمييز بين المشاعر المختلفة ، مما يؤدى به إلى فوضى كاملة فى مداركه وتفكيره . .

والأمهات اللواتى يفرطن فى التعلق بأولادهن منذ مولدهم وخلال المراحل التالية من حياتهم ، يدفعن أولادهن الذكور إلى الشذوذ الجنسى . . لأنهن فى قرارة قلوبهن لا يرون أن تشاركهن أخرى فيهم ، وبالإيحاء ودون قصد تنتقل هذه الرسالة إلى الفتيان . فيميلون جنسيًّا إلى الذكور أمثالهم ويعاشرونهم ، زهداً فى النساء . .

ويقول علماء النفس إن الإنسان لا يولد شاذًّا جنسيًّا ، وإنما يكتسب هذا السلوك المنحرف عن العديد من التجارب والأحاسيس والمشاعر التى تمر بحياتهم ، والمثل الواضح لذلك نجده فى « هارلو » ، فقد عاش عمره أسيراً لأمه واقعيًّا تماماً تحت سيطرتها ، وكان يشعر بحاسته السادسة أنها لا تريد منه الاتصال بالنساء على عكس ما تقول ، ولقد ثبت بالبحث أنها كانت تضربه فى غضبها وتربت عليه فى رضاها عنه على عجزه وبذلك تجعل من هذه البقعة مركز إحساسه بالمشاعر المختلفة . . . كما كانت تتركه يبكى بالساعات ، وإذا ضاق صدرها تتصور أنه مصاب بـ « تلبك » معوى فتسرع بإعطائه حقنة شرجية . . فإذا أضفنا إلى ذلك كله إصرارها على السير أمامه عارية الجسد بعد السن المناسبة لذلك نجد أنها إلى جانب إثارتها الجنسية له قد أعدته نفسيًّا لمعاشرة أبناء جنسه ، وأبعدته كل البعد عن الجنس الآخر الذى يتمثل فيه الأسلوب الطبيعى لممارسة الجنس . .

والمنحرفون جنسيًّا يكرهون عادة أمهاتهم أشد الكراهية وأعنفها بالرغم من شعورهم الباطن بأنها اتخذتهم أداة لتسليتها و إرضاء لغرورها وعلاجًا لفشلها . . مع أن الطفل لكى نضمن سلامة سلوكه الجنسى يجب أن ينشأ على حب أمه . فمن خلال عاطفته الطاهرة النقية نحوها . . عاطفته الخالية من أوهام الجنس وشياطينه . . يتعلم كيف يحب غيرها من النساء غير المحرمات عليه . وأن يمارس معهن العلاقات الطبيعية بين الرجل والمرأة .

ومع ما عرف من كراهية المنحرفين جنسيًّا لأمهاتهم . فالعادة أن يكونوا شديدى الارتباط بهن . و بواعز من الكراهية والارتباط معًا يتجهون إلى الرجال من أمثالهم . والأمل الوحيد فى إنقاذهم هم الآباء الأقوياء الذين يقفون أمامهم مثلا للقدوة الحسنة . و يتعلمون منهم كيف تكون الرجولة العامرة بالقوة . لكن « هارلو » لم يتح له ذلك بسبب ضعف أبيه وخذلانه ودأبه على الهرب من جو أسرته ومشاكلها بالابتعاد عن بيته . .

ولقد كان هارلو يحب بعقله الواعى أباه لكونه هادئ الطبع طيب القلب . ولكنه يكرهه بعقله الباطن لضعفه وخذلانه وعجزه عن مواجهة زوجته الصارمة المستبدة . .

وكان الموقف بالعكس مع أمه فهو يكرهها بعقله الواعى لسيطرتها وجبروتها . لكنه يحبها بعقله الباطن لتحليها بكافة الصفات التى افتقدها فى أبيه . لذلك قتل الأثنين . متصوراً أنه بقضائه على أمه يريح العالم من شرورها . و بقضائه على أبيه يخرد من عذاب الانقياد لها . .

ويختم الطبيب النفسى تقريره عن هارلو بتأكيده أن الشذوذ الجنسى فى الرجال هو صرخة الاحتجاج على ما حرموه فى طفولتهم من القدوة الحسنة للشخصية السوية ، وعلى ما سلبته منهم أمهاتهم من فرص ممارسة سيادة الرجل . . . لكنهم برغم رضاهم الحسى عن سلوكهم يعرفون فى قرارة عقلهم الباطن أن العلاقة الطبيعية لا تكون بين أبناء الجنس الواحد ، وأنهم بما يفعلونه يرتكبون خطأ يثير احتقار الناس لهم ويدفعهم هم أيضاً إلى احتقار أنفسهم . . الأمر الذى يربك تفكيرهم ويخلط مشاعرهم ويدفعهم إلى الجنون أو ارتكاب أبشع الجرائم . . فالذين يتصورون أن المصابين بالشذوذ الجنسى سعداء هم على خطأ فاحش ، فالحقيقة أن صدورهم مليئة بالعذاب ، ومن خلف واجهة العنف أو البطولة أو عدم المبالاة أو التحدى ، التى يحرصون دائماً على الاحتماء بها أمام مجتمعاتهم ، يختفى الإنسان الخائف . . الإنسان المختل التعس . . الإنسان الذى يتخبط فى عالم كله فراغ ووحدة ويأس . . .

أما « هارلو » فقد وضع بيده خاتمة لحياته بعد فترة قصيرة من دخوله مستشفى الأمراض النفسية ، فلقد عثروا عليه صباح يوم ميتاً فى فراشه ، وظهر من التشريح أنه انتحر بتعاطيه كمية ضخمة من الحبوب المنومة التى استطاع أن يحصل عليها شراً من زملائه المرضى الآخرين مقابل قطع من الحلوى وبعض اللذائذ التى يشتهونها ، ولا يجدون من يأتيهم بها . . ولقد ظل شهوراً يجمع الحبوب المنومة ، فلما توافر له العدد الكافى تعاطاه دفعة واحدة ، فأراح بذلك نفسه من عذابها ، وأراح العالم من وجوده . .

فهرس

صفحة

مقدمة	٥
جريمة أم	٩
« سندرا » تبحث عن الانتماء	٢١
« ماريان » تواجه حقائق الحياه مبكراً	٣٥
« رينيه » تحن إلى ثدى أمها	٥٣
أستاذة الجامعة تحتقر نفسها	٦٧
« لورا » فى حرب مع الفراغ	٨٣
عندما ينقلب الأصدقاء أعداء	٩٧
لمسة المرأة العجوز	١٠٧
« كارين » تسعى إلى الشقاء	١٢٥
عندما ينقم الإبن على أمه	١٤١
عندما يحتقر الإبن أباه	١٥٧
عندما تتنكر الأم لأمومتها	١٦٧
« سلفادور » يعلن الحرب على الظلم	١٨١
« بيل » ينتقم من أبيه	١٩١
« كارولين » تنتقم لطفولتها	٢٠١
جريمة ابن !	٢٢٣

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٨١٧ / ١٩٧٥

مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١ / ٧٤ / ٤٠١